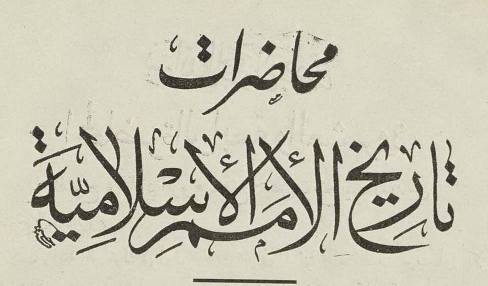


محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

تأليف المرحوم
الشيخ محمد الخضري بك المفتش بوزارة المعارف
ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية



الجزء الثاني

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

الطبعة الرابعة : سنة ١٣٥٤ هجرية

مطبعة الاستقامة
بشارع أم الغلام رقم ١٤ بالحسين

محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

تأليف المرحوم
الشيخ محمد الخضري بك المفتش بوزارة المعارف
ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية



يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر
لصاحبها: مصطفى محمد

الطبعة الرابعة: سنة ١٣٥٤ هجرية

مطبعة الاستقامة
بشارع أم الغلام رقم ١٤ بالحسين

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الرابعة والعشرون

الفتوح فى بلاد الروم ـ فتح حمص ـ فتح بيت المقدس

الفتوح فى بلاد الروم

كانت واقعة اليرموك فى أول خلافة عمر فى أثنائها جاء الخبر بموت أبى بكر واستخلاف عمر وتولية أبى عبيدة إمرة الجيش كله والقواد كلهم تحت إمرته بعد أن انتهت الموقعة سار الجنود نحو فحل [1] من أرض الأردن وقد اجتمع فيها فل الروم وكان على مقدمة الناس خالد بن الوليد وهنا التقت الفئتان فانهزم الروم ودخلت المسلمون فحل وسار الروم إلى دمشق فكانت فحل فى ذى القعدة سنة ١٣ على ستة أشهر من خلافة عمر ثم ساروا إلى دمشق [2] وخالد على المقدمة فحصروها ونزلوا حوالها فكان أبو عبيدة على الناس فأخذوا مواقفهم ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقى مما يلى باب خالد مقاتل إلا أنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم ناحية وعمرو على ناحية ويزيد على ناحية واستمر الحصار نحو سبعين ليلة حصارا شديدا بالزحوف والترامى والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث ولما أيقنوا أن الأمداد لا تصل اليهم فشلوا ووهنوا وأبلسوا وازداد المسلمون طمعا بهم وكان خالد لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه شىء من أمر العدو عيونه زاكية وهو معنى بما يليه فاتخذ حبالا كهيئة السلاليم وأوهاقا فبلغه ذات ليلة أن الناس غافلون فى فرح لعظيمهم فنهد بمن معه من رؤساء الذين قدم بهم من العراق وفيهم القعقاع بن عمرو وأمثاله وقال للجند إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا وانهدوا للباب فلما انتهى إلى الباب الذى يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم

---

(١) من بلاد الأردن بين حوران وفلسطين

(٢) بلد عظيم هو قصبة الشام صارت حاضرة البلاد الإسلامية فى عهد الدولة الأموية

القرب التى قطعوا بها خندقهم فلما ثبت لهم وهقان تسلق فيها القعقاع ورجل آخر ثم لم يدعا أحبولة إلا أثبتاها والأوهاق بالشرف وكان المكان الذى اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق أكثره ماء وأشده مدخل وتوافوا لذلك فلم يبق ممن دخل معه أحد إلا رقى أودنا من الباب حتى إذا استووا على السور حدر عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمى ذلك المكان لمن يرتقى وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على السور فنهد المسلمون إلى الباب ومال إلى الحبال بشر كثير فوثبوا فيها وانتهى خالد إلى أول من يليه فأنامهم وانحدر إلى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة وفزع سائر الذى أراد عنوة أرزمن أفلت إلى أهل الأبواب التى تلى غيره وقد كان المسلمون دعوهم إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا فلم يفجأهم إلا وهم يبوحون لهم بالصلح فأجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الأبواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد عنوة فالتقى خالد والقواد فى وسطها هذا استعراضا وانتهابا وهذا صلحا وتسكينا فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحا وكان صلحها على المقاسمة وصارت دمشق وما أحاط بها للمسلمين صلحا وبعد أن تم أمرها جاء كتاب عمر لأبى عبيدة بصرف أصحاب خالد إلى العراق فسيرهم ورئيسهم هاشم بن عتبة وأبقى خالداً معه ضناً به

الوقعة بمرج الروم

خرج أبو عبيدة وعلى مقدمته خالد يريد مرج الروم وقد اجتمع بها قائدان من قواد الروم توذر البطريق وشنس فوقف الجندان متقابلين وفى الصباح رأوا الأرض خلوا من توذر ومن معه فتحسسوا الخبر فعلموا أن توذر أراد دمشق فأمر أبو عبيدة خالداً أن يتبعه وقد بلغ يزيد بن أبى سفيان وهو بدمشق قدوم توذر فخرج إليه محاربا وبينا هما يتحاربان قدم خالد فأصاب الروم السيف من بين أيديهم ومن خلفهم فلم يفلت منهم أحد ثم عاد يزيد إلى دمشق وعاد خالد إلى أبى عبيدة فلحقه بعد أن انتهى من هزيمة جند شنس إلى حمص

فتح حمص [1]

زحف المسلمون بعد فوزهم بمرج الروم إلى حمص فنازلوها واحتجز الروم بالمدينة

(١) بلد قديم فى شمال دمشق بينها وبين حلب فى نصف الطريق

محصورين فأقام المسلمون على حصارها الشتاء كله وكان الروم ينتظرون أن يهلكهم البرد ولما رأوا أنه لم يصبهم شيء تراجعوا إلى الصلح فصولحوا على مثل صلح أهل دمشق

ثم أرسل خالداً إلى قنسرين فلما نزل بالحاضر[1] زحف إليهم الروم وعليهم ميناس. وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد بالحاضر فهزمهم وقتل ميناس ولم يفلت من الروم أحد أما أهل الحاضر فأرسلوا إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم وتركهم . ولما بلغ عمر ذلك قال أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني وقال في حقه هو والمثنى بن حارثة إني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا إليهما : ثم سار خالد حتى نزل على قنسرين فتحصن أهلها منه فقال لهم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا فنظروا في أمرهم وذكروا ما لقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص ثم فتحت قيسارية[2] على يد معاوية بن أبي سفيان وفتحت أجنادين[3] على يد عمرو بن العاص وكان بها أرطبون وهو أدهى الروم وأبعدها غوراً وأنكاها فعلا ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب قال قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج. أقام عمرو على أجنادين لا يقدر ابن الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد وقال أرطبون في نفسه والله إنّ هذا لعمرو أو أنه للذي يأخذ عمرو برأيه وما كنت لأصيب القوم بأمر أعظم عليهم من قتله ثم دعا حرسياً فساره بقتله فقال اخرج فقم مكان كذا وكذا فإذا مرّ بك فاقتله وفطن له عمرو فقال قد سمعت مني وسمعت منك فأما ما قلته فقد وقع مني موقعاً وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاتفه ويشهدنا أموره فأرجع فآتيك بهم الآن فإن رأوا في الذي عرضت مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والأمير وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمرك فقال نعم ودعا رجلا فساره وقال اذهب إلى فلان ورده إلى فرجع إليه الرجل وقال لعمرو اذهب فجئ بأصحابك فخرج عمرو ورأى أن لا يعود لمثلها وعلم الرومي بأنه

---

(١) مكان بالقرب من حلب يدعى حاضر حلب كان يجمع أصنافا من العرب

(٢) بلدة على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام وكانت قديما من أمهات المدن (٣) من نواحي فلسطين من كورة بيت جبرين

قد خدعه فقال خدعني الرجل هذا أدهى الخلق [1] ثم ناهده عمرو وقد عرف مأخذه فالتقوا بأجنادين فاقتتلوا قتالا شديداً كقتال اليرموك حتى كثرت القتلى بينهم ثم إنّ أرطبون انهزم من الناس فآوى إلى إيليا ونزل عمرو أجنادين

فتح بيت المقدس

كانت إيلياء عاصمة الدين ففيها البيت المقدس وخدّام الدين وكان المتولى لأمر حربهم عمرو بن العاص لأنه ولى على فلسطين وإيليا حاضرتها الكبرى ولما طال على أهلها الحصار رغبوا فى الصلح على شرط أن يكون المتولى لعقده عمر بن الخطاب فكتب إليه عمرو بذلك فسار إلى الشام وهى أول خرجة خرجها وكتب إلى أمراء الشام أن يستخلفوا على ما بأيديهم ويقابلوه بالجابية فلقوه بها فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال سرع ما لفتم عن رأيكم إياى تستقبلون فى هذا الرى وإنما شبعتم منذ سنتين سرع ماندت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المئتين لاستبدلت بكم غيركم فقالوا ياأمير المؤمنين إنها يلامقة وإنّ علينا السلاح قال فنعم إذاً وركب حتى دخل الجابية وعمرو وشرحبيل لم يتحركا من مقامهما وهناك جاءته رسل أهل إيليا يطلبون السلام فسالمهم وكتب لهم كتابا هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى

---

(١) مثل هذه الحكاية بعيدة التصديق وإلا كانت دليلا على بلاهة فاعلها ولا يتصور أنّ قائد جند يخاطر بنفسه هذه المخاطرة تاركا جنده من غير راع لهم خصوصاً إذا كان ذلك القائد هو عمرو بن العاص

بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ومن
كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على
أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ
منهم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة
الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية) شهد على ذلك خالد
ابن الوليد وعمرو بن العاص وعبدالرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب
وحضر سنة ١٥ وبعد أن أعطاهم الامان شخص إلى بيت المقدس وسار حتى دخل
كنيسة القمامة وحان وقت الصلاة فقال للبترك أريد الصلاة فقال له صل موضعك
فامتنع وصلى على الدرجة التى على باب الكنيسة منفردا فلما قضى صلاته قال للبترك
لو صليت داخل الكنيسة أخذها المسلمون من بعدى وقالوا هنا صلى عمر وكتب لهم
أن لا يجمع على الدرجة للصلاة ولا يؤذن عليها ثم قال أرنى موضعا أبنى فيه مسجدا
فقال على الصخرة التى كلم الله عليها يعقوب فوجد عليها ردما كثيرا فشرع فى إزالته
وتناوله بيده يرفعه فى ثوبه واقتدى به المسلمون كافة فزال لحينه وأمر ببناء المسجد
ثم ولى أمراء الشام بعد أن قسمها أقساما وجعل فلسطين ولايتين إحداهما الرملة
والأخرى قصبتها إيلياء - ومما يزيد المسلم شرفا تلك المعاملة الباهرة التى عامل بها
سلفه مغلوبيهم من الوفاء والعدل فإذا قارن ذلك بما أصيب به أهل إيلياء حينما فتحت
على أيدى الصليبيين تبين له مقدار الفرق العظيم بين المعاملتين

وفى سنة ١٧ أراد عمر أن يزور الشام المرة الثانية وخرج معه المهاجرون والأنصار
فسار حتى إذا نزل بسرغ [١] لقيه أمراء الأجناد فأخبروه أن الأرض سقيمة وكان
بالشام طاعون فقال عمر لابن عباس اجمع إلى المهاجرين الأولين قال فجمعتهم له
فاستشارهم فاختلفوا فمنهم القائل خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ولا نرى أن يصدك
عنه بلاء عرض لك ومنهم القائل إنه لبلاء وفناء ما نرى أن نقدم عليه فلما اختلفوا عليه
قال قوموا عنى . ثم قال لابن عباس اجمع مهاجرة الأنصار فجمعهم له فاستشارهم فسلكوا
طريق المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله فلما اختلفوا عليه قال قوموا عنى

---

(١) أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام

ثم قال اجمع لي مهاجرة الفتح من قريش فجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فإنه بلاء وفناء فقال عمر ياابن عباس أصرخ فى الناس فقل إنّ أمير المؤمنين يقول لكم إنى مصبح على ظهر فأصبحوا عليه فلما اجتمعوا قال أيها الناس إنى راجع فارجعوا فقال أبو عبيدة بن الجراح أفرارا من قدر الله قال فرارا من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو أنّ رجلا هبط واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله لو غيرك يقول هذا ياأبا عبيدة ثم خلا به بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك إذ أتى عبدالرحمن بن عوف وكان متخلفا عن الناس لم يشهدهم بالأمس فلما أخبر الخبر قال عندى من هذا علم قال عمر فأنت عندنا الأمين المصدق فماذا عندك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فرارا منه لايخرجنكم إلا ذلك فقال عمر فلله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم

وأعقب انصرافه حصول الطاعون الشديد المسمى طاعون عمواس وكانت شدّته بالشام فهلك به خلق كثير منهم أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعتبة بن سهيل وأشراف الناس ولم يرتفع عنهم الوباء إلا بعد أن وليهم عمرو بن العاص فخطب الناس وقال لهم أيها الناس إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتجنبوا منه فى الجبال فخرج وخرج الناس فتفرّقوا حتى رفعه الله عنهم فبلغ عمر مافعله عمرو فما كرهه

رأى عمر بعد ارتفاع الطاعون أن يسير إلى الشام لينظر فى أمر الناس بعد هذا المصاب فسار حتى أتى الشام فنظر فى أمور الناس وولى الولاة وورث الأحياء من الأموات ثم خطبهم خطبة قال فيها (ألا وإنى قد وليت عليكم وقضيت الذى على فى الذى ولانى الله من أمركم إلى أن قال - فمن علم علم شىء ينبغى العمل به فبلغنا نعمل به إن شاء الله ولا قوة إلا بالله) وحضرت الصلاة فقال الناس لو أمرت بلالا فأذن فأمره فأذن فما بقى أحد كان أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلال يؤذن له إلا بكى حتى بل لحيته وعمر أشدهم بكاء وبكى من لم يدركه ببكائهم لذكره صلى الله عليه وسلم ثم رجع عمر إلى المدينة

وفى عهد عمر بن الخطاب فتحت مصر على يد القائد العظيم عمرو بن العاص السهمى :

ولما كان لتاريخ مصر نصيب خاص فى محاضراتنا أحببنا أن نرجئ تفاصيل فتحها إلى الوقت الذى نتكلم فيه عن تاريخها ليكون الكلام نسقا

هذا ما كان من الفتوح فى عهد عمر بن الخطاب فى مدة لا تزيد عن عشر سنوات فتحت بلاد فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على نهر السند ونهر جيحون فلم يتعدوهما وفتح من بلاد الروم جزء عظيم وهو بلاد الشام وأديرت البلاد على مقتضى العدل الإسلامى فتقبل الناس حكمه مسرورين لأنه قد زال عنهم جبروت الملوك وعسف الجبابرة

ولما كانت حياة عمر ممتازة بما كان فيها مما جعل بعد أساسا عظيما لكثير من المدنية الإسلامية أحببنا أن نورد عليكم منها جملا لتعلموا مقدار هذا الرجل العظيم الذى ساس العرب بسياسة لم تعرف لغيره من سائر الناس متأسيا فى ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلفه أبى بكر الصديق

المحاضرة الخامسة والعشرون

القضاء — سيرة عمر فى عماله — معاملة عمر للرعية — عفته عن مال المسلمين — ميله للاستشارة وقبول النصح — رأى عمر فى الاجتماعات — وصفه وبيته

القضـــاء

عمر أول خليفة عين قضاة لفصل القضايا بين الناس مستقلين عن الأمراء فعين للكوفة شريح بن الحرث الكندى وكان من كبار التابعين وقد أقام قاضيا بها ٧٥ سنة لم يعطل فيها إلا ثلاث سنين فى فتنة ابن الزبير ولما ولى الحجاج استعفاه فأعفاه . ومن طرفه فى القضاء أن عدى بن أرطاة دخل عليه فقال إنى رجل من أهل الشام قال من مكان سحيق قال تزوجت عندكم قال بالرفاء والبنين قال وأردت أن أرحلها قال الرجل أحق بأهله قال وشرطت لها دارها قال الشرط أملك قال فاحكم بيننا قال قد حكمت . وهو الذى قال : حين تزوج امرأة من بنى تميم ثم نقم عليها شيئا فضربها

رأيت رجالا يضربون نساءهم * فشلت يمينى يوم أضرب زينبا
أأضربها من غير ذنب أتت به * فما العدل منى ضرب من ليس مذنبا
فزينب شمس والنساء كواكب * إذا طلعت لم تبق منهن كوكبا
توفى سنة ٨٧ هـ

وعين للقضاء بمصر قيس بن أبى العاص السهمى حسبما جاء بكتاب القضاة الذين ولوا مصر فهو أوّل قاض قضى بها فى الإسلام

وولى أبا الدرداء المدينة وهو من الصحابة : ومن أعرف من ولاهم أبو موسى الأشعرى ولما كان العهد الذى ولاه به مما يبين لنا شيئا من نظام القضاء وأصوله . أحببنا إيراده وودنكموه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلام عليك أما بعد فإن القضاء فريضة [1] محكمة وسنة متبعة فافهم [2] إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له : آس [3] بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك البينة على من ادّعى واليمين على من أنكر والصلح [4] جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراما أو حرم حلالا : لا يمنعك [5] قضاء قضيته اليوم

---

(١) يريد عمر بذلك أن يبين له المادّة التى يقضى بها وهى لا تعدو ماحدّه الله وهذا ما أشار إليه بالفريضة المحكمة ومابينه رسول الله وسار عليه وهو ما أشار إليه بالسنة المتبعة (٢) يريد أنّ من يدلى بحجته مهما يكن مصيبا بليغا فإنّ كلامه لا ينفعه إذا لم يكن لكلامه نفاذ إلى قلب القاضى وذلك لا يكون إلا بالتنبه لما يقال من الخصوم

(٣) هذا أساس المساواة التى بها جاء الدين ولا احترام للقضاء بدونها فإنّ القاضى إذا كان له ضلع مع أحد الخصوم فقدت الثقة فيه وإن نجا من مغبتها اليوم فإنه ليس بناج غداً (٤) تكاد تتفق القوانين على أنّ كل صلح يخالف فيه القانون العام لا قيمة له لأنّ الخصم إذا ملك حق نفسه وساغ له التصرف فيه بما شاء فإنه لا يملك حق الشارع الذى راعى بتشريعه العام مصلحة الجمهور

(٥) يريد بذلك أن القاضى لا يتقيد بما فهمه من النصوص فحكم به فى قضيته فإذا ظهر له وجه الخطأ كان عليه أن يحكم بما تجدد من التفسير فيما يشابهها من القضايا

فراجعت نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل : الفهم الفهم [١] فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق واجعل [٢] لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهى إليه فإن أحضر بينة وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون [٣] عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد أو مجربا عليه شهادة زور أو ظنيناً فى ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان : وإياك [٤] والغلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله مابينه وبين الناس.

وإنما كان هذا مراده لأن عمر قد تغير فكره مرة بعد أن حكم فى حادثة فلم يغير السابق وغير اللاحق وقال ذاك على ماقضينا وهذا على مانقضى

(١) يريد بذلك بيان أصل ثالث للأحكام وهو القياس وهو أن يلحق مالم يعلم حكمه بما علم حكمه لمشابهة بينهما فى السبب الذى من أجله شرع الحكم ومن ذلك يكون من أوجب الواجبات على القاضى أن يكون عارفا بأسرار التشريع حتى يمكنه هذا الإلحاق ومن ذلك ينتج اشتراط أن يكون مجتهداً لا مقلداً غيره فى تفسير أو تأويل.

(٢) يشير بذلك إلى جواز التأجيل إذا طلب الخصم وكان لطلبه سبب معقول. والذى ذكره من الأسباب هو غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه

(٣) يشير بذلك إلى أصل عام وهو أن الأصل فى الناس العدالة فتقبل شهادة بعضهم على بعض إلا إذا عرض مايفسد تلك العدالة وقد بين عمر من ذلك ثلاثة أشياء الأول الجلد فى الحد ويظهر أنه يريد بذلك حد القذف لأن الله يقول ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً . الثانى المجرب عليه شهادة الزور . الثالث الظنين فى الولاء أو النسب وهو الرجل يكون له موال فيتولى غيرهم أو يكون لهم نسب فى قبيلته فينتسب إلى غيرها وكان هذا جالباً للعار ولعله يكون فى زمننا كذلك

(٤) يشير بذلك إلى مايجب على القاضى من الأناة والحلم فلا يضجر ولا يتأذى بالخصوم لرثاثتهم أو ارتفاع أصواتهم بل يجعل لكل إنسان حريته فى الدفاع عن نفسه

وماتخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام

وهذا الكتاب اتخذه جمهور من قضاة المسلمين أساساً لنظاماتهم القضائية وهو جدير بذلك

بالطبع لم يكن القضاء في زمنهم إلا سهلا مجرداً عن النظامات الوضعية وكان للقاضي الكلمة العليا في قضاياه أعني أنه مستقل تمام الاستقلال في قضائه لا يمنعه شيء أن يحضر إلى مجلسه الأمير فمن دونه

سيرة عمر في عماله

كان عمر ممن يشتري رضا العامة بمصلحة الأمراء فكان الوالي في نظره فرداً من الأفراد يجري حكم العدل عليه كما يجري على غيره من سائر الناس فكان حب المساواة بين الناس لا يعدله شيء من أخلاقه إذا اشتكى العامل أصغر الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكي والمشكو منه يسوى بينهما في الموقف حتى يظهر الحق فإن توجه قبل العامل اقتص منه إن كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضي به الشريعة أو عزله

وسواس الأمم على اختلاف في ذلك فمنهم من لم ير القصاص من العمال يرى ذلك أهيب لمقام العامل في نظر الرعية وربما استحسن ذلك في عهد الاضطرابات التي يراد تسكينها بشيء من الرعب يقذف في قلوب العامة وكان أبو بكر لا يقيد من عماله ولعل ذلك لما كان في عهده من الاضطراب في الجزيرة العربية أما عمر فكان على غير ذلك الرأي لأن مصلحة العامة عنده كانت فوق كل شيء والأمر قد استقر فلم يكن هناك ما يدعو إلى مراعاة هذه السياسة

كان إذا بعث عاملا على عمل يقول اللهم إني لم أبعثهم ليأخذوا أموالهم ولا ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دوني . وخطب الناس يوم جمعة فقال اللهم أشهدك على أمراء الأمصار أني إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم وأن يقسموا بينهم فيأهم وأن يعدلوا فإن أشكل عليهم شيء رفعوه لي : وكان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول إني لم أستعملكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أشعارهم ولا على أبشارهم إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل وإني لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم ولا تجلدوا

العرب فتذلوها ولا تجمهروها فتفتنوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم : وخطب مرة فقال أيها الناس إنى والله ماأرسل عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنى أرسلهم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه إلىّ فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه . فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرأيتك إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعية فأدب بعض رعيته إنك لتقصه منه قال أى والذى نفس عمر بيده إذا لأقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمهروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم . وكان للوصول إلى مايريد من عماله يأمرهم أن يوافوه كل سنة فى الموسم ، موسم الحج ومن كانت له شكوى أو مظلمة هناك فليرفعها وإذ ذاك يحقق عمر بعد أن يجمع بين الاثنين حتى ترد إلى المظلوم ظلامته إن كانت وكان العمال يخافون أن يفتضحوا على رؤس الأشهاد فى موسم الحج فكانوا يبتعدون عن ظلم أى إنسان

وقد استحضر عمر اليه كثيراً من العمال الذين لهم أعظم فضل وأكبر عمل بشكاية قدمت اليه من بعض الأفراد فقد استحضر سعد بن أبى وقاص وهو فاتح القادسية والمدائن وممصر الكوفة وكان الذى شكاه ناس من أهل عمله بالكوفة فجمع بينه وبينهم فوجده بريئا . واستحضر المغيرة بن شعبة وهو أمير البصرة والمغيرة من الصحابة ومن ذوى الأثر الصالح فى الفتوح الإسلامية وكان بعض من معه بالبصرة قد اتهمه بتهمة شنيعة فوجه اليه ذلك الكتاب الموجز الذى جمع فى كلمه القليلة أن عزل وعاتب واستحث وأمر (أما بعد فقد بلغنى نبأ عظيم فبعثت أباموسى أميرا فسلم مافى يدك والعجل العجل) فقدم على عمر مع الشهود الذين شكوه ولم تثبت التهمة عليه عند عمر فعاقب شهوده بالحد الذى فرضه الله لمثلهم : وشكى إليه عمار بن ياسر وكان أميراً على الكوفة وهو من السابقين الأولين شكاه قوم من أهل الكوفة بأنه ليس بأمير ولا يحتمل ماهو فيه فأمره أن يقدم عليه مع وفد من أهل الكوفة فسأل الوفد عما يشكون من عمار فقال قائلهم إنه غير كاف ولا عالم بالسياسة وقال قائل منهم إنه لا يدرى علام استعمل فاختبره عمر فى ذلك اختبارا أيدل على سعة علم عمر بتلك البلاد فلم يحسن الإجابة فى بعضه فعزله عنهم ثم دعاه بعد ذلك فقال أساءك حين عزلتك فقال والله ما فرحت به حين بعثتنى وقد ساءتنى

حين عزلتني فقال لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكني تأولت قوله تعالى (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)

ولم يمض عامل زمن عمر موثوقا به من عمر في كل أيامه إلا القليلين وفي مقدمتهم أبو عبيدة عامر بن الجراح

وكان فوق ذلك كله له عامل مخصوص يقتص آثار العمال فيرسله إلى كل شكوى ليحققها في البلد الذي حصلت فيه وكان ذلك العمل موجها إلى محمد بن مسلمة الذي كان يثق به عمر ثقة تامة وكان محلا لتلك الثقة ولم يكن من دأب محمد بن مسلمة أن يحقق تحقيقا سريا وإنما كان يسأل من يريد سؤاله علنا وعلى ملأ من الأشهاد ولم يكن هناك محل التأثير في أنفس الشهود لأن يد عمر كانت قوية جداً وكان لكل إنسان الحق أن يرفع إليه شكواه مباشرة فقد زاد الناس من الحرية كثيراً

وقد شاطر عمر بعض العمال ما في أيديهم حينما رأى عليهم سعة لم يعلم مصدرها ولم يفعل هذا الفعل إلا قليلا وربما وجد هذا العمل مجالا للانتقاد من الوجهة النظرية الدينية ولكن عمر كان يعرف من عماله من يستحق أن تقع به تلك العقوبة إذ ماذا يعمل برجل ولاه وهو يعرف مقدار عطائه ورزقه ثم يراه بعد ذلك قد أثرى ثروة لو جمعت أعطياته ما بلغتها : لم ير عمر أمام ذلك إلا هذه المصادرة وقد اكتفى بأن يشاطر العامل ما يملك ولست أريد أن أحسن هذه الطريقة . وولى عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم معه بمال فقال عمر ما هذا يا عتبة قال مال خرجت به معي واتجرت فيه قال ومالك تخرج هذا المال معك في هذا الوجه فصيره في بيت المال : وكانت التجارة هي التكأة التي يتكئ عليها بعض العمال في ثروتهم وكان عمر يمنعهم عن التجارة منعا باتا وعلى الجملة فشدة عمر على عماله رفهت الرعية

معاملته الرعية

على قدر ما كان عليه عمر من الشدة على عماله كانت رأفته ورفقه على عامة الناس من رعيته والاهتمام بما يصلحهم ويحس من ذلك بمسؤولية عظمى فكان يقول لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات لخشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب وقال هشام الكعبي رأيت عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديدا فتأتيه بقيد فلا يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب فيعطيهن في أيديهن ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضا حتى توفي قال الحسن البصري

قال عمر لئن عشت لأسيرنّ فى الرعية حولا فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى أما عمالهم فلا يرفعونها إلىّ وأماهم فلا يصلون إلىّ فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم عدد الأمصار الكبرى يقيم فى كل منها شهرين (وقد حالت منيته دون هذه السياحة) وروى أسلم قال خرجت مع عمر بن الخطاب إلى حرّة واقم حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤرث فقال يا أسلم أنى أرى هؤلاء ركباً قصراً بهم الليل والبرد انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون فقال عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره أن يقول يا أصحاب النار) قالت المرأة وعليك السلام فقال أأدنو قالت ادن بخير أودع فقال ما بالكم قالت قصر بنا الليل والبرد قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون قالت الجوع قال وأى شىء فى هذا القدر قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا ، الله بيننا وبين عمر فقال أى رحمك الله مايدرى عمر بكم قالت يتولى أمورنا ويغفل عنا فأقبل علىّ فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلا فيه كبة شحم فقال احمله علىّ قلت أنا أحمله عنك قال احمله علىّ مرتين أو ثلاثا كل ذلك أقول أنا أحمله عنك فقال فى آخر ذلك أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة لا أم لك فحملته عليه فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً وجعل يقول ذرى على وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج وأدم القدر وقال ابغنى شيئاً فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول أطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول جزاك الله خيراً إنك أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين فيقول قولى خيراً إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض مربض السبع فجعلت أقول إن لك لشأنا غير هذا وهو لايكلمنى حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدءوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل علىّ فقال يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت فيهم

ومثل هذه الحوادث على صغرها تدل على روح الرجل وشفقته وخوفه أن يكون مقصراً بحق من ولى عليهم من الرعية

خطب مرة فقال أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم

وأقوا كم عليكم وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ماتوليت ذلك منكم ولكني عمر مهماً محزنا انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربي المستعان فإنّ عمر أصبح لايثق بقوة ولاحيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده : لم يكن عمر يستعمل فى تأديب الناس إلا درّته وهى عصا صغيرة كالمخصرة كانت دائما فى يده أنى سار وكان الناس يهابونها أكثر مما تخيفهم السيوف القاطعة

روى الطبرى عن إياس بن سلمة عن أبيه قال مر عمر بن الخطاب فى السوق ومعه الدرة فخفقنى بها خفقة فأصاب طرف ثوبى فقال أمط الطريق فلما كان فى العام المقبل لقينى فقال ياسلمة أتريد الحج فقلت نعم فأخذ بيدى فانطلق إلى منزله فأعطانى ستمائة درهم وقال استعن بها على حجك واعلم أنها بالخفقة التى خفقتك قلت ياأمير المؤمنين ماذكرتها قال وأنا مانسيتها فعمر كان مؤدبا حكيما ولعل درته لم يسلم من خفقها إلا القلائل من كبار الصحابة

روى راشد بن سعد أنّ عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبى وقاص يزاحم الناس حتى خلص إليه فعلاه عمر بالدرّة وقال إنك أقبلت لاتهاب سلطان الله فى الأرض فأحببت أن أعلمك أنّ سلطان الله لايهابك والذى أغضب عمر منه هو مزاحمته الناس وعمر كما تعلمون يعشق المساواة لايرى منها بديلا

كانت الرعية ـ مع هذا تهابه مهابة شديدة . روى أسلم أنّ نفراً من المسلمين كلموا عبدالرحمن بن عوف فقالوا كلم عمر بن الخطاب فإنه قد أخشانا حتى والله مانستطيع أن نديم إليه أبصارنا قال فذكر ذلك عبدالرحمن بن عوف لعمر فقال أوقد قالوا ذلك والله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله فى ذلك ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله وايم الله لأنا أشد منهم فرقا منهم منى

عفته عن مال المسلمين

كان يحبب عمر إلى الناس عدله وتسويته ويزيده إليهم حباً عفته وأمانته فقد كان يرى مال المسلمين مرتعاً وخيما لمن رتع فيه حتى أنه كان يقتر على نفسه تقتيراً ربما وجد مساغا لاعتراض قصار النظر . كان عمر يرى أنه لاينبغى أن يأكل إلا مما يأكل منه أقل رعيته لايتجاوز ذلك إلى مافوقه . كان يأخذ عطاءه من بيت المال

ثم يحتاج فيقترض من أمين بيت المال فإذا حلّ ميعاد الوفاء ولم يجد عنده مايسدّد منه احتال له حتى إذا أخذ عطاءه سدّد منه ولما رأى بعض الصحابة ما يعانيه عمر من الشدّة اجتمع نفر منهم فيهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وقالوا لو قلنا لعمر فى زيادة نزيدها إياه فى رزقه فقال عثمان هلم فلنعلم ماعنده من وراء وراء فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر فأعلموها الحال وأوصوها أن لاتخبر بهم عمر فلقيت حفصة عمر فى ذلك فغضب وقال من هؤلاء لأسوأنهم قالت لاسبيل إلى علمهم قال أنت بيني وبينهم ماأفضل مااقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيتك من الملبس قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع قال فأى الطعام ناله عندك أرفع قالت حرفاً من خبز شعير فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأكل منها قال فأى مبسط كان يبسط عندك كان أوطأ قالت كساء ثخين نربعه فى الصيف فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال ياحفصة فأبلغيهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولأتبلغن بالترجية وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقا فمضى الأول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم اتبعه الآخر فسلك سبيله فأفضى إليه ثم اتبعهما الثالث فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما لحق بهما وإن سلك طريقا غير طريقهما لم يلقهما

وكان يتحاشى أن ينتفع أحد من آل بيته بشىء ليس له فيه حق . روى مالك فى الموطأ أنه خرج عبدالله وعبيدالله ابنا عمر بن الخطاب فى جيش إلى العراق فلما قفلا مرا على أبى موسى الأشعرى وهو أمير البصرة فرحب بهما وسهل ثم قال لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به ثم قال بلى ههنا مال من مال الله أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح فقال وددنا ذلك ففعل وكتب إلى عمر بن الخطاب أن يأخذ منهما المال فلما قدما باعا فأربحا فلما دفعا ذلك إلى عمر قال أكل الجيش أسلفه قالا لا فقال عمر بن الخطاب ابنا أمير المؤمنين فأسلفكماه أديا المال وربحه فأما عبدالله فسكت وأما عبيدالله فقال ماينبغى لك ياأمير المؤمنين هذا لو نقص هذا المال أو هلك لضمناه فقال عمر أدياه فسكت عبدالله وراجعه عبيد الله فقال رجل من جلساء عمر ياأمير المؤمنين لو جعلته قراضا فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وأخذ عبد الله وعبيد الله نصف ربح

المال قالوا وهو أول قراض فى الاسلام . ولما ترك ملك الروم الغزو كاتب عمر وقاربه وسير اليه عمر الرسل مع البريد بعثت أم كلثوم بنت على بن أبى طالب إلى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ودسته إلى البريد فأبلغه لها فأخذ منه وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر فلما انتهى به البريد اليه أمر بإمساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال إنه لاخير فى أمر أبرم عن غير شورى من أمورى قولوا فى هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم فقال قائلون هو لها بالذى لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولا تحت يدك فتتقيك وقال آخرون قد كنا نهدى الثياب لنستثيب ونبعث بها للتباع ولنصيب شيئا فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها فى صدرها فأمر بردها إلى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها . فانظروا كيف كان يشدد مع أهل بيته وذلك لكيلا يجد غيرهم مجالا للعدول عن الجادة . وكان إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شىء جمع أهله فقال إنى نهيت الناس عن كذا وكذا وإن الناس ينظرون اليكم نظر الطير إلى اللحم وأقسم بالله لاأجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة

ميله للاستشارة وقبوله للنصح

كان عمر إذا نزل به الامر لا يبرمه قبل أن يجمع المسلمين ويستشيرهم فيه ويقول لاخير فى أمر أبرم من غير شورى وكان لشوراه درجات فيستشير العامة أول مرة ثم يجمع المشيخة من الصحابة من قريش وغيرهم فما استقر عليهم رأيهم فعل به . ومن قوله فى ذلك يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم بين ذوى الرأى منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الامر مااجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعا لهم ومن قام بهذا الامر تبع الاولى رأيهم مارأوا لهم ورضوا به من مكيدة فى حرب كانوا فيه تبعا لهم فجعل أولى الامر منفذين لما رآه أولو الرأى والناس تبع ما أخذ به الامام من رأى أولى الرأى . وكثيراً ما كان يرى الشىء فيبين له أصغر الناس وجه الحق فيرجع إلى رأيه . رأى مرة مغالاة الرجال فى مهور أزواجهن فعزم أن يجعل للمهر حداً لا يتجاوزه الناس فنادته امرأة من أخريات المسجد كيف وقد

قال الله تعالى (وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا) فقال أصابت امرأة وأخطأ عمر وكان يطلب من الناس أن يبلغوه نصائحهم ويبينون له وجه الحق إذا رأوا منه انحرافا عن القصد قال مرة فى خطبته أيها الناس إن أحسنت فأعينونى وان صدفت فقوّمونى فقال له رجل من أخريات المسجد لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا فسره ذلك : وكان له خاصة من كبار أولى الرأى منهم العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وكان لايكاد يفارقه فى سفر ولاحضر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف وعلى بن أبى طالب ونظراؤهم

رأى عمر فى الاجتماعات

كان عمر يميل إلى أن تكون مجتمعات الناس عامة يهوى اليها جميع الناس على اختلاف طبقاتهم وكان يكره اختصاص الناس بمجالس لأنّ ذلك يدعوهم إلى أن تكون لهم آراء متفرقة متباينة . روى ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش بلغنى أنكم تتخذون مجالس لايجالس اثنان معا حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس وايم الله إن هذا لسريع فى دينكم سريع فى شرفكم سريع فى ذات بينكم ولكأنى بمن يأتى بعدكم يقول هذا رأى فلان قد قسموا الإسلام أقساما أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معا فإنه أدوم لألفتكم وأهيب لكم فى الناس . وفى الحق إن ابتعاد الخاصة عن عامة الناس واختصاصهم بأفراد يجلسون اليهم مضيع كثيرا لما ينتظر من تربية الخاصة للعامة ومفيد فائدة كبرى وهى نقل أقوالهم غير محرفة ولامشوبة بما يطمس حقيقتها ثم إن كثرة المجالس تدعو بدون ريب إلى كثرة الاختلاف فى المسائل التى تعرض لهم فتكثر الأقوال المتباينة فى الدين والذى خافه عمر على الناس وعلى من يأتى قد وقع فكثرت الآراء المنقولة من أفراد ذلك العصر ودعا ذلك إلى اختلاف الناس فى الدين اختلافا عظيما

الوصف على الجملة

كان عمر يحب رعيته حبا جما ويحب مايصلحها ويكره مايفسدها ساسها بسياسة تقربه إلى القلوب فكان عفيفا عن أموالهم عادلا بينهم مسويا بين الناس لم يكن قوى يطمع أن يأخذ أكثر من ماله ولاضعيف يخاف أن يضيع منه ماله كان حكيما يضع

الشيء فى موضعه يشتد حينا ويلين حينا حسبما توحى اليه الظروف التى هو فيها عرف العرب معرفة تامة وعرف مايصلح أنفسها فسيرها فى الطريق الذى لاتألم السير فيه فصيرها أمة حرة لاتستطيع أن تنظر إلى خسف يلحقها من أى إنسان ولذلك نقول إنّ عمر أتعب من بعده فإن النفوس التى تحتمل للعرب مااحتمله عمر قليلة فى الدنيا بأسرها وإلا فأين ذلك الرجل الذى يفنى فى مصلحة رعيته ولا يرى لنفسه من الحقوق إلا كالآدناهم مع تحمله مشقات الحياة وأتعابها . العربى يستدعى سياسته حكمة عالية فإنك إن اشتددت معه أذللته فهلك وإن لنت معه ليكون رجلا نافعا لم يكن هناك حد لجفائه ولا لحريته فهو يحتاج إلى عقل كبير يدبره حتى لاتهلكه الشدّة ولا يطغيه اللين ولم يكن ذلك العقل الكبير إلا فى رأس عمر بن الخطاب بعد صاحبيه نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون لم يجمعوا صفات عمر التى بمجموعها كدواء مركب إذا سقط منه أحد العقاقير فربما أهلك صاحبه لذلك نصرح بأن العرب بعد عمر لم تجتمع على أى خليفة فى أى زمن من الأزمان حتى وقتنا هذا والسبب معقول

بيت عمر

تزوج عمر فى الجاهلية زينب ابنة مظعون من بنى جمح من قريش فولدت له عبدالله وعبدالرحمن الأكبر وحفصة أم المؤمنين

وتزوج فى الجاهلية مليكة ابنة جرول من خزاعة فأولدها عبيد الله وقد فارقها فى هدنة الحديبية

وتزوج قريبة ابنة أبى أمية من بنى مخزوم وقد فارقها فى الهدنة

وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بنى مخزوم فولدت له فاطمة

وتزوج جميلة بنت قيس من الأنصار فولدت له عاصما وهذه طلقها

وتزوج أم كلثوم بنت على فولدت له زيداً ورقية ومات عنها

وتزوج لهية وهى امرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الأصغر وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو

وخطب أم كلثوم بنت أبى بكر وهى صغيرة وأرسل فيها إلى عائشة فقالت الامر إليك فقالت أم كلثوم لاحاجة لى فيه فقالت عائشة ترغبين عن أمير المؤمنين فقالت نعم إنه خشن العيش شديد على النساء فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فأخبرته

فقال أكفيك فأتى عمر فقال ياأمير المؤمنين بلغنى خبر أعيذك بالله منه قال ماهو قال خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر قال نعم أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى قال لا واحدة ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين فى لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك ومانقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها إن خالفتك فى شىء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير مايحق عليك قال فكيف بعائشة وقد كلمتها قال أنا لك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت على بن أبى طالب تعلق منها بنسب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطب أم أبان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابساً ويخرج عابساً

المحاضرة السادسة والعشرون

مقتل عمر — عثمان وكيف انتخب — ترجمته — أول قضية نظر فيها كتبه إلى الأمصار — أول خطبة له — الفتوح فى عهده

مقتل عمر

ما كان يظن ان تنتهى حياة ذلك العادل المحب لرعيته الشفيق عليهم بضربة خنجر ولكن ذلك كان حتى يعلم الناس أنه ليس فى مكنة إنسان أن يرضى الخلق كافة فإن عمر إذا كان قد أرضى العرب بما صنعه لهم وأرضى عامة العجم بما أفاض عليهم من العدل فقد أغضب كبراءهم وذوى السلطان عليهم لأنه ثل عروش مجدهم وزلزل قصور عظمتهم

كان المسلمون يسبون من أبناء فارس ويتخذونهم لأنفسهم عبيداً وقد أحضروا عدداً منهم إلى المدينة وكانوا يختلفون إلى الهرمزان ملك فارس الذى أشاع عمر ملكه وأقامه بالمدينة كواحد من الناس لافضل له على واحد

كان من هؤلاء السبايا رجل اسمه فيروز ويكنى بأبى لؤلؤة وهو غلام للمغيرة بن شعبة فبينما عمر يطوف يوما فى السوق لقيه ذلك الغلام فقال ياأمير المؤمنين أعدنى على المغيرة ابن شعبة فإن علىّ خراجا كثيراً قال وكم خراجك قال درهمان فى كل يوم قال عمر وإيش صناعتك قال نجار نقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ماتصنع من الأعمال قد

بلغنى أنك تقول لو أردت أن أعمل رحا تطحن بالريح فعلت قال نعم قال فاعمل لى رحا قال إن عشت لأعملن لك رحا يتحدث بها من فى المشرق والمغرب ثم انصرف عنه فقال عمر لقد توعدنى العبد آنفا ثم انصرف عمر إلى منزله فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار فقال يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت فى ثلاثة أيام قال وما يدريك قال أجده فى كتاب الله التوراة قال عمر والله إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة قال اللهم لا ولكن أجد صفتك وحليتك وإنه قد فنى أجلك وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً فلما كان من الغد جاءه كعب فقال يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقى يومان ثم جاءه من غد الغد فقال قد ذهب يومان وبقى يوم وليلة وهى لك إلى صبيحتها. ولو صحت هذه الحكاية وكنت ممن يحقق هذه القضية ما ترددت لحظة فى أن لكعب يداً فى مقتل عمر أو أنه كان عالماً بما تم عليه الاتفاق بين المؤتمرين على عمر وربما يقال لو كان كذلك فماذا يدعو كعبا إلى إنباء عمر بهذا النبأ والجواب على ذلك سهل فإنه ينال بذلك بين المسلمين مركزاً أعظيما فإن كثيراً منهم يرون بعد ذلك أن توراته فيها علم كل شىء وأنه صادق فى كل ما يخبر به فلا يتردد سامعه لحظة فى تصديقه بما يوحى إليه وكعب هذا ممن أفاض علينا ثروة من الأخبار الإسرائيلية التى لا ندرى حقيقتها ولا ريب أن فيها شيئاً كثيراً هو كذب محض لأن التوراة بأيدينا وليس فيها ما أنبأ ذلك الرجل عنه.

لما كان صبح ثالثة من نبأ كعب خرج عمر إلى صلاة الصبح وكان يوكل بالرجال صفوفا يسوونها فإذا استوت جاء هو فكبر ودخل أبو لؤلؤة فى الناس فى يده خنجر له رأسان نصابه فى وسطه فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته وهى التى قتلته وقتل معه كليب بن أبى البكير الليثى وكان خلفه فلما وجد عمر حر السلاح سقط وقال أفى الناس عبد الرحمن ابن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدم فصل بالناس وعمر طريح ثم احتمل فأدخل داره فنادى عبد الله بن عمر وقال اخرج فانظر من قتلنى قال يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فحمد الله أن لم يقتله رجل سجد لله سجدة ثم جعل الناس يدخلون عليه المهاجرون والأنصار فيقول لهم أعن ملأ منكم كان هذا فيقولون معاذ الله ودخل فى الناس كعب فلما رآه عمر أنشأ يقول:

فواعدنى كعب ثلاثا أعدها ✽ ولا شك أن القول ما قال لى كعب

ومابى حذار الموت إنى لميت ✽ ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

ثم دعى له الطبيب فلم يجد للقضاء حيلة وتوفى ليلة الأربعاء لثلاث ليال بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن بكرة يوم الأربعاء فى حجرة عائشة مع صاحبيه حسبما أوصى بعد أن استأذن صاحبة الحجرة وصلى عليه صهيب حسب وصيته وروى أنّ طعنه كان يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذى الحجة ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ فتكون ولايته عشر سنين وخمسة أشهر وإحدى وعشرين ليلة من متوفى أبى بكر . والصحيح الأوّل ومدّة خلافته بالتحقيق عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ إلى ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ وكانت سنه حين قتل ٦٣ كصاحبيه

٣ — عثمان بن عفان

كيف انتخب

لما طعن عمر وأحسّ بالموت طلب إليه أن يعهد إلى خليفة من بعده فتردّد وقال إن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى (يريد أبابكر) وإن أترك فقد ترك من هو خير منى (يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقال لو كان أبو عبيدة حيا استخلفته فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا استخلفته فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول إنّ سالما شديد الحب لله فقال له رجل أدلك على عبدالله بن عمر فقال قاتلك الله والله ماأردت الله بهذا ويحك كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته لا أرب لنا فى أموركم ماحمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى إن كان خيراً فقد أصبنا منه وإن كان شراً فشرعنا إلى الله حسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر محمد صلى الله عليه وسلم أما لقد أجهدت نفسى وحرمت أهلى وإن نجوت كفافا لا وزر ولا أجر إنى لسعيد

ثم كرر عليه القول بعد هنيهة طلب الاستخلاف فقال كنت أجمعت بعد مقالتى لكم أن أنظر فأولى رجلا أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق وأشار إلى عمر ثم رأيت أن لا أتحمل أمركم حياً وميتاً عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم من أهل الجنة على وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله صلى الله عليه وسلم والزبير بن العوام حواريه وابن عمته وطلحة الخير

ابن عبيد الله فليختاروا منهم رجلا فإذا ولوا واليا فأحسنوا موازرته وأعينوه إن ائتمن أحداً منكم فليؤد أمانته ثم دعا هؤلاء الرهط وقال لهم إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض إنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ولكن أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ثم عين لهم الأجل الذى يتم فيه الانتخاب وهو ثلاثة أيام من بعد موته وقال للمقداد بن الأسود إذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلا منهم وقال لصهيب صل بالناس ثلاثة أيام وأدخل عليا وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن عوف وطلحة إن قدم (وكان غائبا) وأحضر عبد الله بن عمر ولا شىء له من الأمر وقم على رءوسهم فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رؤسهما فإن رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى فى بيت المسور بن مخرمة وقيل فى حجرة عائشة ولم يكن قد حضر طلحة فكانوا خمسة ومعهم عبد الله بن عمر وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم فتنافس القوم فى الأمر وكثر بينهم الكلام فقال أبو طلحة أنا كنت لأن تدفعوها أخوف منى لأن تنافسوها لا والذى ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التى أمرتم ثم أجلس فى بيتى فأنظر ما تصنعون فقال عبد الرحمن بن عوف أيكم يخرج نفسه منها ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم فلم يجبه أحد قال فأنا أنخلع منها قال عثمان فأنا أول راض ثم تتابع القوم على الرضا وعلىّ ساكت فقال ما تقول يا أبا الحسن قال أعطنى ميثاقا لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألو الأمة فقال عبد الرحمن أعطونى مواثيقكم على أن تكونوا معى على من بدل وغير وأن ترضوا من اخترت لكم وعلى ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه ولا آلو المسلمين فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله وبذلك صار الأمر فى عنق عبد الرحمن بن عوف فدار لياليه يلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من أمراء الأجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان حتى إذا كانت الليلة التى يستكمل فى صبيحتها الأجل أتى منزل المسور بن مخرمة وأمره أن يدعو إليه الزبير وسعداً فدعاهما فبدأ بالزبير

فى مؤخر المسجد فى الصفة التى تلى دار مروان فقال له خل ابنى عبد مناف وهذا الأمر فقال الزبير نصيبى لعلى : وقال لسعد أنا وأنت كلالة فاجعل نصيبك لى فاختار قال إن اخترت نفسك فنعم وإن اخترت عثمان فعلى أحب إلى أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا قال يا أبا إسحق إنى خلعت نفسى منها على أن أختار ولو لم أفعل وجعل الخيار إلى لم أردها ثم قال لا يقوم بعد أبى بكر وعمر أحد فيرضى الناس عنه ثم انصرف الزبير وسعد وأرسل المسور إلى على فجاء فناجاه طويلا ثم أرسل إلى عثمان فجاء فناجاه حتى فرق بينهما الصبح فلما صلوا الصبح جمع رجال الشورى وبعث إلى من حضر من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار والأمراء حتى التج المسجد بأهله فقال أيها الناس إنّ الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم فتكلم الناس من جوانب المسجد مبدين آراء لهم فقال سعد يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس فقال عبد الرحمن إنى قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا ودعى علياً فقال عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده قال أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلى فقال نعم فبايعه عبد الرحمن بالخلافة ولما رأى ذلك على تأخر وهو يقول سيبلغ الكتاب أجله ثم أقبل الناس يبايعون عثمان ورجع على يشق الناس حتى بايع عثمان وكانت بيعة عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة سنة ٢٣ فاستقبل بخلافته المحرم سنة ٢٤

ترجمة عثمان :

هو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموى القرشى وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ولد فى السنة الخامسة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وشب على الأخلاق الكريمة والسيرة الحسنة حيا عفيفا ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من السابقين الأولين أسلم على يد أبى بكر وزوجه عليه السلام بنته رقية فلما آذى مشركو قريش المسلمين هاجر بها إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة قبل هجرة المدينة فلما أذن الله بالهجرة هاجر إليها هو وزوجه وحضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل مشاهده ولكنه لم يحضر بدراً خلفه عليه السلام لتمريض رقية التى توفيت عقب غزوة بدر وأسهم له

الرسول فى غنائم بدر ثم زوجه بنته الثانية أم كلثوم وكان فى عمرة الحديبية سفيراً بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين قريش فلما شاع غدرهم بعثمان بايع النبى أصحابه بيعة الرضوان وقال بيده اليمنى هذه يد عثمان فضرب بها على يده اليسرى وكان له فى جيش العسرة إلى تبوك اليد الطولى فقد أنفق من ماله كثيراً واشترى بئر رومة بماله ثم تصدق بها على المسلمين فكان رشاؤه فيها كرشاء واحد منهم وقد قال عليه السلام من حفر بئر رومة فله الجنة وكان كاتب الوحى بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما توفى عليه السلام كان لأبى بكر ثم لعمر أميناً كاتباً يستشار فى مهام الأمور : ولما قتل عمر كانت أغلبية الشورى له فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين من الهجرة (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ م)

أول قضية نظر فيها

شاع عقب ضرب عمر أن قتله لم يكن عمل أبى لؤلؤة وحده بل كان هناك أشخاص شركا فى دمه فقد قال عبد الرحمن بن أبى بكر غداة طعن عمر مررت على أبى لؤلؤة أمس ومعه جفينة والهرمزان وهم نجىّ فلما رهقتهم ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه فانظروا بأى شىء قتل فجاؤا بالخنجر الذى ضرب به أبو لؤلؤة فإذا هو على الصفة التى وصفها عبد الرحمن وكان رجل من تيم قد اتبع أبا لؤلؤة فقتله وأخذ منه الخنجر فلما رأى ذلك عبيد الله بن عمر أمسك حتى مات عمر ثم اشتمل على سيفه فأتى الهرمزان فقتله ثم مضى حتى أتى جفينة وكان نصرانياً من أهل الحيرة أقدمه سعد بن أبى وقاص إلى المدينة ليعلم بها الكتابة فعلاه عبيد الله بالسيف ولما سمع بذلك صهيب وهو القائم مقام الخليفة أرسل إليه من أتى به وأخذ منه السيف وسجنه حتى يتم أمر الاستخلاف وينظر فى أمره فلما بويع عثمان جلس فى المسجد ودعا بعبيد الله بن عمر ثم قال لجماعة المهاجرين والانصار أشيروا علىّ فى هذا الذى فتق فى الإسلام ما فتق فقال على أرى أن تقتله فقال بعض المهاجرين قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم فقال عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك قال عثمان أنا وليهم قد جعلتها دية واحتملتها فى مالى وكان ذلك حلا حسناً لتلك المشكلة

كتب عثمان إلى الأمراء والأمصار

كتب عثمان إلى أمراء الأمصار كتابا عاما هذه صورته (أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ولم يتقدم إليهم أن يكونو جباة وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يصيروا رعاة فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم ثم العدو الذى تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء)

وكتب إلى أمراء الأجناد بالثغور (أما بعد فإنكم حماة الإسلام وذادتهم وقد وضع لكم عمر مالم يغب عنا بل كان على ملأ منا ولا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه)

وكتب إلى عمال الخراج (أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق خذوا الحق وأعطوا الحق به والأمانة الأمانة قوموا عليها ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم)

وكتب إلى العامة من المسلمين بالأمصار (أما بعد فإنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم: تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الكفر فى العجمة فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا أو ابتدعوا)

أول خطبة له

وكان أول خطاب له عقيب بيعته أن صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (إنكم فى دار قلعة وفى بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه فلقد أتيتم صبحتم أو أمسيتم ألا وإن الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لا يغفل عنكم

أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا ألم تلفظهم ارموا بالدنيا حيث رمى الله واطلبوا الآخرة فإنّ الله قد ضرب لها مثلا والذى هو خير فقال عز وجل (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا : المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا)

الأمصار والأمراء لأول عهد عثمان

كانت الأمصار الكبرى لآخر عهد عمر وأول عثمان هذه

(١) مكة وأميرها نافع بن الحارث الخزاعى

(٢) الطائف وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفى

(٣) صنعاء وأميرها يعلى بن منية حليف بنى نوفل بن عبدمناف

(٤) الجند وأميرها عبد الله بن أبى ربيعة

(٥) البحرين وماوالاها وأميرها عثمان بن أبى العاص الثقفى وهذه الخمس فى الجزيرة العربية (٦) الكوفة ومايتبعها وأميرها المغيرة بن شعبة الثقفى

(٧) البصرة ومايتبعها وأميرها أبو موسى عبدالله بن قيس الأشعرى وهاتان بالعراق

(٨) دمشق وأميرها معاوية بن أبى سفيان الاموى

(٩) حمص وأميرها عمير بن سعد وهاتان بالشام

(١٠) مصر وأميرها عمرو بن العاص السهمى

الفتوح فى عهد عثمان

كانت مغازى أهل الكوفة الرى وأذربيجان وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بأذربيجان وأربعة آلاف بالرى وكان بالكوفة إذذاك أربعون ألف مقاتل وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف مقاتل فكان الرجل يصيبه فى كل أربع سنين غزوة وكانت هذه الغزوات لتأييد الفتح الإسلامى فى تلك البلاد والمحافظة على الثغور من أن ينتابها عدو وإعادة من شق العصا إلى الطاعة ففى عهد إمارة الوليد بن عقبة على الكوفة انتقضت أذربيجان ومنعت ما كانت صالحت عليه فغزاها الوليد حتى رضيت بأن تؤدى ما كانت صولحت عليه وسير سلمان بن ربيعة الباهلى إلى أرمينية فشتت شمل المجتمعين بها ممن أراد نقض الطاعة

وفى عهد إمارة سعيد بن العاص فتحت طبرستان [١] سار اليها بجند كثيف فيه الحسن والحسين ابنا على والعبادلة أبناء عباس وعمر وعمرو بن العاص والزبير وحذيفة بن اليمان وغيرهم فقاتل أهل طبرستان حتى طلبوا الصلح

وفى سنة ٣٢ أوغل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى فى بلاد الخزر [٢] حتى وصل بلنجر وهى أكبر مدنهم خلف باب الأبواب ولكن الترك تجمعوا عليهم هناك وصادموهم بجمعهم الكبير فأصيب عبد الرحمن بن ربيعة وانهزم المسلمون فتفرقوا فرقتين فرقة عادت فقابلت سلمان بن ربيعة الذى كان قد أرسل مدداً لأخيه فنجت وفرقة أخرى أخذت طريق جيلان وجرجان وجعل على ثغر الباب بعد عبد الرحمن أخوه سلمان

أما البصرة فكانت مغازيها بلاد فارس وخراسان وثغر السند ففى عهد إمارة عبد الله بن عامر انتقض أهل فارس وقتلوا أميرهم عبيد الله بن معمر فسار اليهم عامر وأوقع بهم وقعة شديدة وفى عهد إمارة ابن عامر على البصرة قتل يزدجرد آخر ملوك الفرس وبموته انقضت الدولة الساسانية

وفى سنة ٣١ انتقض أهل خراسان فخرج اليهم ابن عامر فى جيش كثيف فلما وصل الطبسين وهما بابا خراسان تلقاه أهلها بالصلح ثم سار إلى قهستان فقاتل أهلها حتى طلبوا الصلح فصالحهم ثم قصد نيسابور فصالحه أهلها ثم وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان [٣] ثم إلى مرو الروذ فلقيته جموع هزمها وكانت للأحنف فتوح كثيرة بتلك الجهات ثم سار إلى بلخ فصالحه أهلها ثم ذهب إلى خوارزم فاستعصت عليه فعاد عنها . ولما تم لابن عامر هذه الفتوح عاد إلى البصرة

وأما الشام فقد كانت جمعت كلها لمعاوية بن أبى سفيان وكانت له غزوات مع الروم

---

(١) بلدان واسعة على شاطئ بحر الخزر قصبتها آمل وطبرستان بين الرى وقومس والبحر وبلاد الديلم والجبل (٢) هى بلاد الترك خلف باب الأبواب المعروف بالدربند

(٣) ولاية واسعة من نواحى خراسان وهى طخارستان العليا والسفلى فالعليا شرقى بلخ وغربى نهر جيحون وبينها وبين بلخ ٢٨ فرسخا والسفلى غربى جيحون أيضا إلا أنها أبعد من بلخ وأضرب فى الشرق من العليا وأكبر مدينة بطخارستان : طالقان

فبلغ عمورية وأسكن الحصون التى فى طريقه جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة وسير حبيب بن مسلمة بأمر عثمان إلى أرمينية فسار حتى أتى قاليقلا فصالحه أهلها ثم استمر فى فتوحه حتى وصل تفليس [١]

وفى سنة ٢٨ فتح معاوية جزيرة قبرس وغزا معه جمع كثير من الصحابة منهم عبادة بن الصامت ومعه زوجته أم حرم بنت ملحان وكان معاوية كثيراً مايتمنى غزو الروم فى البحر إلاأن عمر كان يمنعه من ذلك لأنه كان يرى الغزو فيه تغريراً بالمسلمين كتب عمر إلى عمرو بن العاص صف لى البحر وراكبه فإن نفسى تنازعنى اليه فكتب اليه عمرو (إنى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير إن ركن خرق القلوب وان تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق) فلما قرأه عمر كتب إلى معاوية لا والذى بعث محمداً بالحق لاأحمل فيه مسلماً أبداً)

فلما كان زمن عثمان أذن له فى ذلك وقال لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه ففعل وسار إلى قبرس وأمده من مصر عبدالله بن سعد بن أبى سرح أميرها بنفسه ففتحوها صلحا على سبعة آلاف دينار كل سنة يؤدون إلى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون من ذلك وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم من ورائهم وعليهم أن يعلموا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ويكون طريق المسلمين إلى العدو عليهم

وقد رتب معاوية أمر الغزو فى البحر وأعد لذلك أسطولا جعل أميره عبدالله بن قيس الحارثى حليف بنى فزارة فكان يغزو كثيراً ما بين شاتية وصائفة فى البحر ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب ولكنه خرج فى يوم طليعة فى قارب فانتهى إلى المرقى من أرض الروم فنذر به فتكاثروا عليه وقاتلوه

وأما فى مصر ففى عهد عمرو بن العاص انتقضت الإسكندرية بسبب مكاتبات ملك الروم وتسييره إليهم أحد قواده فى أسطول عظيم فسار إليها عمرو وافتتحها بعد أن هزم الروم هزيمة منكرة وهدم سور اسكندرية واستولى على كثير من مراكب الأسطول وسير عمر وعبدالله بن سعد بن أبى سرح إلى أفريقية وهى السواحل الشمالية للقارة من طرابلس

---

(١) مدينة بأرمينية الأولى وكانت قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب

إلى طنجة فسار ابن سعد واستولى على كثير من المدن التى كانت تابعة للروم وانتهى أمره معهم بالصلح على أن يدفعوا له ألفى ألف وخمسمائة ألف دينار

وفى عهد إمارة عبدالله بن سعد بلغه مجىء ملك الروم بأسطول عظيم فيه ستمائة مركب فسار إليه ابن سعد بأسطوله وخرج معاوية بنفسه من الشام بأسطوله ولما اجتمعت مراكب المسلمين تقابلت فى البحر بأسطول قسطنطين فاتفق الفريقان على ربط المراكب بعضها ببعض ففعلوا ثم دارت بين الفريقين رحا الحرب على سطح الماء فكانت وقعة هائلة سموها ذات الصوارى وانهزمت فيها مراكب الروم هزيمة منكرة وجرح ملكهم فانهزم بمن نجا من قومه واستولى المسلمون على كثير من مراكبهم ففى عهد عثمان صارت الخلافة الإسلامية دولة بحرية بما صار إليها من مراكب الروم وبما استحدثه معاوية وعبدالله بن سعد من المراكب ولم يكن من ذلك بد لحماية الثغور الإسلامية التى كان يشن الروم عليها الإغارة من وقت لآخر

المحاضرة السابعة والعشرون

الأحوال الداخلية والفتن

الأحوال الداخليـــة

لابد أن نبسط القول فيما كانت عليه أحوال المسلمين فى الأمصار المختلفة خصوصاً البصرة والكوفة ومصر لأن الفتنة الكبرى قد استخدم لها العامة من هذه الأمصار الثلاث

روى الطبرى عن الحسن البصرى قال كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج فى البلدان إلا بإذن وأجل فشكوه فبلغه فقال ألا إنى سننت الإسلام سن البعير يبدأ فيكون جذعاً ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سديسا ثم بازلا ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ألا وإن الاسلام قد بزل ألا وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فأما وابن الخطاب حى فلا إنى قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا إلى النار ـ فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذى كان يأخذهم به عمر فانساحوا فى البلاد فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع

من لم يكن له طول ولا مزية فى الإسلام فكان مغموما فى الناس وصاروا وزاعا إليهم وأملوهم وتقدموا فى ذلك فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا فى التقرب والانقطاع إليهم فكان ذلك أوّل وهن دخل على الإسلام وأوّل فتنة كانت فى العامة وقال الشعبى لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال إنّ أخوف ما أخاف على هذه الأمّة انتشاركم فى البلاد فإنّ الرجل ليستأذنه فى الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة فيقول قد كان لك غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلغك وخير لك من الغزو واليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك فلما كان عثمان خلى عنهم فاضطربوا فى البلاد وانقطع إليهم الناس فكان أحب إليهم من عمر . وروى الطبرى بسنده قال لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالا فى الأمصار وانقطع إليهم الناس

وكانت قريش بحسب القاعدة التى كانت متبعة كأعضاء الأسرة التى لها الأمر كبارها مرشحون لأن يلوا الخلافة يوما ما وليس هناك نظام يعين سابقهم ولاحقهم ومع هذا فهم متباعدو العشائر مختلفو الأسر فكان نظر عمر والحال ما ذكرنا دقيقاً فى الحجر على أعلامهم أن يبارحوا حاضرة الخلافة

من الضرورى أن نشرح حال المسلمين فى عهد عثمان حتى يتضح كيف نتجت تلك الثورة المشؤومة التى جنى المسلمون مرّها أحقاباً طويلة وهم إلى الآن فى آلام شديدة من جرائها

كانت عامة المسلمين حتى آخر حياة عمر لا يعرفون الاختلاف بينهم إذ أنّ دواعى الاختلاف كانت مفقودة وأكبر داعية لنزوع الشر بين العرب أن يختلف رؤساؤهم ثم لا توجد يد قوية شديدة تقف بالمختلفين عند الحد الذى لا ينبغى أن يتجاوزوه . كانت روح عمر تخيف الرؤساء وذوى الرؤوس النابغة فلا يجدون سبيلا إلى نزاع أو شر إلى ما وقر فى أنفسهم من الألفة الإسلامية ومتى أمن اختلاف الكبراء فلا معنى للشقاق بين الرعية وظل العدل وارف فوق رءوسها

ولى عثمان سعد بن أبى وقاص الكوفة وكان معه عبد الله بن مسعود على الخراج فاقترض سعد من ابن مسعود مالا لأجل ولما حلّ الأجل جاء ابن مسعود يتقاضاه فلم يتيسر لسعد السداد فارتفع بينهما الكلام حتى استعان ابن مسعود بأناس من الرعية

على استخراج المال واستعان سعد بأناس على استنظاره فافترقوا وبعضهم يلوم بعضا : يلوم هؤلاء سعدا ويلوم هؤلاء عبدالله بن مسعود

بلغ هذا الشقاق عثمان فغضب على الرجلين فعزل سعدا عن إمارة الكوفة وأبقى ابن مسعود على الخراج وولى الكوفة الوليد بن عقبة وكان على غرب الجزيرة عاملا لعمر بن الخطاب ولما قدم الوليد كان محببا إلى الناس رفيقا بهم : حدث فى زمنه أن شبابا من شباب الكوفة نقبوا على رجل منها داره وقتلوه وكان له جار قد أشرف على الحادث ورآه فاستصرخ الشرط فجاءوا وقبضوا عليهم وفيهم زهير بن جندب الازدى ومورع بن أبى مورع الأسدى وشبيل بن أبى الازدى فحوكموا وثبتت عليهم جريمة القتل فقتلوا فاضطغن آباؤهم لذلك على الوليد وصاروا يتحينون الفرص للايقاع به وكان سمار يسمرون عنده ومنهم أبو زبيد الطائى وكان أبو زبيد نصرانيا ثم أسلم وكان معروفا بشرب الخمر فأتى آت أولئك النفر الحاقدين على الوليد فقال لهم هل لكم فى الوليد يعاقر أبا زبيد الخمر فأذاعوا ذلك بين الناس حتى شاع على ألسنتهم فتوجهوا إلى ابن مسعود فأخبروه بذلك فقال ابن مسعود من استتر عنا بشىء لم نتبع عورته ولم نهتك ستره فأرسل الوليد إلى ابن مسعود فعاتبه فى ذلك وقال أيرضى من مثلك بأن يجيب قوما موتورين بما أجبت أى شىء أستتر به إنما يقال هذا للمريب فتلاحيا وافترقا على تغاضب : ولم يكف ذلك أولئك القوم بل صمموا على الذهاب إلى دار الخلافة وشكوى الوليد والشهادة عليه بشرب الخمر فقدم من انتدبا للشهادة على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان ممن قد عزل الوليد عن الأعمال فأخبروه الخبر فقال من يشهد فقالوا فلان وفلان فسألهما كيف رأيتما قالا كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقىء الخمر فقال عثمان ما يقىء الخمر إلا شاربها فأرسل عثمان إلى الوليد فأقدمه المدينة وأفتى علىّ بوجوب حده فحدوه حدّ شارب الخمر وعزله عثمان وولى على الكوفة بدله سعيد بن العاص فخرج حتى أتى الكوفة ومعه أولئك النفر الذين أوقعوا بالوليد فلما وصلها صعد منبرها وقال لهم والله إنى قد بعثت اليكم وأنا كاره ولكنى لم أجد بدا إذ أمرت أن أأتمر إلا أن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينيها والله لأضربن وجهها أو تعيينى وإنى لرائد نفسى اليوم ثم نزل وسأل عن الكوفة وأهلها حتى خبرهم ثم كتب إلى عثمان (إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وطلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والمقدمة

والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعرب لحقت حتى ماينظر إلى ذى شرف ولابلاء من نازلتها ولا نابتها : فكتب اليه عثمان (أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعا لهم إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء . واحفظ لكل منزلته وأعطهم جميعا بقسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس يصاب بها العدل) فأرسل سعيد إلى وجوه الناس وأشرافهم من أهل الأيام والقادسية فقال لهم أنتم وجوه الناس من ورائكم والوجه ينبىء عن الجسد فأبلغونا حاجة ذى الحاجة وخلة ذى الخلة وأدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخاص بالقراء والمستمتين لسمره فكأنما كانت الكوفة يبسا شملته نار فانقطع إلى ذلك الضرب ضربهم وفشت القالة والإذاعة فكتب سعيد إلى عثمان بذلك فجمع أهل المدينة وأخبرهم بما جاءه من عند سعيد وبمقدار تشاؤمه من خال أهل الكوفة واضطراب أمرهم

كان لسعيد مجلس خاصة وهم من قدمنا صفتهم وكان فى بعض الأحيان يجلس للناس جلوساً عاما ولا يحجب عن مجلسه بأحد فبينما هو ذات يوم فى مجلس العامة وهم يتحدثون إذ قال قائل ما أجود طلحة بن عبيدالله فقال سعيد بن العاص أن من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جواداً والله لو أن لى مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً فقال شاب حدث والله لوددت أن هذا المطاط لك (وهو ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذى يلى الكوفة) فقال الناس لذلك الشاب فض الله فاك تتمنى له سواداً ثم ثار إليه جماعة من سفهائهم فيهم الأشتر النخعى وعمير بن ضابىء ونظراؤهما فأراد أبو الشاب أن أن يمنع عنه فضربوهما كليهما فى مجلس سعيد وسعيد يناشدهم وكادت تكون فتنة عامة لولا أن هدأها سعيد ومنع أولئك النفر من غشيان مجلسه فامتنعوا ولامّ لهم إلا الوقيعة فى سعيد ومن ولاه فكتب أشراف أهل الكوفة إلى عثمان بذلك وطلبوا منه إخراج هؤلاء النفر من الكوفة فأمر بنفيهم إلى الشام ليكونوا تحت نظر معاوية بن أبى سفيان فلما قدموا على معاوية أراد استصلاحهم بالمعروف وأكرمهم ثم قال لهم ذات يوم إنكم قوم من العرب لكم أسنان ولكم ألسنة وقد أدركتم بالإسلام شرفا وغلبتم الأمم وحويتم مراتبهم ومواريثهم وقد بلغنى أنكم نقمتم قريشا وأن قريشا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم إن أئمتكم لكم إلى اليوم جنة فلا تسدوا عنى جنتكم وإن أئمتكم اليوم يصبرون

لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لايحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جرتم على الرعية فى حياتكم وبعد موتكم فردّوا عليه ردّاً دل على تمكن الفتنة فى رؤسهم فردّ عليهم معاوية ردّاً شديداً وعلم أنهم لايصلحون وقال لهم لما ظنوا أنفسهم فى الكوفة مه إنّ هذه ليست بأرض الكوفة والله إن رأى أهل الشام ماتصنعون وأنا أمامهم ماملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم فلعمرى إن صنيعكم ليشبه بعضه بعضا وكتب إلى عثمان بأنه لم يقدر على استصلاحهم وأنه لايود بقاءهم فى الشام فأمره عثمان أن يسيرهم إلى حمص عند عبدالرحمن ابن خالد بن الوليد فأدبهم عبدالرحمن تأديباشديداً حتى أظهروا الرجوع والندم فأمر عثمان أن يعيدهم إلى الكوفة فلماعادوا اشتدأمرهم فى الوقيعة بعثمان وعماله وهؤلاءهم رؤس الفتنة من أهل الكوفة وهم مالك بن الحارث الأشتر وثابت بن قيس النخعى وكميل بن زياد النخعى وزيد بن صوحان العبدى وجنوب بن زهير الغامدى وجندب بن كعب الأزدى وعروة بن الجعد وعمرو بن الحمق الخزاعى : وفى آخر عهد عثمان خرج سعيد إليه ليبلغه أحوال الكوفة ولما أراد العودة خرج إليه أولئك الناس ومن استغووه وقالوا والله لايدخلها علينا واليا أبداً ولما علم بذلك عثمان عزله عنهم وولى عليهم أباموسى الأشعرى حسب طلبهم هكذا كان الحال بالكوفة غلب فيها الغوغاء أهل الحلم وضعف سلطان الأمراء ، وقوة الطاعة لم يبق لها فى نفوس القوم من أثر

وفى البصرة التى هى الحاضرة الثانية للعراق لم تكن الحال خيراً من ذلك ففى سنة ٢٩ هاج أهلها على أبى موسى الأشعرى عاملهم واستعفوا عثمان منه فعزله عنهم وولى بدله عبد الله بن عامر وكان له فى أعمال الفتوح بالكوفة أثر جيد وكانت إمارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين ولثلاث سنين من إمارته بلغه أنّ فى عبدالقيس رجلا نازلا على حكيم بن جبلة وكان حكيم رجلا لصاً إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى فى أرض فارس فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويفسد فى الأرض ويصيب مايشاء ثم يرجع فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة إلى عثمان فكتب إلى ابن عامر يأمره بحبس حكيم ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرجنّ منها حتى تأنسوا منه رشداً فكان لايستطيع أن يخرج منها فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبد الله بن سبأ ويكنى بابن السوداء نزل عليه وكان يلقى إلى الناس فى السر تعاليم خبيثة وأصل هذا الرجل

يهودى أظهر الإسلام ليضل الناس فصار يقول لهم عجبت ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد فيقبل منه الناس ذلك ويقول لهم عجبا لكم أيها المسلمون يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يقصون عن أمركم إلى مايماثل هذا الكلام الذى يسهل قبوله لأنه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ورفعة مقامه على سائر الأنبياء ثم ماهو قريب من ذلك من استهجان ترك آله وإقصائهم عن أمر خلافته فبلغ شيء من خبره عبدالله ابن عامر فأحضره وسأله من أنت فقال رجل من أهل الكتاب رغب فى الإسلام ورغب فى جوارك فقال مايبلغنى ذلك فاخرج عنى فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فسار إلى مصر وهناك وجد مهده بعد أن نفث مانفث بالعراق.

أما الأمر فى مصر فقد كان أشد مما فى العراق فإن ابن سبأ لما جاءها ألقى إلى الناس تعاليمه ومن ضمنها أنه كان لله ألف نبي ولكل نبي وصى وكان علىّ وصى محمد ثم قال محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء ثم بعد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصيه وتناول أمر الأمة ثم قال بعد ذلك إنّ عثمان أخذها بغير حق وهذا وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه وابدءوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر فبث دعاته وكاتب من كان استفسد فى الأمصار وكاتبوه ودعوا فى السر إلى ماعليه رأيهم وأظهر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجعلوا يكتبون إلى الأمصار بكتب يضعونها فى عيب ولاتهم ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بمايصنعون فيقرؤه أولئك فى أمصارهم وهؤلاء فى أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض إذاعة وهم يريدون غير مايظهرون ويسرون غير مايبدون فيقول أهل كل مصر إنا لفى عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار فأتوا عثمان فقالوا ياأمير المؤمنين يأتيك عن الناس الذى يأتينا فقال لا والله ماجاءنى إلا السلامة فأخبروه بما جاءهم فأشاروا عليه أن يبعث إلى الأمصار من يستقى أخبارها ويعلم علم مافيها فندب لذلك رجالا سيرهم إلى الأمصار فسير محمد بن مسلمة إلى الكوفة وأسامة بن زيد إلى البصرة وعبد الله بن عمر إلى الشام وعمار بن ياسر إلى مصر وفرق رجالا سواهم فى البلاد الأخرى فأقبل جميعهم

إلاعماراً فقالوا أيها الناس ماأنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولاعوامهم أما عمار فقد ورد إلى عثمان كتاب من عبد الله بن سعد بن أبى سرح أمير مصر يخبره فيه أنه قد استماله قوم بمصر وانقطعوا اليه منهم عبد الله بن السوداء وخالدبن ملجم وسودان بن حمران وكنانة بن بشر وكان من أشد المؤلبين على عثمان بمصر رجلان : محمد بن أبى حذيفة . وكان الذى دعاه إلى ذلك أنه كان يتيما فى حجر عثمان فكان عثمان والى أهل بيته ومحتمل كلهم فسأل محمد عثمان العمل حين ولى فقال يابنى لوكنت رضى ثم سألتنى العمل لاستعملتك ولكن لست هناك قال فأذن لى فلأخرج فلأطلب مايفوتنى قال اذهب حيث شئت وجهزه من عنده وحمله وأعطاه فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغير عليه أن منعه الولاية . والثانى : محمد بن أبى بكر وقد كان من الاسلام بالمحل الذى هو به وغره أقوام فطمع وكانت له دالة فلزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فاجتمع هذا إلى هذا فصار كما يقول سالم بن عبد الله بن عمر مذمما بعد أن كان محمداً وإنما مال اليهم عمار بن ياسر لأنه كان كذلك حاقداً على عثمان فقد قال سعيد بن المسيب إنه كان بينه وبين عباس بن عتبة ابن أبى لهب كلام فضربهما عثمان وكان قذفا

أما الحال فى الشام فقد كانت أحسن الأحوال لما عرف به معاوية من الحزم والضبط إلا أنه كان فيها حادثة استعملها أولئك الضالون فى التشنيع على عثمان وعماله وذلك أن ابن السوداء لما أتى الشام جاء أباذر فقال ياأبا ذر ألا تعجب من معاوية يقول المال مال الله إلا أن كل شىء لله كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين فأتاه أبو ذر فقال مايدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله قال يرحمك الله ياأبا ذر ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره قال فلا تقله قال فإنى لا أقول إنه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين ثم أتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له أبو الدرداء من أنت أظنك يهوديا ثم أتى عبادة بن الصامت فتعلق به وأتى به معاوية فقال هذا والله الذى بعث عليك أباذر ثم قام أبوذر بالشام وجعل يقول يامعشر الأغنياء وأسوأ الفقراء . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فمازال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء وحتى شكا الأغنياء مايلقون من الناس.

فكتب معاوية إلى عثمان بذلك فأمره عثمان أن يجهز اليه أباذر فأرسله اليه فلما قدم عليه ورأى المجالس فى أصل سلع قال بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار ولما دخل على عثمان قال ياأبا ذر مالأهل الشام يشكون ذرب لسانك فأخبره أنه لاينبغى أن يقال مال الله ولا ينبغى للأغنياء أن يقتنوا مالا فقال ياأبا ذر على أن أقضى ماعلىّ وآخذ ماعلى الرعية ولا أجبرهم على الزهد وأن أدعوهم إلى الاجتهاد والاقتصاد وكان هذا الرأى الاشتراكى متمكنا من أبى ذر وقد وجد الخليفة أنه رأى فائل فأمر أبا ذر أن يخرج إلى الربذة فيقيم بها ويقال إن أبا ذر هو الذى طلب منه ذلك فسيره وأجرى عليه رزقا وعلى رافع بن خديج مثله وقد توفى أبوذر بالربذة سنة ٣٢ وكان من السابقين إلى الإسلام : أمّا الحال فى المدينة فقد كانت تلك الكتب التى يرسلها السبئيون سببا لكثرة الحديث فى عمال عثمان وفشوا القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير منهم وفيهم من هو حاقد على عثمان لأسباب تخصه وقد بلغ الحال أن بعضهم واجه عثمان بما يسوءه من الكلام فكان يتحمل ذلك بصبر

لما رأى عثمان كثرة الكلام أرسل إلى عماله بالأمصار أن يوافوه جميعا بالموسم فقدموا عليه عبدالله بن عامر ومعاوية وعبدالله بن سعد وأدخل معهم فى المشورة سعيد ابن العاص وعمرو بن العاص فقال لهم ويحكم ماهذه الشكاية وماهذه الإذاعة إنى والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم ومايعصب هذا إلابى فقالوا له ألم تبعث ألم يرجع إليك الخبر عن القوم ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشىء لاوالله ماصدقوا ولابرّوا ولانعلم لهذا الأمر أصلا وما كنت لتأخذ به أحداً فيقيمك على شىء وماهى إلا إذاعة لايحل الأخذ بها ولاالانتهاء إليها قال فأشيروا علىّ فقال سعيد بن العاص هذا أمر مصنوع يصنع فى السر فيلقى به غير ذى المعرفة فيخبر به فتحدث به فى مجالسهم قال فما دواء ذلك قال طلب هؤلاء القوم ثم قتل هؤلاء الذين يخرج هذا من عندهم وقال عبدالله بن سعد خذ من الناس الذى عليهم إذا أعطيتهم الذى لهم فإنه خير من أن تدعهم وقال معاوية قد وليتنى فوليت قوما لاياتيك عنهم إلا الخير والرجلان أعلم بناحيتهما قال فما الرأى قال حسن الأدب قال فما ترى ياعمرو وأرى أنك قد لنت لهم وتراخيت عنهم وزدتهم على ما كان يصنع عمر فأرى أن تلزم طريقة صاحبيك فتشتد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين ، إن الشدة تنبغى لمن لايألو الناس شراً واللين لمن يخالف الناس بالنصح وقد فرشتهما جميعا اللين . فترون

أن جميعهم أشاروا عليه باستعمال الشدة مع هؤلاء الذين لا هم إلا إذاعة الأكاذيب لتنفيذ أغراض فى أنفسهم فقال لهم عثمان كل ما أشرتم به على قد سمعت ولكل أمر باب يؤتى منه إن هذا الأمر الذى يخاف على هذه الأمة كائن وإن بابه الذى يغلق عليه فيكفكف به اللين والمؤتاة والمتابعة إلا فى حدود الله التى لا يستطيع أحد أن يبادئ بعيب أحدها فإن سده شىء فرفق فذاك والله ليفتحن وليست لأحد على حجة حق وقد علم الله أنى لم آل الناس ولا نفسى ووالله إن رحا الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها كفكفوا الناس وهبوا لهم حقوقهم واغتفروا لهم وإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها . ثم رد الأمراء إلى أعمالهم ولم يأمر بشىء مما أشاروا به وقد عرض معاوية على عثمان أن يسير معه إلى الشام فأبى وقال لا أبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء وإن كان فيه قطع خيط عنقى فعرض عليه أن يرسل له جندا يقيم ون معه بالمدينة المحافظة عليه فأبى وقال لا أقتر على جيران رسول الله الأرزاق بجند يساكنهم وأضيق على أهل دار الهجرة والنصرة

كان التصميم الذى دبره السبئية أن يثوروا بعد مبارحة أمرائهم الأمصار فلم يتهيأ لهم ذلك ولم ينهض إلا أهل الكوفة خرجوا بحجة أنهم يستعفون عثمان من سعيد بن العاص فخرجوا حتى إذا قابلوا سعيداً بالجرعة ردوه واجتمع الناس على أبى موسى الأشعرى وأقره عثمان ولما رجع الأمراء لم يكن للسبئية سبيل إلى الخروج فكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار أن يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسألون عثمان عن أشياء لتطير فى الناس ولتحقق عليه فخرجت وفود من الأمصار الثلاث حتى قاربت المدينة فلما علم عثمان بمجيئهم أرسل إليهم رجلين ليعلما علم القوم وماذا يريدون وكان الرجلان ممن ناله أدب من عثمان فاصطبروا ولم يضطغنا فلما رآهما أولئك القادمون أخبروهما بما يريدون فقالوا إنا نريد أن نذكر له أشياء قد زرعناها فى قلوب الناس ثم نرجع إليهم فنزعم لهم أنا قررناه بها فلم يخرج منها ولم يتب ثم نخرج كأنا حجاج حتى نقدم فنحيط به فنخلعه فإن أبى قتلناه فرجع الرجلان إلى عثمان وأخبراه الخبر فضحك ثم احضر هؤلاء القوم وجمع الناس وأخبرهم خبر القوم فأشار عليه بعض المشيرين منهم أن يقتلهم فقال عثمان بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ولا نحاد أحداً حتى يركب حداً أو يبدى كفراً إن هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذى علمتم الا إنهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوها على عند من لا يعلم

قالوا أتم الصلاة فى السفر وكانت لا تتم ألا وإنى قدمت بلداً فيه أهلى فأتممت لهذين الأمرين أوكذلك هو قالوا نعم

وقالوا حميت حمى وإنى والله ماحميت حمى قبلى والله ماحموا شيئاً لأحد ماحموا إلا ما غلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا من رعية أحداً واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين أحد تنازع ثم ما منعوا ولا نحوا منها أحداً إلا من ساق درهما ومالى من بعير غير راحلتين ومالى من ثاغية ولا راغية وإنى قد وليت وإنى أكثر العرب بعيراً وشاة فمالى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجى أكذلك هو قالوا اللهم نعم

وقالوا كان القرآن كتبا فتركتها إلا واحداً ألا وإن القرآن واحد جاء من عند واحد وإنما أنا فى ذلك تابع لهؤلاء أكذلك هو قالوا نعم

وقالوا أنى قد رددت الحكم وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم والحكم مكى سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى الطائف ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم فرسول إلى سيره ورسول رده أكذلك هو قالوا نعم

وقالوا استعملت الأحداث ولم أستعمل إلا مجتمعا محتملا مرضيا وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه وهؤلاء أهل بلده ولقد ولى من قبلى حدث منهم وقيل فى ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أشد مما قيل لى فى استعماله أسامة أكذلك هو قالوا نعم

وقالوا إنى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه وإنى إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس وكان مئة ألف وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم أكذلك هو قالوا نعم . وقالوا إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم فأما حبى فإنه لم يمل معهم على أجور بل أحمل الحقوق عليهم وأما إعطاؤهم فإنى إنما أعطيهم من مالى ولا أستحل أموال المسلمين لنفسى ولا لأحد من الناس ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى أزمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وأنا يومئذ حريص شحيح أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى وفنى عمرى وودعت الذى لى فى أهلى قال الملحدون ما قالوا وإنى والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددته عليهم وما قدم إلا الأخماس ولا يحل لى منها شىء فولى المسلمون وضعها فى أهلها دونى ولا يتفلت من مال الله بفلس فما فوقه وما أتبلغ منه ما آكل إلا من مالى

وقالوا أعطيت الأرض رجالا وإنّ هذه الأرضين شاركهم فيها المهاجرون والأنصار أيام افتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة أهله ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ماحوى الله له فنظرت فى الذى يصيبهم مما أفاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنقلت اليهم نصيبهم فهو فى أيديهم دونى . وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه فى بنى أمية وجعل ولده كبعض من يعطى فيه فبدأ ببنى أبى العاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف فأخذوا مئة ألف وأعطى بنى عثمان مثل ذلك وقسم فى بنى العاص وفى بنى العيص وفى بنى حرب ولانت حاشية عثمان لأولئك الطوائف

فاكتفى عثمان بهذا الدفاع عن نفسه ولم يفعل شيئا مع ذلك الوفد بل أعادهم إلى أمصارهم فكاتبوا بينهم واتفقوا على أن يخرجوا من أمصارهم كأنهم عمار ثم يتوافوا بالمدينة لتنفيذ ماعزموا عليه فخرج أهل مصر فى أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم بين الستمئة والألف وأميرهم جميعا الغافقى بن حريب العكى ولم يجترؤا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب وإنما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء . وخرج أهل الكوفة فى أربع رفاق عليهم أربعة أمراء وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعا عمرو بن الأصم وخرج أهل البصرة فى أربع رفاق وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعا حرقوص بن زهير السعدى وكانت أهواء أهل الأمصار الثلاثة مختلفة فأهل البصرة كانوا يريدون طلحة لأنّ ضياعه كانت ببلدهم وأهل الكوفة كانوا يريدون الزبير وأهل مصر كانوا يريدون عليا لتعاليم ابن السوداء ووجود ابن أبى بكر وهو ربيب علىّ وابن أبى حذيفة بينهم : ولما كانوا من المدينة على ثلاثة تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب وناس من أهل الكوفة فنزلوا الأعوص وجاءهم هناك ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذى المروة واتفقوا جميعا أن يقدموا روادا ليدخلوا المدينة وينظروا هل وصل المدينة خبرهم لأنهم كانوا يخافون أن يستعد لهم أهل المدينة بحرب فأرسلوا لذلك رجلين فلما دخلا المدينة كلما عليا وطلحة والزبير وقالا إنما نأتم هذا البيت ونستعفى هذا الوالى من بعض عمالنا ماجئنا إلا لذلك واستأذناهم للناس بالدخول فكلهم أبى ذلك عليهما فرجع الرائدان إلى قومهما وأخبراهم الخبر فاجتمع من أهل مصر نفر أتوا عليا ومن أهل البصرة نفر أتوا طلحة ومن

أهل الكوفة نفر أتوا الزبير فسلم المصريون على علي وعرضوا له بالأمر فرد عليهم ردا شديدا وكذلك فعل طلحة والزبير بمن جاءهم فخرج القوم وأروهم أنهم راجعون حتى انتهوا إلى عساكرهم وهى ثلاث مراحل كى يفترق أهل المدينة ثم يكروا راجعين فافترق أهل المدينة لخروجهم فلما بلغ القوم عساكرهم كروا بهم فبغتوهم فلم يفجأ أهل المدينة إلا والتكبير فى نواحيها فنزلوا مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان وقالوا من كف يده فهو آمن ملزم الناس بيوتهم فأتاهم علي فكلمهم وقال ماردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم فقال المصريون أخذنا مع البريد كتابا بقتلنا وقال الكوفيون والبصريون جئنا ننصر إخواننا كأنما كانوا على ميعاد فقال لهم علي كيف علمتم ياأهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقى أهل مصر وقد سرتم مراحل ثم طويتم نحونا هذا والله أمر أبرم بالمدينة قالوا فضعوه كيف شئتم لاحاجة لنا فى هذا الرجل ليعتزلنا ثم قالوا لعلي إن الله قد أحل لنا دم هذا الرجل قم معنا إليه قال والله لاأقوم معكم إلى أن قالوا فلم كتبت إلينا فقال علي والله ما كتبت لكم كتابا فنظر بعضهم إلى بعض (تأملوا كيف استعمل المفسدون اسمه ليهيجوا الناس) : ثم تركهم علي وخرج من المدينة . ثم دخلوا بالكتاب على عثمان فقالوا كتبت فينا بكذا وكذا فقال إنما هما اثنتان أن تقيموا على رجلين من المسلمين أو يمينى بالله لاإله إلا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت وقد تعلمون أن الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم فقالوا قد والله أحل الله دمك ونقضت العهد والميثاق فتركهم عثمان وكان القوم يحاولون منه أن يخلع نفسه من الخلافة وهو يأبى وكان لايزال يصلى بهم ثم منعوه من الصلاة فى المسجد وحصروه فى داره. وكان عثمان بدون ريب يفكر وهو محصور أن علي بن أبي طالب لم يفعل مايمكنه لرد هؤلاء الناس فكانت بينهما المراسلات يطلب إليه فيها أن يجتهد فى تخفيف هذا الحصار عنه ومن ذلك مارواه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد فى كتابه الكامل أن عثمان كتب إلى علي وهو محصور (أما بعد فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين وبلغ الأمر أشده ثم تمثل بهذا البيت)

(فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق)

وكانت حاشية عثمان من بنى أمية ترى أن لعلي ضلعا فى هذا الأمر فكانت الوجوه تتقابل عابسة وتبدى عما فى القلوب العيون فلم يكن هناك سبيل لعمل صالح فى مصلحة

المسلمين وقد أدت الحال إلى أن ترك عليّ المدينة رأساً فى هذه الفتنـة التى نظنّ أنه لم يكن فى إمكانه قمعها إلا أنه كان هناك شىء واحد فى هذا الوقت الحرج وهو تناسى كل مافى النفوس لأنّ الأمر كان أعظم من أن يذكر كل فريق عيب صاحبه ولا يغيب عن الفكر أنّ رؤوس المسلمين لو كانت متفقة تماماً لأمكنهم أن يقاوموا هذا السيل الذى أقبل عليهم ولكن القلوب كانت قد انصدعت ألفتها فغلب السفهاء على الأمر وفعلوا مافعلوا . لو كان هناك نظر بعيد لرءوس المسلمين الذين كانوا بالمدينة وفيهم القوّاد العظام والأئمة الأعلام لما كان لسفهاء الأمصار مهما كثر عددهم أن ينفذوا رغبتهم التى فرّقت كلمة المسلمين

استمرّ الحصار على عثمان واشتدّ عليه حتى منعوه الماء فكان لايصل منه إليه شىء إلا خفية وكان عثمان يطل عليهم من آن لآخر ويعظهم فلا تؤثر فيهم الموعظة ثم شدّدوا عليه الحصار لما بلغهم أنّ جنداً من الأمصار أقبلت لنصر عثمان . وفى أثناء الحصار ولى عبد الله بن عباس موسم الحج وكتب معه كتاباً مطوّلا يقرؤه على المسلمين فى الموسم ويعلمهم بما هو فيه فسار ابن عباس أميراً على هذا الموسم فقرأ الكتاب على المسلمين ولكن ذلك جاء بعد أن فات الوقت

أراد المحاصرون التعجيل بالأمر خوفا من خطر يفاجئهم فأحرقوا أبواب الدار ومنهم من تسوّر من دار ابن حزم وكان جاراً له ولما رأى ذلك عثمان استسلم للقضاء وأمر من يريد الدفاع عنه أن ينصرف وهم قليلون لايغنون شيئاً : دخل عليه جماعة فيهم محمد بن أبى بكر مريداً قتله فلم يصنع شيئاً فتقدم غيره فضربه الغافقى بحديدة كانت معه وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت على عثمان زوجه البارة نائلة بنت الفرافصة واتقت السيف بيدها فتعمدها ونفح أصابعها فأطعن أصابع يدها ثم أهوى له بعضهم فضرب عنقه وانتهبوا مافى البيت وأخرجوا من فيه ثم أتوا بيت المال فانتهبوه وأذاعوا بالمدينة خبر قتله وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يوما وكان قتله لثمانى عشر ليلة خلت من ذى الحجة سنة ٣٥ (٢٠ مايو سنة ٦٥٦) وذلك افتتاح التاريخ المشؤوم

المحاضرة الثامنة والعشرون

أسباب مقتل عثمان — بيت عثمان — على وكيف انتخب — ترجمته — أول خطبة له — أول أعماله —

إجمال الأسباب التى أدت إلى قتل عثمان

بعد أن أتينا على تفصيل الحوادث التى أدت إلى هذه الفاجعة نتبعها ببيان مجمل لما يستنتج من تلك الحوادث

السبب الأول

مهما كان رؤساء الأمة مخلصين بعضهم لبعض يتعاونون فيما بينهم على قضاء المصالح العامة فقلما يجد مريد السوء سبيلا للفتن والثورات وإذا انصدع شمل القلوب وحلت الكراهة محل المحبة والتحاسد محل التناصر انفسح المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطراب وعلى هذا كان الحال فى المدينة حاضرة الخلافة وجمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية الأمر فإن من يتصفح أحوالهم وما كان يبدو على ألسنتهم من الكلمات الشديدة المؤلمة فى حق عثمان سواء فى وجهه وفى غيبته يحكم أن النفوس قد انطوت على مكروه حتى كانوا يلقبونه فى بعض الأحيان نعثلا ونعثل رجل مصرى كان طويل اللحية شبهوه به للنقض منه ويقول فى لسان العرب إنهم لم يجدوا فيه عيبا سوى هذا وحتى قام من بينهم رجل أخذ العصا التى كان عثمان يخطب عليها فكسرها وهى عصا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثرت كلمات فى حق عثمان عن كثير من كبراء المدينة كل ذلك يقال ويفعل من غير بيان الأسباب التى أدت بهم إلى مثل هذا ومن غير نظر إلى ماتحدثه هذه الكلمات بين العامة خصوصاً إذا صادفت مهيجين مثيرين

السبب الثانى

كان عثمان معروفاً بخلق الحياء واللين. أما الحياء فقد كان مشهوراً به فى جاهليته وفى إسلامه حتى قال فى حقه عليه السلام (ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة) وخلق الحياء يحمل صاحبه على الإغضاء عن كثير مما يكره أما اللين فإن الرجل كان كثير التشاؤم يخاف الفتن على المسلمين ويود أن لايكون فتح بابها على يده يعرف ذلك

من استقرأ خطبه وكتبه حتى أن خطبته التي قالها على المنبر لأول مرة لم تخل من هذا دعاه الخلق الأول إلى التسامح مع من يناله منهم أذى في حق نفسه فلا يوجد إلى واحد منهم كلمة تسوءه وهذا وإن حسن عند الحكماء فإنه لا يحسن أبداً في سياسة الرعية بل لا بد لمقام الخلافة من هيبة في القلوب تقف بالناس عند الحد اللائق بهم: انظروا إلى ما فعله عمر مع سعد بن أبي وقاص حينما زاحم الجموع المحيطة بعمر ووصل إليه مدلا بمركزه فإنه خفقه بالدرة وقال جئت لا تهاب سلطان الله في أرضه فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك فلا بد لسلطان الله من قوة تمنع عنه ضعفاً أو ذلة: والخلق الثاني جعله يمتنع عن عمل أي تدبير لمعاقبة المفسدين الذين رفعوا إليه وثبت أنهم يديرون حركة الفتنة من غير مبالاة أشار عليه ولاته حينما جمعهم لديه بالموسم أن يستعمل الشدة مع أولئك الذين يثيرون العامة بما يضعونه من الأحاديث الملفقة وكانت كلمة العمال في ذلك واحدة فلم يعبأ بقولهم بل اختار اللين على الشدة لئلا يكون فاتحاً باب الفتنة الذي يخيفه: ثم جاءه بالمدينة نفر من أولئك الناس وعلم مقصدهم وأشار عليه مشيره من أهل المدينة بعقوبتهم فلم يفعل بل اكتفى بأن دافع عن نفسه أمامهم بتلك الخطبة التي تلوناها عليكم ثم تركهم يعودون إلى بلادهم فمازادهم ذلك إلا افساداً لأنهم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرى وتقنعهم الحجة وإنما هم طلاب شر يتطلبون الطريق إليه فكلما أعجزهم باب عدلوا إلى غيره

السبب الثالث

ماخالف به عثمان صاحبه عمر في إعلام قريش فإن عمر كان يحجر عليهم في المدينة فلا يسمح لهم أن يبارحوها إلا بإذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك وكان هذا لهم مما حببه إليهم ولكن ترتب عليه ماحذره عمر فإنه قد اجتمع إليهم أناس ممن لا سابقة لهم في الإسلام والتصقوا بهم وتقربوا إليهم حتى إذا كان الأمر لهم في يوم من الأيام كانوا أقرب الناس إليهم فنبه بذلك ذكرهم وإلا فلماذا كان أهل البصرة يريدون طلحة وأهل الكوفة يريدون الزبير وأهل مصر يريدون علياً. صحيح أن علياً لم يجئ مصر ولكن جاءها من هو أمس الناس به رحما وهو محمد بن أبي بكر ربيبه لأن أمه أسماء بنت عميس تزوجها علي بعد موت أبي بكر وكان محمد في حجرها فرباه علي فلم تكن طلبات أهل الأمصار إلا نتيجة لما فعله عثمان وانقطاع العامة إلى أولئك الأعلام أو لمن هو منهم بسبيل حتى

يكون لهم شأن إذا انتقلت الخلافة إلى صاحبهم ولذلك لما تم الأمر لصاحب المصريين ولم يتم الأمر الآخرين اجتمعا عليه ، لا يمكن من قرأ تفصيل الحوادث التى سبقت قتل عثمان أن ينفى عن أعلام قريش تطلعهم إلى ولاية الأمر ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيقى مع المتآمرين والذى يؤخذ عليهم هو هوادتهم فى القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واسترسال بعضهم فى الأقوال التى تحط من قدره حتى وقت اشتداد الأزمة وعلى مسمع من رؤساء الثائرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات

السبب الرابع

سهولة التأثير فى الجماعات متى أتوا من قبل ما يهوون وما يحبون وهم فى هذه الأحوال لا يصبرون حتى يتثبتوا مما يلقى عليهم بل سرعان ما يصدقونه ويألمون له إن كان مؤلما ويسرون إن كان سارا : كان الناس مسلمين يحبون نبيهم أكثر مما يحبون أنفسهم عربا يحبون العدل والمساواة كما عودهم عمر فجاءهم ذلك الشيطان عبد الله بن سبأ من الجهة التى يألفونها وهى نقطة ضعفهم صار يضع لهم الكلام فى تعظيم الرسول وأهل بيته ويعسو بهم على بن أبى طالب وصى رسول الله كما كان لكل نبى وصى وأنه من اللازم أن يعطى الأمر لصاحب الحق لأن من اجترأ عليه فأخذه منه ظالم غاشم ثم صار يزيد على ذلك ما يدسه مدحا لعلى بن أبى طالب حتى علا به إلى درجة لم يطلبها على لنفسه ومثل هذا الكلام يسهل إدخاله فى القلوب خصوصا إذا كان قد سبقه شىء من الضغينة على من بيده أمر الخلافة ولذلك نرى الرجل كان يتتبع من أصابهم من ولاة عثمان أذى فى نفسه أو ماله ثم جاءهم من قبل العدل والمساواة فصار يطعن فى أمراء عثمان مرة بأنهم شبان ومرة بأنهم من ذوى قرباه ومرة بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفا والذين كانوا يؤيدونه لأغراض فى أنفسهم اشتغلوا فى الأمر بمهارة فصارت شيعتهم فى كل مصر تكتب إلى المصر الآخر بما عندهم من المحزنات فيقرأ كتابهم على العامة علنا فيستغيثون بالله مما حل بأهل ذلك المصر ومن ذلك المصر نفسه تكتب كتب ترسل إلى المصر الأول فتقرأ على العامة فيستغيثون بالله مما حل بإخوانهم ويقولون نحن فى عافية مما ابتلى به هؤلاء الناس حتى أمكنهم أن يوغروا صدر العامة التى تجتمع عليهم وليس لما يكتبون صحة فقد كانوا يعيبون معاوية وهذا لم يوجده عثمان بل ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاه أبو بكر وولاه عمر ولم نر من العمال من استمر موثوقا به من عمر حياته كلها إلا أفرادا قلائل منهم

معاوية بن أبى سفيان فقد كان واليا من أول حياة عمر إلى آخرها وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين وأهدأها وكانوا يعيبون عبدالله بن سعد بن أبى سرح لا لأنه ظالم أو جائر وإنما لأمر آخر وهو أنّ النبى صلى الله عليه وسلم حكم بقتله يوم الفتح ثم استوهبه منه عثمان فعفا عنه ولم يعلموا أن الرسول كان إذا عفا فإنما جرعلى الذنب ستراً لا يزول وكانوا يعيبون مثل الوليد بن عقبة وهذا كان واليا لعمر بن الخطاب ومات عمر وهو واليا له وكانوا يعيبون سعيد بن العاص وهو باعتراف أهل البصرة من أجود العمال وأحكمهم بالقسط فلم تكن هذه المذام موجهة بحق لرفع جور وإنما كانت للتأثير فى قلوب الناس وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذا القول وساعدهم على ذلك أن أولياء الأمر لم يبادروا بأخذ الحيطة لأن العمال لم يكن لهم مثل ذلك السلطان والخليفة حذر من أن يأمر بذلك فضاعت مصلحة الأمة . وإذا أردنا أن نحمل الناس فى ذلك الوقت تبعة أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعة فى ذلك لأن الحلم واللين لم يكونا فى زمن من الأزمان مما يتجنى به على أولى الأمر والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك

من الغريب بعد ذلك أن تبقى هذه الحادثة سببا دائما لتفريق كلمة المسلمين : ففى بعض الأحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والأسنة وفى بعض الأحيان فرقة كلامية تنتهى بعداء ونفور وليس ذلك إلا أن المسألة ألبست ثوب الدين وكل حاول الوصول بما يثبته وما يختلقه إلى غرض من الأغراض . ولو نظرنا إلى المسألة بنظر صحيح لقلنا خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته بعضهم سيء القصد والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشى لا يتفق مع أصول الإسلام ثم نحكم بأنهم أخطأوا خطأ عظيما ثم ذهبوا إلى من له الحق أن يدينهم ولم يبق منهم من يمكننا الانتقام منه لسوء قصده أو تبيين الصواب له لخطئه . وغاية الأمر أن الباقى لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان . فالعاقل همه أن يتعلم ويفهم لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية

لا تمكن حماية الأمة من أصحاب المقاصد السيئة الذين يريدون فتنتها وتهييجها لغير مصلحتها إلا إن كان فيها من العقلاء من يحترم رأيهم وتسمع كلمتهم فإنهم يبصرون قومهم بما يعود عليهم بالخير والفلاح : وكل أمة فقدت هؤلاء السراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن لف لفه أن يفتنوها ويلفتوها عما يصلحها ويجعلوا بأسها بينها

شديداً . وهم فى كل زمن كثيرون فما ظنك إن كان سراتها ممن يساعد على فتح باب السر بإغضائه وتهاونه إنّ الشر حينئذ يكون مستطيراً والبلاء عظيما وسيرد عليكم من ذلك شيء كثير

دفن عثمان

من غريب مافعله أولئك الثائرون أنهم لم يصرحوا بدفن عثمان ولم يدفن إلا بصعوبة واستتار . خرجوا به بعد المغرب فدفنوه ولم يشيع جنازته إلا نفر قليل وصلى عليه جبير بن مطعم

بيت عثمان

١ - ٢ - تزوج عثمان بمكة رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وولدت ولداً اسمه عبدالله فماتت ثم تزوج بعدها أم كلثوم أختها

٣ - وتزوج فاختة بنت غزوان من قيس عيلان وولدت له عبدالله الأصغر فمات

٤ - وتزوج أم عمرو بنت جندب الدوسى فولدت له عمراً وخالداً وأباناً وعمر ومريم

٥ - وتزوج فاطمة بنت الوليد المخزومية فولدت له الوليد وسعيداً وأم سعيد

٦ - وتزوج أم البنين بنت عيينة بن حصن الفزارية فولدت له عبدالملك ومات

٧ - وتزوج رملة بنت شيبة من بنى عبدمناف فولدت له عائشة وأم أبان وأم عمرو

٨ - وتزوج نائلة بنت الفرافصة الكلبية فولدت له مريم وقد توفى وعنده فاختة وأم البنين ورملة ونائلة

عمال عثمان

العلاء بن الحضرمى على مكة - القاسم بن ربيعة الثقفى على الطائف - يعلى بن منية على صنعاء - عبد الله بن ربيعة على الجند - عبد الله بن عامر على البصرة - سعيد بن العاص على الكوفة - عبد الله بن سعد على مصر - معاوية بن أبى سفيان على الشام

٤ — على بن أبى طالب

كيف انتخب

لم تكن الظروف التى حصل فيها انتخاب على بن أبى طالب مشابهة لما كان عليه

الحال فى انتخاب من قبله فانه عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أعلام الصحابة بالمدينة فاختلفوا قليلا ثم ثابوا إلى الجماعة وأجمع رأيهم على انتخاب أبى بكر وعقب وفاة أبى بكر لم يكن ثم مجال للخلاف لأنه كان قد عهد إلى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته : وعقب وفاة عمر كان قانون الشورى قد سن لهم فأصاب الانتخاب عثمان فكأن عمر قد عهد إلى واحد من ستة يعينونه هم وبين الحدود فى المخالف : أما عند موت عثمان فلم يكن الأمر كذلك فالمدينة فيها جماعة الثوار على عثمان وهم قاتلوه وهم أوزاع متفرقون من أمصار مختلفة لم يكن لهم ذكر إلا بهذه الثورة وليس عددهم بشىء أمام جنود الأمصار التى لم يكن لها اشتراك فى الجريمة : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير منهم من كان خارج المدينة ومنهم المرابطون فى الثغور ومنهم العمال ومنهم من كان مقيما بالمدينة

كانت الكلمة العليا فى المدينة إذ ذاك بطبيعة الحال لهؤلاء العابثين الذين قتلوا الخليفة ولم يكن فى نظر جمهورهم أليق من علىّ للخلافة فكلموه فى البيعة له فامتنع قليلا ثم أجاب إلى ذلك : ويقول الكوفيون أول من بايعه الأشتر وكان من المهم عنده أن يبايعه طلحة والزبير لأنهما زميلاه فى الشورى وان تطلع إلى الخلافة أحد دونه فهما . روى الطبرى عن الزهرى أنه دعاهما إلى البيعة فتلكأ طلحة فقام مالك الأشتر وسل سيفه والله لتبايعن أو لأضربن به مابين عينيك فبايعه وبايعه الزبير . وروى أن علياً قال لهما إن أحببتما أن تبايعانى وإن أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك وقالا بعد ذلك إنما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا وجىء بسعد بن أبى وقاص ليبايع فقال له لا أبايع حتى يبايع الناس والله ماعليك منى بأس قال خلوا سبيله . وجىء بعبد الله بن عمر ليبايع فقال لا أبايع حتى يبايع الناس قال ائتنى بحميل قال لا أرى حميلا قال الأشتر خل عنى أضرب عنقه : قال علىّ دعوه أنا حميله إنك ماعلمت لسيىء الخلق صغيراً وكبيراً : وتخلف من الأنصار جمع منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدرى ومحمد ابن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب ابن عجرة وكان هؤلاء عثمانية يميلون إلى عثمان : وهرب قوم من أهل المدينة إلى الشام ولم يبايعوا عليا ولم يبايعه قدامة بن مظعون وعبد الله بن سلام والمغيرة بن شعبة

وبايعه من عدا هؤلاء من أهل المدينة إلا من فر ولحق بالشام

ترجمة على

هو على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن عبد مناف وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وشقيق والده وأمه فاطمة بنت أسد : ولد قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة ولما أرسل الرسول عليه السلام كان علىّ مراهقا وكان مقيما مع الرسول فى بيته تخفيفاً على أبيه فكان من أوّل من أجاب إلى الاسلام وكان له الشرف العظيم بمبيته موضع الرسول ليلة أن ترك مكة مهاجراً حتى لا يرتاب المترصدون فى وجوده ببيته ثم هاجر بعد أن أدّى الودائع التى أمر أن يسلمها لأهلها وبعد الهجرة زوجه عليه السلام بنته فاطمة وحضر كل مشاهده عليه السلام ماعدا غزوة تبوك فإن الرسول خلفه فيها على أهله وكان له الأثر المحمود والمقام الذى لا يجهل فى جميع الغزوات وكان شجاعا يخوض الغمرات ولا يبالى بشدة وكان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولما لحق الرسول بربه كان على يرى فى نفسه أنه أحق بالخلافة ممن عداه وكان يظن أن الناس لا يعدلون به غيره لما له من شرف القربى والصهر ولكن المسلمين رضوا أبا بكر للخلافة فلم يبايع إلا بعد أن ماتت فاطمة كما قيل ولما عهد أبو بكر لعمر ورضى به المسلمون بايع معهم إلا أنه كان بدون ريب يرى أنه أحق بالأمر من عمر كما كان أحق من أبى بكر وكان فى عهد عمر كالمستشار يستشيره عمر كثيراً فى الأحكام الشرعية ولما عهد عمر إلى الشورى دخل معهم وكان يغلب على ظنه أن تكون الأغلبية له إلا أنها لم تصادفه وصرفت عنه إلى عثمان فرضى وبايع ولم تكن علاقته بعثمان فى آخر حياته حسنة الظاهر حتى أن اسمه استعمل للتغرير بالناس حتى يهيجوا على خليفتهم وحتى خاطبه بعض أهل مصر قائلا إن لم تقم معنا فلم كتبت الينا ولكن تبرأ من أن يكون كتب وحلف على ذلك : ولما انتهى أمر عثمان بويع بالخلافة على نحو ما فصلناه قبل ذلك بعد قتل عثمان بخمس ليال

أوّل خطبة له

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنّ الله عز وجل أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر . الفرائض أدّوها إلى الله سبحانه يؤدّكم

إلى الجنة إنّ الله حرّم حرما غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشدّ بالإخلاص والتوحيد المسلمين والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده إلا بالحق ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب بادروا أمر العامّة وخاصة أحدكم الموت فإنّ الناس أمامكم وإنّ ما من خلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فإنما ينتظر الناس أخراهم اتقوا الله عباده فى عباده وبلاده إنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم . أطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض

ولما أراد علىّ الذهاب إلى بيته قال له السبئية فيما قيل

خذها إليك واحذرن أباحسن ⋄ إنا نمرّ الأمر إمرار الرسن
صولة أقوام كأسداد السفن ⋄ بمشرفيات كغدران اللبن
ونطعن الملك بلين كالشطن ⋄ حتى يمرّن على غير عنن

فقال علىّ وذكر ما كان

إنى عجزت عجزة لا أعتذر ⋄ سوف أكيس بعدها وأستمر
أرفع من ذيلى ما كنت أجر ⋄ وأجمع الأمر الشتيت المنتشر
إن لم يشاغبنى العجول المنتصر ⋄ أو يتركونى والسلاح يبتدر

ولما تمت البيعة جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له إنا قد اشترطنا إقامة الحدود وإنّ هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم فقال لهم إنى لست أجهل ما تعلمون ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعا لقدرة على شىء مما تريدون قالوا لا قال فلا والله فلا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله إنّ هذا الأمر أمر جاهلية وإنّ لهؤلاء القوم مادّة وذلك أنّ الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الأرض من أخذ بها أبداً إنّ الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور : فرقة ترى ما ترون وفرقة ما لا ترون وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق فاهدأوا عنى وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا — واشتدّ على قريش وحال بينهم وبين الخروج وإنما هيجه على ذلك هرب بنى أمية وتفرّق القوم وبعضهم يقول والله إن ازداد الأمر لا قدرنا على انتصار من هؤلاء الأشرار لترك هذا

إلى ما قال على أمثل وبعضهم يقول نقضى الذى علينا ولا نؤخره والله إنّ علياً لمستغن برأيه وأمره عناد لا نراه إلا سيكون على قريش أشدّ من غيره

أوّل أعمال على

رأى علىّ أن يكون أوّل أعماله عزل جميع ولاة عثمان قبل أن تصل إليه بيعة أهل الأمصار وقد حذره عاقبة ذلك المغيرة بن شعبة أوّلا وابن عباس ثانيا فأبى ذلك إباء تاما كأنه قد وقر فى نفسه أنّ هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلوا شيئاً من أمر المسلمين وأنّ الإبقاء على واحد منهم يوما كاملا نقص فى دينه ولو كان الأمر قد استتب وبايعه أهل الأمصار لما كان فى عزل الولاة شىء لأنّ الخليفة هو الذى يعطى الولاة سلطانهم فهو حرّ فى اختيار عماله ولكن هذه السرعة الغريبة لم تفهم مع أنه قبل أن يؤخر الحد على قتلة عثمان حتى يهدأ الناس مع أن هذا حد من حدود الله

فرق العمال على الأمصار فأرسل عثمان بن حنيف إلى البصرة وعمارة بن شهاب إلى الكوفة وعبيد بن عباس إلى اليمن وقيس بن سعد بن عبادة إلى مصر وسهل بن حنيف إلى الشام

فأمّا سهل فإنه خرج حتى أتى تبوك فلقيته خيل فسألوه من أنت فقال أمير على الشام فقالوا إن كان عثمان بعثك فحيهلا بك وإن كان غيره بعثك فارجع قال أوما سمعتم بالذى كان . قالوا بلى فرجع إلى على

وأمّا قيس بن سعد فإنه سار حتى أتى مصر فافترق عليه أهلها فرقا فرقة دخلت فى الجماعة وكانوا معه وفرقة وقفت واعتزلت إلى خربتى وقالوا إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم وإلا فنحن على جديلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا وفرقة قالوا نحن مع علىّ ما لم يقد إخواننا وهم فى ذلك مع الجماعة

وأما عثمان بن حنيف فانه سار حتى البصرة وكان أهلها فرقا كأهل مصر وأما عمارة فانه سار حتى إذا كان بزبالة لقيه طليحة بن خويلد الأسدى وقد كان حين بلغهم خبر عثمان خرج يدعو إلى الطلب بدمه نطلع عليه عمارة فقال له ارجع فإنّ القوم لا يريدون بأميرهم بدلا وإن أبيت ضربت عنقك فرجع عمارة وانطلق عبيدالله بن عباس إلى اليمن فجمع يعلى كل شىء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته إلى مكة فقدمها بالمال

اضطراب الحبل

اضطرب الحبل فى جميع الأمصار الكبرى الإسلامية

ففي الشام كان الأمير معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية . كان أميراً على الشام في عهد عمر وعثمان وكان محبوبا من أهله فلما وفع إليهم مقتل عثمان واستخلاف علي لم يرض أن يدخل في بيعته لأسباب (١) أنه يتهم عليا بشيء من أمر عثمان (٢) أنه آوى قتلته في جيشه (٣) أنه كان بين الرجلين نفور أدى إلى أن عليا يرى من أول واجباته عزل معاوية عن إمارة الشام وليس ذلك من السهل على رجل اعتاد الإمارة والعزة نعم ليس من السهل أن يدخل مختاراً في بيعة نتيجتها إذلاله والاستهانة به وكيف يختار ذلك وهو محاط بجند يفضلونه على أنفسهم ويرونه أليق الإمارة عليهم ولم يرلعليّ بيعة توجب عليه طاعة يضطر إليها اضطراراً

أرسل عليّ إلى معاوية سبرة الجهني يطلب إليه أن يبايع فلما قدم عليه لم يكتب معاوية إليه بشيء ولم يجبه حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان أراد معاوية أن يعلن خلافته فدعا برجل من بني عبس فدفع إليه طوماراً مختوما عنوانه

من معاوية إلى علي

وقال له إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار وارفعه حتى يراه الناس فلما قدم العبسي المدينة في غرة ربيع الأول رفع الطومار كما أمره معاوية وخرج الناس ينظرون فتفرقوا إلى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ثم مضى الرسول حتى دخل إلى علي فسلمه الطومار ففضه فلم يجد فيه شيئا ثم سأل الرسول ماوراءك قال إني تركت قوما لايرضون إلا بالقود قال ممن قال من خيط نفسك وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق فقال علي مني يطلبون دم عثمان ألست موتورا كترة عثمان اللهم إني أبرأ اليك من دم عثمان نجا والله أقتلة عثمان إلا أن يشاء الله ومن الغريب أن عليا لما أمر الرجل بالرجوع منه فأراد السبئية أن يقتلوه فصاح الرجل يال مضر يال قيس الخيل والنبل إني أحلف بالله ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا كم الفحولة والركاب ولم يخلص الرجل إلا بشق الأنفس

أحب الناس أن يعلموا رأى علي في معاوية وانتقاضه ليعرفوا رأيه في قتال أهل القبلة أن يجسر عليه أم ينكل عنه وقد بلغهم أن الحسن بن علي دخل عليه ودعاه إلى القعود وترك الناس فدسوا اليه زياد بن حنظلة التيمي فجلس اليه ساعة ثم قال له عليّ يازياد

تيسر فقال لأى شىء قال تغزو الشام فقال زياد الأناة والرفق أمهل

ومن لا يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل على

متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس فسألوه عما وراءه فقال السيف ثم دعا على ابنه محمدا فأعطاه لواءه وعبأ جنده واستخلف على المدينة قثم بن عباس وأقبل على التهيؤ والتجهز . وبينما هو على ذلك إذ جاءه ماهو أشد عليه من أمر الشام وهو خلاف طلحة والزبير وعائشة ومن الفهم وإنهم توجهوا إلى البصرة : وذلك أن عائشة كانت خرجت من المدينة وعثمان محصور قاصدة الحج وأن تبتعد عن المدينة فى هذه الأوقات وقد علمت وهى بمكة أن عثمان قتل وإنه قد بويع لعلى بعده فخطبت الناس بالمسجد الحرام خطبة هذا نصها (إنّ الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد اهل المدينة اجتمعوا إن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب واستعمال من حدثت سنة وقد استعمل أسنانهم قبله ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهى أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا خلجوا وبادروا بالعدوان ونبا قولهم عن فعلهم فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم والله لو أن الذى اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء)

كان بمكة فى ذلك الوقت عبد الله بن الحضرمى عاملها لعثمان وعبد الله بن عامر قدم من البصرة ويعلى بن أمية قدم من اليمن ثم قدم عليهم من المدينة طلحة والزبير فاجتمعت كلمتهم على أن يأتوا البصرة ويعلنوا المطالبة بدم عثمان والقصاص ممن اشترك فى دمه ثم ساروا فى وجهتهم هذه وكان يصلى بالناس عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وخرج معهم مروان وسائر بنى أمية إلا من خشع منهم ولم يزالوا حتى قاربوا البصرة ولما علم بقدومهم عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل على انتدب رجلين هما عمران ابن حصين وأبو الأسود الدؤلى ليسيرا فيعلما ماذا يريد القوم ولما وصلا استأذنا على

عائشة فأذنت لهما واستخبراها عن قدومها فقالت لهما إن الغوغاء من أهل الأمصار ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا فيه الأحداث وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الأعراض والجلود وأقاموا فى دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدورن على امتناع ولا يأمنون فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا وقرأت لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) ننهض فى الإصلاح ممن أمر الله عز وجل وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الصغير والكبير والذكر والأنثى فهذا أننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره : ثم سأل طلحة ما أقدمك فقال المطالبة بدم عثمان قالا ألم تبايع علياً قال بلى والاج على عنقى وما أستقيل علياً إن هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان وقال لهما مثل ذلك الزبير فعاد الرجلان إلى ابن حنيف فأخبراه فعزم على التهيؤ لمنعهم من البصرة ولم يكن أهلها على رأى واحد فلما قدم جيش عائشة إلى البصرة خرج إليهم من أهلها من هو على رأيهم وخرج ابن حنيف فكان هو ومن معه فى ميسرة المربد ووقف الآخرون فى ميمنته فتكلم طلحة والزبير محرضين على المطالبة بدم عثمان الخليفة المظلوم فكاد يكون بين الفريقين شر فتكلمت عائشة وكانت جهورية يعلو صوتها كثرة كأنه صوت امرأة جليلة وخطبت الناس فى معنى ماجاءت له فافترق أصحاب ابن حنيف فرقتين فرقة قالت صدقت والله وبرت وجاءت بالمعروف وفرقة لم ترضه ولكن لم يحصل بين الفريقين قتال ثم خرج حكيم بن جبلة فأنشب القتال مع جيش عائشة فأشرع هؤلاء رماحهم وأمسكوا ليمسك حكيم ومن معه فلم ينته فاضطروا أن يدافعوا عن أنفسهم حتى حجز بينهم الليل وفى غد ذلك اليوم خرج عثمان وخرج حكيم فقاتلوا إلى أن زال النهار ومنادى عائشة يناشدهم ويدعوهم إلى الكف فيأبون حتى إذا مسهم الشر وعضهم نادوا بالصلح فاصطلحوا على أن يبعثوا رسولا إلى المدينة ويسألوا عن بيعة طلحة والزبير فإن كانا قد بايعا كرها فالأمر أمرهما وإلا فالأمر أمر عثمان ثم أرسلوا رسولا هو كعب بن سور قاضى البصرة فسار حتى أتى المدينة

يوم جمعة فدخل المسجد ونادى ياأهل المدينة إنى رسول أهل البصرة إليكم أأكره هؤلاء القوم هذين الرجلين على بيعة علىّ أم أتيا طائعين فلم يجبه أحد من القوم إلا ما كان من أسامة بن زيد فإنه قام فقال اللهم إنهما لم يبايعا إلا وهما كارهان فوثب عليه سهل بن حنيف والناس وكادوا يأتون عليه لولا أن قام فخلصه من أيديهم صهيب ابن سنان وأبو أيوب الأنصارى فى عدة من الصحابة فيهم محمد بن مسلمة وأخذ بيده صهيب إلى داره وقال أما وسعك ماوسعنا من السكوت وعند ذلك رجع كعب إلى البصرة . وكان على لما علم بخبر كعب كتب إلى عثمان يعجزه ويقول والله ماأكرها على فرقة ولقدأكرها على جماعة وفضل وإن كانا يريدان الخلع فلاعذرلهما وإن كانا يريدان غير ذلك نظرنا ونظرا فلما عاد كعب إلى البصرة وورد الكتاب طالب طلحة والزبير من عثمان أن يخلى لهم الأمر فلم يفعل فهاجوه وأخذوه وقدأمرت عائشة بأن يترك ليسير حيث شاء فترك البصرة وعاد إلى على وكان لحكيم بن جبلة معهم مناوشات قتل فى نهايتها وقتل معه عدد عظيم ممن له شركة فى دم عثمان ثم نادى منادى الزبير وطلحة بالبصرة إلا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا بهم فجىء بهم أذلاء فقتلوا ثم أقام ذلك الجيش بالبصرة وكتبوا بأخبارهم إلى أهل الشام وإلى أهل الكوفة يطلبون اليهم أن يقوموا بمثل ماقاموا هم به . واستمروا منتظرين ماتأتيهم به الأقدار

روى الطبرى عن علقمة بن وقاص الليثى قال لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيت طلحة وأحب المجالس اليه أخلاها وهو ضارب بلحيته على زوره فقلت ياأبا محمد أرى أحب المجالس اليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك إلى زورك ألا كرهت شيئاً فاجلس فقال ياعلقمة بينا نحن يد واحدة على من سوانا صرنا جبلين من حديد يطالب بعضنا بعضا إنه إن كان منى فى عثمان شىء ليس توبتى إلا أن يسفك دمى فى طلب دمه قلت فرد محمد بن طلحة : فإن لك ضيعة وعيالا فالا يك شىء يخلفك فقال ماأحب أن أرى أحداً يخف فى هذا الأمر فأمنعه فأتيت محمد بن طلحة فقلت له لو أقمت فإن حدث به حدث كنت تخلفه فى عياله وضيعته قال ماأحب أن أسأل الرجال عن أمره

المحاضرة التاسعة والعشرون

الجمل ـ صفين

أمر علي

لما بلغ عليا مسير من سار إلى البصرة وهو يتهيأ للشام رأى أن يبدأ بهذا الفتق وكان يحاول أن يدركهم قبل أن يصلوا البصرة فلما وصل الربذة بلغه أنهم فاتوه فبعث إلى أهل الكوفة يطلب اليهم أن ينفروا إلى معاونته على المخالفين له . ولما وصلت الرسل الكوفة جاء الناس إلى أميرهم أبى موسى يستشيرونه فى الأمر فقام فيهم خطيباً وكان آخر خطبته أما إذا كان ما كان فإنها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد خير من القائم والقائم خير من الراكب فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا السيوف وأنصلوا الأسنة واقطعوا الأوتار وآووا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الأمر وتنجلى هذه الفتنة فتكلمت رسل علىّ وأغلظت لأبى موسى القول ولما كان الحسن بن على ممن أرسل فى هذه الوفادة قال لأهل الكوفة ياأيها الناس أجيبوا دعوة أميركم وسيروا إلى إخوانكم فإنه سيوجد لهذا الأمر من ينفر اليه والله لأن يليه أولو النهى أمثل فى العاجلة وخير فى العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ماابتلينا وابتليتم به فسامح الناس وأجابوا ورضوا به وقال لهم الحسن إنى غاد فمن شاء منكم أن يخرج معى على الظهر ومن شاء فليخرج فى الماء فنفر من أهل الكوفة تسعة آلاف أخذ بعضهم البر وأخذ بعضهم الماء وقد قابلته الجنود البرية بذى قار فقال لهم قد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل البصرة فإن يرجعوا فذاك مانريد وإن يلجوا داريناهم بالرفق وبايناهم حتى يبدءونا بظلم ولن ندع أمرا فيه صلاح إلا آثرناه على مافيه الفساد إن شاء الله . ثم إنّ عليا اختار القعقاع بن عمرو للسفارة بينه وبين أهل البصرة فسار حتى أتى عائشة فقال أى أمة ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة قالت أى بنى إصلاح بين الناس : فطلب أن يحضر طلحة والزبير حتى يعرف رأيهما فلما جاء أخبر أن مقصدهما كمقصد عائشة فقال لهما القعقاع ماهذا الإصلاح قالا قتلة عثمان فإنّ هذا إن ترك

كان تركا للقرآن وإن عمل كان إحياء للقرآن فقال قد قتلنا قتلة عثمان من أهل البصرة وأنتم قبل قتلهم أقرب إلى الاستقامة عنكم اليوم قتلتم ستمائة رجل إلا رجلا فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم طلبتم ذاك الذى قلت (حرقوص ابن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على رجل فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون فإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذى حذرتم قربتم به هذا الأمر أعظم مما أراكم تكرهون وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير ولا أرى دواء لهذا الأمر إلا التسكين وإذا سكن اختلجوا فإن أنتم بايعتونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الأمة وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر بعثه الله فى هذه الأمة هزاهز فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم وأيم الله إنى لأقول هذا وأدعوكم إليه وإنى خائف أن لا يتم حتى يأخذ الله من هذه الأمة التى قل متاعها ونزل بها ما نزل فإن هذا الأمر الذى حدث أمر ليس يقدر وليس كالأمور ولا كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل . فقال له القوم أحسنت وأصبت فإن جاء على بمثل ما قلت صلح الأمر فرجع القعقاع إلى على فأخبره فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح . ثم أمر بالرحيل وقال من ضمن خطابه ولا يرتحلن غداً أحداً أعان على عثمان بشيء فى شيء من أمور الناس وليغن السفهاء عنى أنفسهم . فاجتمع نفر من رؤساء المجلبين على عثمان ومعهم ابن السوداء وقال بعضهم لبعض إن اجتمع الناس غداً واصطلحوا فليس الصلح إلا علينا فقال لهم ابن السوداء إن عزكم فى خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر وإذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ويشغل الله علياً وطلحة والزبير عما تكرهون فانفقوا على ذلك والناس لا يشعرون . ولما وصل على إلى البصرة بعث إلى القوم إن كنتم على ما فارقتم القعقاع فكفوا وأقرونا ننزل وننظر فى هذا الأمر فنزلوا والقوم لا يشكون فى الصلح ومشت السفراء بين الفريقين وبات القوم ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل . قام السبئيون فى الغلس ووضعوا السلاح فى عسكر أهل البصرة فسأل طلحة والزبير ماهذا قالوا

أطرقنا أهل الكوفة ليلا فقال قد علمنا أن علياً غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنا وسأل على عن الخبر وكان السبئيون قد وضعوا رجلا قريباً منه يخبره بما يريدون فقال له ماجئنا إلا وقوم منهم بيتونا فرددناهم من حيث جاؤا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس فقال علىّ قد علمت أنّ طلحة والزبير غير منتهين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة وأنهما لن يطاوعانا ولم يجد الفريقان فى ذلك الوقت بدأ من القتال وكانت عائشة فى هودجها بين أهل البصرة وكان ذلك اليوم من أهول مارآه المسلمون فإنهم وقفوا بعضهم أمام بعض وكل يدافع دفاعا دينيا وكان أهل البصرة وشجعانهم يلوذون بجمل عائشة حتى لاتصاب بشرّ فقتل حوله عدد عديد منهم ولا يدور بخلد أحد من الناس أن ينهزم وراجز أهل البصرة يقول :

نحن بنى ضبة أصحاب الجمل　　ننعى ابن عفان بأطراف الأسل
الموت أحلى عندنا من العسل　　ردوا علينا شيخنا ثم بجل

ولما رأى علىّ كثرة القتلى حول الجمل وأن الناس لاتسلمه أبداً وفيهم عين تطرف نادى اعقروا الجمل فجاء الجمل إنسان من خلفه وعقره فسقط وسقط الهودج وكأنه قنفل بما رمى فيه من النبل فجاء محمد بن أبى بكر وعمار بن ياسر فقطعا مرضة الرحل واحتملا الهودج فنجياه من القتلى وخرج بها محمد حتى دخلها البصرة : وقد ترك الناس والضعف ظاهر فيهم الزبير بن العوام وأراد اللحاق بالمدينة فعلم بمسيره عمرو ابن جرموز فأتبعه حتى إذا كان بوادى السباع غافله فقتله

قتل فى هذه الواقعة المنكرة عشرة آلاف من شجعان المسلمين بينهم كثير من أعلامهم منهم طلحة وابنه محمد والزبير (وكاد يقتل ابنه عبد الله) وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وغيرهم من رجالات قريش وسائر العرب

وبعد أن انتهت الموقعة مرّ علىّ بين القتلى فكلما رأى صرعى أهل البصرة وعرفهم قال زعموا أنه إنما خرج معهم السفهاء والغوغاء وهذا فلان وهذا فلان ثم صلى على القتلى وأمر بدفنهم جميعاً . وبعد ذلك زار عائشة فى البيت الذى نزلت فيه فسلم عليها ، وقعد عندها ثم أمر بأن تجهز إلى المدينة فجهزت خير جهاز ولما جاء يوم رحيلها ودّعها بنفسه وقد قالت وسط مشيعيها إنه والله ما كان بينى وبين علىّ فى القديم إلا

مايكون بين المرأة وأحمائها وأنه عندى على معتبتى من الأخيار وقال علىّ أيها الناس صدقت والله وبرت ما كان بينى وبينها إلا ذلك وأنها الزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم فى الدنيا والآخرة وخرجت من البصرة يوم السبت لغرّة رجب سنة ٣٦ وشيعها علىّ أميالا وسرّح بنيه معها يوماً

بعد انتهاء الموقعة أخذ علىّ بيعة أهل البصرة وأمّر عليها عبد الله بن عباس وجعل على الخراج وبيت المال زياد بن أبى سفيان

هكذا انتهت هذه الموقعة التى سهلت على المسلمين فيما بعد أن يقف بعضهم بإزاء بعض محاربين يستحلّ كل دم الآخر بعد أن كان ذلك الموقف فى نظرهم عظيما مهيبا

لا يمكننا أن نبرّر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه فإنّ طلحة والزبير وعائشة خرجوا كما يقولون للمطالبة بدم عثمان الذى سفك حراماً من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك ولا نرى كيف فهموا أنّ ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين إمام يرجع إليه الأمر فى تحقيق هذه القضية وإقامة الحدّ على من يستحقه إنّ إعطاء الحق الأفراد فى أن يتجمعوا لإقامة حدّ قصر الإمام فى إقامته أو اتهم بالهوادة فيه مفسدة للنظام الذى أسس عليه الإسلام وإذا كانوا لا يرون الإمامة على صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين أوّلا للنظر فى أمر الخلافة وإعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك فى إقامة الحد ولكنهم قاموا بصفتهم أفراداً من كبار الأمة ودعوا الناس إلى أمرهم من غير أن يكون لهم إمام يرجعون إليه ولا ندرى كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقتهم وفضلهم ولكنهم يقولون إنّ الفتن إذا أقبلت تشابهت وإذا أدبرت تبينت ولم يكن عند على بن أبى طالب من الأناة ما يمكنه من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع أحسن مما كان حقيقة أنّ أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالأمة خيراً أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه الأمر على الفريقين كليهما ولكن هذا عيب كبير فى قيادة الجيوش أن يكون الرئيس بحيث يمكن فرقه من جيشه أن تعجله عن النظر فيما هو قادم عليه وأنّ من الخطأ العظيم أن يستعين على مثل هذه الفرقة السبئية ويجعلها تأوى إلى جنده فى الوقت الذى يطالب الناس فيه من كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان فإنهم بالضرورة لا يحسن فى نظرهم أن يتفق على ذلك الناس لأنّ الاتفاق إنما يقع على رءوسهم فهم يبذلون كل جهدهم فى تضييق

المسالك على كل من يريد الإصلاح حفظا لأنفسهم على أن مجرد وجودهم في جيشه كاف لأن تحوم الظنون حول اشتراكه في الدم المسفوك وإن كان هو ينكر ذلك إنكاراً تاما وهو عندنا الصادق في قوله والنتيجة أن تبعة هذه الحرب يتحملها كل من الفريقين وتبين للناس أنه لا يكفي لبراءة الإنسان من الفعل أن لا يكون قد فعله بل يجب أن يبتعد عما يحدث الريبة وليس يكفي الرئيس لتقوية مركزه أن يكون عنده من القوة مايغلب به من خرج عليه من قومه بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة والأناة مايعيد الخارج عليه إلى حظيرته والكي لا يكون إلا آخر الدواء

أمر صفين

لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة أمرها إلا مقدمة لما هو أشد منها هولا وأفظع أمراً وهو الحرب في صفين

انصرف علي من البصرة إلى الكوفة فاختار جرير بن عبدالله البجلي ليكون رسولا إلى معاوية بن أبي سفيان يطالب إليه البيعة فشخص جرير إلى دمشق وأنهى إلى معاوية ماجاء له فماطله واستنظره : وكان أهل الشام قد آلى رجالهم أن لا يمسوا النساء ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم والشام مجمع أجناد المسلمين لأنها ثغر عظيم يجاور الأمة الرومية التي لم تزل حافظة لشيء من قوتها فكانت الجنود الإسلامية هناك على غاية الاستعداد . عاشرهم معاوية طويلا وهو الرجل السياسي المحنك فامتلك قلوبهم وصاروا أطوع أمره ما أمرهم ائتمروا به وما نهاهم انتهوا عنه ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن يرفض بيعة علي ويتهمه بالاشتراك في دم عثمان أو على الأقل بحماية قاتليه حتى آواهم إلى جيشه ولم يعمل أي عمل في القصاص منهم فجاء جرير عليا وأخبره بما عليه أهل الشام فلم ير علي إلا المسير والقتال . خرج فعسكر بالنخيلة وبلغ معاوية خروجه إليه بنفسه فخرج إليه بأهل الشام

أخذ علي بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات من الرقة . هناك قدم طلائعه أمامه حتى إذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية فكانت بين الفريقين مناوشات قليلة ثم تحاجزوا ثم تلاحقت جنود علي ومعاوية فعسكرت الطائفتان في سهل صفين وتواقفت الجنود الإسلامية بعضها أمام بعض

اختار علي ثلاثة من رجاله ليذهبوا إلى معاوية يطلبون إليه الطاعة وهم بشير بن عمرو

الأنصارى وسعيد بن قيس الهمدانى وشبث بن ربعى التميمى فساروا حتى دخلوا على معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال يامعاوية إن الدنيا عنك زائلة وإنك راجع إلى الآخرة وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك بما قدمت يداك وإنى أنشدك الله أن لا تفرق جماعة هذه الأمة وتسفك دماءها فقال له معاوية هلا أوصيت صاحبك بذلك فقال إن صاحبى ليس مثلك إن صاحبى أحق البرية كلها بهذا الأمر فى الفضل والدين والسابقة فى الإسلام والقرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم قال فيقول ماذا ؟ قال يأمرك بطاعة الله وإجابة ابن عمك إلى مايدعوك إليه من الحق فإنه أسلم لك فى دنياك وخير لك فى عاقبة أمرك قال معاوية ونطل دم عثمان لا والله لا أفعل ذلك أبداً فقام شبث فقال يامعاوية إنى قد فهمت مارددت : إنه والله لا يخفى علينا ماتغزو وماتطلب إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم إلا قولك قتل إمامكم مظلوما فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أن قد أبطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التى أصبحت تطلب ورب متمنى أمر وطالبه يحول الله عز وجل دونه بقدرته وربما أوتى المتمنى أمنيته وفوق أمنيته والله مالك فى واحدة منهما خير ائن أخطأت ماترجو إنك لشر العرب حالا فى ذلك وائن أصبت وماتمنى لا تصيبه حتى تستحل من ربك صلى النار فاتق الله يامعاوية ودع ماأنت عليه ولا تنازع الأمر أهله : ولم يكن من معاوية جواب على هذه المقالة الشديدة إلا رد شديد وأمره إياهم بالانصراف فأتوا عليا وأخبروه بالخبر

كان القوم جميعا يهابون أن تلتقى جموع الشام بجموع العراق خوفا من الاستئصال والهلاك فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون وعلى هذه الحال كان شأنهم فى ذى الحجة سنة ٣٦ فلما أهل المحرم توادع الفريقان إلى انقضائه طمعاً فى الصلح واختلفت بينهما الرسل فى ذلك فبعث على عدى بن حاتم ويزيد بن قيس الأرحبى وزياد بن خصفة وشبث بن ربعى وهو أحد الرسل فى المرة الأولى وربما كان حمقه سببا فى عدم النجاح لما دخلوا على معاوية بدأ عدى فقال إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع الله عز وجل به كلمتنا وأمتنا ويحقن به الدماء ويؤمن به السبل ويصلح به ذات البين إن ابن عمك سيد المرسلين أفضلها سابقة وأحسنها فى الإسلام أثراً وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم الله بالذى رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك فانته يامعاوية لا يصبك الله وأصحابك يوم مثل الجمل فقال معاوية كأنك إنما جئت متهددا ولم تأت مصلحا هيهات ياعدى كلا والله

إنى لابن حرب مايقعقع لى بالشنان وإنك لمن المجلبين على ابن عفان وإنك لمن قتله وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل هيهات ياعدى قدحلت بالساعد الأشد فقال شبث وزيادة أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب لنا الأمثال دع مالا ينتفع به من القول والفعل وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه — وقال يزيد بن قيس إنا لم نأت إلا لنبلغك مابعثنا به اليك ولنؤدى عنك ماسمعنا منك ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك وأن نذكر ماظننا إنا لنا عليك به حجة وإنك راجع به إلى الألفة والجماعة إنّ صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنه يخفى عليك أنّ أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلى ولن يميل بينك وبينه فاتق الله يامعاوية ولاتخالف عليا فإنا والله مارأينا رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهد فى الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه فقال معاوية أما بعد فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة فأما الجماعة التى دعوتم اليها فمعنا هى وأما الطاعة لصاحبكم فإنا لانراها إنّ صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثأرنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لانرد ذلك عليه أرأيتم قتلة صاحبنا ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم الينا فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة فقال له شبث أيسرك يامعاوية أنك إن مكنت من عمار تقتله فقال وما يمنعنى من ذلك والله لو أمكنت من ابن سمية ماقتلته بعثمان ولكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان فقال شبث لاتصل إلى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الأقوام وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها فقال معاوية إنه لوقد كان ذلك كانت الأرض عليك أضيق ، وبذلك انتهت هذه السفارة التى لم يكن يظن أن تنتهى إلا بمثل ماانتهت اليه لأنه كان من الضرورى أن تكون قاعدة الصلح والدعوة شيئا فى مصلحة كل من الطرفين يتنازل هذا عن شىء وهذا عن شىء حتى يكون صلحا أما هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوابقها مع مافى بعض الداعين من هذه الشدّة التى تفسد القلوب وتباعد مابينها وأرسل معاوية إلى على حبيب ابن مسلمة الفهرى وشرحبيل ابن السمط ومعن بن يزيد والأخنس بن شريق فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال أما بعد فإنّ عثمان بن عفان كان خليفة مهديا يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب إلى أمر الله فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه فادفع الينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم فقال له ماأنت لاأم لك

والعزل وهذا الأمر اسكت فإنك لست هناك ولا بأهل له فقام وقال والله لتريني بحيث تكره فقال علي وما أنت ولو أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك إن أبقيت علي أحقرة وسواء اذهب فصوب وصعد ما بدا لك وقال شرحبيل بن السمط إن كلمتك فلعمري ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي قبل فهل عندك جواب غير الذي أجبت به فقال علي نعم فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايته للناس ثم قبضه الله اليه واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر فأحسنا السيرة وعدلا في الأمة وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ونحن آل رسول الله فغفرنا ذلك لهما وولي عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه فساروا اليه فقتلوه ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم فقالوا لي بايع فأبيت عليهم فقالوا لي بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق الناس فبايعتهم فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الإسلام طليق بن طليق حزب من هذه الأحزاب لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الاسلام كارهين فلا غرو إلا اخلافكم معه وانقيادكم معه وتدعون آل نبيكم الذين لا ينبغي لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً إلا أني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين : فقال له شرحبيل أشهد أن عثمان قتل مظلوما فقال لهما لا أقول أنه قتل مظلوما ولا أنه قتل ظالما قالا فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوما فنحن منه برآء ثم انصرفوا من غير نتيجة وذلك معقول

لما انسلخ المحرم أمر علي من ينادي ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم إني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا اليه واحتججت عليكم بكتاب الله فدعوتكم اليه فلم تناهوا عن طغيان ولم تجيبوا إلى حق وإني قد نبذت اليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ففزع أهل الشام إلى أمرائهم ورؤسائهم وكتبوا كتائبهم وبات الفريقان يشتغلان بتعبئة الجيوش : وفي غد ذلك اليوم وهو يوم الأربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتدأت الحرب من غير أن يقف كل الجمعين وجها لوجه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى إذا مضت سبعة أيام قال علي لجنده ليلة الأربعاء ثامن صفر حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا واتفق معهم على ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفي ذلك يقول كعب بن جعيل التغلبي

أصبحت الأمة فى أمر عجب والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولا صادقا غير كذب إن غداً تهلك أعلام العرب

وفى الصباح زحف على بجنود أهل العراق وزحف له معاوية بجنود أهل الشام وفى ذلك يوم مشؤم لا يزال المسلمون يعدونه شؤما من لدن ذلك الحادث إلى الآن . تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالا شديداً نهارهم كله ثم انصرفوا عند المساء وكل غير غالب ثم أعادوا الكرة فى غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من اليوم الأول وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وانتهت هزيمتهم إلى على فمشى نحو الميسرة فانكشفت عنه مضر فى الميسرة وثبتت ربيعة ومر به فى ذلك الوقت الاشتر النخعى فقال له على ائت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت فلما هب اليهم الاشتر وهيج الناس لخوض الغمرات فتابعوه وكروا معه فأخذ لا يعمد لكتيبة إلا كشفها ولا لجمع إلا حازه ورده ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب ولم يزل الاشتر فى هجمته حتى وصل إلى حرس معاوية وكان معاوية يقول أردت فى هذا الوقت أن أنهزم فذكرت قول ابن الاطنابة

أبت لى عفتى وأبى بلائى وإقدامى على البطل المشيح
وإعطائى على المكروه مالى وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

فمنعنى هذا القول من الفرار : وفى هذا اليوم قتل عمار بن ياسر

ولما أمسى المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديداً طول الليل . ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير يشبهونها بليلة القادسية حتى إذا أصبح عليهم صبح يوم الجمعة أخذ الأشتر يزحف بالميمنة ويقاتل بها ويهيج الناس بقوله وعلى يمده بالرجال لما رأى من ظفره . وبيناهم فى الشدة الشديدة إذا بالمصاحف قد رفعت على رءوس الرماح من قبل أهل الشام وقائل يقول هذا كتاب الله عزوجل بيننا وبينكم من لثغور الشام بعد أهل الشام من لثغور العراق بعد أهل العراق فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا نجيب إلى كتاب الله فقال لهم علىّ ياعباد الله امضوا على حقكم وصدقكم فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبى معيط وحبيب ابن مسلمة وابن أبى سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف

بهم منكم قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم انهم مارفعوها ثم لايرفعونها ولا يعلمون بما فيها ومارفعوها لكم إلا الخديعة ودهاء ومكيدة فقالوا مايسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عزوجل فنأبى أن نقبله وقال مسعر ابن فدكى التميمى وأشباه له من القراء أجب إلى كتاب الله إذادعيت اليه وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان إنه علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عزوجل والله لتفعلنها ولنفعلنها بك : ثم طلبوا منه أن يبعث إلى الأشتر ليترك القتال فأرسل اليه رسولا فقال الأشتر للرسول ليست هذه الساعة التى ينبغى لك أن تزيلنى فيها عن موقفى إنى قد رجوت أن يفتح لى فلا تعجلنى فرجع الرسول بالخبر فما انتهى اليه حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر فقال له القوم والله ماتراك إلا أمرته أن يقاتل ثم قالوا ابعث اليه فليأتك وإلا والله اعتزلناك فقال للرسول ويحك قل للأشتر أقبل فإن الفتنة قد وقعت فلم يسعه إلا المجىء وترك ساحة الحرب ثم أرسل الأشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده فلما ذهب اليه قال له معاوية نرجع نحن وأنتم إلى ماأمر الله فى كتابه تبعثون منكم رجلا ترضونه ونبعث منا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لايعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه فقال له الأشعث هذا الحق ثم رجع إلى على فأخبره فقال الناس رضينا وقبلنا فقال أهل الشام قد اخترنا عمرو بن العاص فقال الأشعث ومن تابعه وإنا قد رضينا أبا موسى الأشعرى فقال على قد عصيتمونى فى أول الأمر فلا تعصونى الآن وبين لهم تخوفه من أبى موسى لأنه كان يخذل الناس عنه فأبوا إلا إياه فاضطر على للسير على مارأوا

المحاضرة الثلاثون

عقد التحكيم - نتائجه - الخوارج

عقد التحكيم

وكتب الفريقان بينهم عقد التحكيم وهذه صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، قاضى على على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين إنا ننزل عند حكم الله عزوجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره وإن كان الله عزوجل بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان فى كتاب الله عزوجل وهما أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشى عملا به وما لم يجدا فى كتاب الله عزوجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة وأخذ الحكمان من على ومعاوية ومن الجندين العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه أنا على ما فى هذه الصحيفة وإنى قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فإن الأمن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرادها فى حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجلا القضاء إلى رمضان وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما وإن توفى أحد الحكمين فان أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألو من أهل المعدلة والقسط وإن مكان قضيتهما الذى يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وإن رضيا وأحب فلا يحصرهما فيه إلا من أراد ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما فى هذه الصحيفة وهم أنصار على من ترك هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلما اللهم إنا نستنصرك على من ترون ما فى هذه الصحيفة » . ويلى ذلك أسماء الشهود من الطرفين -

وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التى قتل فيها من شجعان المسلمين وأنجادهم تسعون ألفاً وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه فى جميع الوقائع الإسلامية من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تاريخها ولولا أن عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور. ومما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول إلى تقرير مبدأ دينى أو رفع حيف حل بالأمة وإنما كانت لنصرة شخص على شخص فشيعة على تنصره لأنه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحق الناس بولاية الأمر وشيعة معاوية تنصره لأنه ولى عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلما ولا يرون أنه ينبغى لهم مبايعة من آوى اليه قتلته

يظهر للمتتبع أخبار مابين على ومعاوية أن الرجلين كانا على تباين تام فعلى يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ماليس لغيره من سائر الناس حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم وزاد به ذلك الفكر حتى كان يرى أن الأشياخ يعلمون ذلك ويغضون عنه وكان يرى فى معاوية انحطاطا هائلا عنه ولماذا ؟ لأنه من الطلقاء وأولاد الطلقاء الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاربوه وربما ظن فيهم أنهم لم يدخلوا فى الاسلام إلا كرها حينما لم يجدوا مناصا من ذلك وإذا كان الرجل يرى أشياخ قريش دونه قدراً ولم يكن يسلم لهم إلا مرغما لأنه لم يجد له أنصاراً فكيف يرى نفسه أمام رجل يظن به ذلك الظن فى وقت بايعه الناس فيه بالخلافة وردوا اليه حقه المسلوب منه وقد وجد أنصاراً يؤيدونه كان إذا تكلم عن معاوية أو كاتبه يظهر من كلامه الاحتقار له والترفع عنه والازدراء برسله وخاطبهم بأشد مايخاطب به إنسان ولا ينظر أن الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الأمة الإسلامية ومثله لاينال إلا بالاناة وشىء من المصانعة والسهولة وهذه أشياء لم ير على أن يتنزل اليها أمام معاوية فانه بدون ريب كان يرى نفسه عظيما من عظماء قريش لأنه ابن شيخها أبى سفيان بن حرب وأكبر ولد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف كما أن علياً أكبر ولد هاشم بن عبد مناف فهما سيان فى الرفعة النسبية ثم كان يرى النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جمعت له الشام كلها وهى أعظم بلدان المسلمين بعد العراق فصارت له تلك الرياسة العظيمة والأثر الصالح فى حماية الثغور الرومية وهو يعلم أن عليا لا ينظر اليه بتلك العين التى كان ينظر له

بها من قبله بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى أن انضمامه إلى على يحطه عن تلك المنزلة السامية التى نالها ومن يدرى ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة وجد أمامه شبهاً تفسح له المجال فى تلك المناوأة (١) أنه لم يستشر فى تلك البيعة وهو من أعاظم قريش ووال من أكبر الولاة تحت أمرته جند من جنود المسلمين لا يقل عن مئتى ألف (٢) أن كثيراً من الصحابة رفضوا بيعة على (٣) أن أول من ندبه للخلافة هم الثائرون على عثمان الذين قتلوه (٤) أنه آواهم فى جيشه ولم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه ممالىء لهم على فعلتهم - كل تلك الشبه جعلته يمتنع عن البيعة ويأخذ لنفسه الحيطة حتى لا يقع فى المذلة والمهان

شخصان ينظر كل منهما إلى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاقهما ولا وصولهما إلى طريق رشاد يخفف عن المسلمين مانزل على رؤوسهم من تلك الفتنة الهائلة ولم يكن مدار مراسلاتهم بالشىء الذى يصح أن يكون قاعدة صلح بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده فعلى كان يطالب مبايعته ولا يزيد وبغير ذلك لا يكون صلح حتى أن رسله التى كان يرسلها من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بلهجة المحتقر المستخف ومعاوية يطالب أولا أن تسلم قتلة عثمان اليه ليقتص منهم ثم يكون الأمر شورى بينهم وكلا الأمرين لا يرضى به على أما قتلة عثمان فلأنه إذا أراد انتزاعهم من جيشه لا يأمن أن يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه وأما الثانية فلأنه لا يترك حقا قد ثبت له بالبيعة التى رآها تمت وليس لأحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف بمثل معاوية فى نفسه أضف إلى ذلك أن فرقة السبئية التى كانت تتخلل جند على لم يكن من مصلحتها أن يكون صلح بين الطرفين فهم لا يسكتون عن حمل الحطب لإشعال نار الفتنة كلما قاربت الخمود ولذلك كان لهذا التحكيم الذى اتفق عليه الطرفان نتيجة من أسوأ النتائج فى جند على

نتائج التحكيم

بعد أن كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده إلى دمشق أمّا جند على فإن الأشعث ابن قيس خرج بكتاب الصلح يقرؤه على الناس ويعرضه عليهم يقرؤنه حتى مر به على طائفة من بنى تميم فيهم عروة بن أدية وهو أخو أبى بلال فقرأه عليهم فقال عروة أتحكمون فى أمر الله الرجال لا حكم إلا لله ثم شدّ بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة

خفيفة فغضب للأشعث قومه من اليمن فمشى رؤساء بنى تميم فتنصلوا إليه واعتذروا فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة

روى الطبرى عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع على إلى صفين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء ما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط يقول الخوارج ياأعداء الله أدهنتم فى أمر الله وحكمتم وقال الآخرون فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا فلما دخل على الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفا ونادى مناديهم أن أمير القتال شبث بن ربعى التميمى (وهذا كان رسول على إلى معاوية وكان يتوقح فى خطابه ويعجب من معاوية كيف لم يبايع علياً وهو سيد المسلمين وابن عم سيد المسلمين إلى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبدالله بن الكواء اليشكرى والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فبعث إليهم على عبدالله بن عباس وقال له لا تعجل فى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك فخرج إليهم ابن عباس فأقبلوا عليه يكلمونه فلم يصبر عليهم بل قال ما نقمتم من الحكمين وقد قال الله عز وجل إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا له أما ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له فهو إليهم كما أمر به - أما ما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم فى الزانى مائة جلدة وفى السارق بقطع يده فليس للعباد أن ينظروا فى هذا قال ابن عباس فإن الله عز وجل يقول يحكم به ذوا عدل منكم فقالوا له أو تجعل الحكم فى الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم فى دماء المسلمين : وقالوا إن هذه الآية بيننا أعدل عندك ابن العاص وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا فإن كان عدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حزبه وقد حكمتم فى أمر الله الرجال وقد أمضى الله حكمه فى معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا وقبل ذلك ما دعوناهم إلى كتاب الله فأبوه ثم كتبتم بينكم وبينه كتابا وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة وقد قطع عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة إلا من أقر بالجزية ثم جاء على فوجد ابن عباس يخاصمهم فقال له انته عن كلامهم ألم أنهك . ثم سألهم ما أخرجكم علينا قالوا حكومتكم يوم صفين فقال أنشدكم الله ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم على رأيى ولما

أبيتم إلاذلك اشترطتم على الحكمين أن يحييا ماأحيا القرآن وأن يميتا ماأمات القرآن فإن حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بمافى القرآن وإن أبيا فنحن من حكمهما براء قالوا له خبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء فقال إنا لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لاينطق إنما يتكلم به الرجال قالوا فخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم قال ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله عز وجل يصلح فى هذه الهدنة هذه الأمة أدخلوا مصركم رحمكم الله. والخوارج يدعون أنهم قالوا إنّ التحكيم كان منا كفراً وقد تبنا إلى الله فتب كما تبنا نبايعك وإلا فنحن مخالفون فبايعهم علىّ وقال ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجبى المال ويسمن الكراع ثم نخرج إلى عدونا فدخلوا على ذلك وتوضيح نظرية هؤلاء القوم أنّ عليا كان إماما بويع بيعة صحيحة فمن امتنع عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغى وهم يرون أنّ مرتكب الكبيرة كافراً فإذاً يكون معاوية بغى على الإمام العدل وحارب الله ورسوله وحينئذ يكون له ولقومه حدّ مقرر فى القرآن والحدود المقررة لامعنى للتحكيم فيها لأنه تغيير للمشروع إن قضى بخلافه. ولما كان معاوية ومن معه يستحقون فى نظرهم هذه العقوبة نصا فاللين معهم ومهادنتهم ادهان فى دين الله وتحكيم للرجال فيما لاحكم فيه إلا لله وهذا فى نظرهم جريمة وفاعلها ضال والضال لايصلح لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلى ولا حرمة لمن اتبعه فلهم أن يقاتلوهم وهم فى نظرهم كجند معاوية سواء بسواء: فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة بعض مقدماتها باطل فلا عجب أن تكون هى أيضا باطلة. أمّا كون جريمة العصيان ومحاربة الله والرسول لها حد مقرر فى كتاب الله فذلك صحيح وأمّا كون معاوية ومن معه بغاة فذلك شىء يحتاج إلى النظر فإن ادعى أنّ له شبها فى نفس إمامة الإمام أهى منعقدة أم لم تنعقد فهذا يصح فيه التحكيم وليس تحكيما للرجال فى دين الله وإنما هو تحكيم فى صحة وصف ينبنى عليه حكم فإن القاضى الذى ترفع إليه قضية سرقة لايطلب منه الاجتهاد فى أنّ السارق تقطع يده أولا تقطع، وإنما يطلب منه الاجتهاد فى معرفة أهذا سارق أم غير سارق فإذا ثبتت له الصفة وجب عليه حتما أن يحكم بقطع اليدفان قالوا إنّ التحكيم من على شك فى إمامته والشاك لا يجوز له أن يسفك الدماء المطالبة بأمر مشكوك فى صحته كان هذا باطلا

أيضـا لأنّ صاحب الحق كثيراً مايتأكد أنّ الحق له فإذا رأى من خصمه إنكاراً أو تمسكا بشـبه فإنه لا طريق أمامه إلا أن يرفع الأمر لقاض أو محـكمين يـكون حكمهما قاطعا انزاع خصمه . وعلى الجملة فإنّ هذه الفئة الجديدة قد بنت أمرها على مقدمات لم تتضح فزادوا الطين بلة وبعد أن كنا أمام فرقتين صرنا الآن أمام ثلاث فرق يستحل بعضها دماء بعض وصار لعلى عدوان والمتتبع لأحوال الخوارج ومقاماتهم فى حروبهم يتأكد أنهم مخدوعون بما ظهر لهم حتى صار عندهم حقيقة من الحقائق التى لاينكرها إلا غاو فى نظرهم وإلا فكيف يؤول فعلهم ؟ كانوا بالأمس يرون فى على أنه أفضل المسلمين وأعلمهم وأفقههم فى الدين واليوم يباينونه هذه المباينة ويرون أنه ضل فى التحكيم ولم يعد يستحق أن يكون خليفة وأنّ كل من تابعه بعيد عن طريق الرشاد .

اجتماع الحكمين

لما حان أجل اجتماع الحكمين بعث على أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانىء الحارثى ومعهم ابن عباس يصلى بهم ويلى أمورهم وأبو موسى الأشعرى معهم وبعث معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل باذرح وكان معاوية إذا كتب إلى عمرو جاء الرسول وذهب لايدرى بما جاء به ولا بما رجع به ولايسأله أهل الشام عن شىء وإذا جاء رسول على جاء أهل العراق إلى ابن عباس فسألوه ما كتب إليك أمير المؤمنين فإن كتمهم ظنوا به الظنون فقالوا ماتراه إلا كتب بكذا وكذا فقال لهم ابن عباس أماتعقلون أماترون رسول معاوية يجىء لايعلم بما جاء به ويرجع لايعلم بما رجع به ولايسمع لهم صياح ولالغط وأنتم عندى كل يوم تظنون الظنون : وشهد هذه الجماعة عبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعبدالله ابن الحارث بن هشام المخزومى والمغيرة بن شعبة وغيرهم

اجتمع الحكمان وبحثا فيما جاء الأجله وهو إصلاح ما بين الناس فتكلم عمرو فقال ألست تعلم أنّ عثمان قتل مظلوما قال أبو موسى أشهد - قال عمرو ألست تعلم أنّ معاوية وآل معاوية أولياؤه - قال بلى - قال عمرو فإنّ الله يقول (ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً) فما يمنعك من معاوية ولى عثمان ياأباموسى وبيته فى قريش كما قد علمت فإن تخوفت أن يقول الناس ولى معاوية وليست له سابقة فإنّ

لك بذلك حجة تقول إنى وجدته ولى عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صحبه فهو أحد الصحابة. ثم عرض له بالسلطان بقوله إن ولى أكرمك كرامة لم يكرمها خليفة فقال أبو موسى يا عمرو اتق الله فأما ماذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف يولاه أهله ولو كان على الشرف لكان هذا الأمر لآل أبرهة بن الصباح إنما هو لأهل الدين والفضل مع أنى لو كنت معطيه أفضل قريش أعطيته على بن أبى طالب وأما قولك إن معاوية ولى دم عثمان فوله هذا الأمر فإنى لم أكن لأوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين وأما تعريضك لى بالسلطان فوالله لو خرج لى من سلطانه كله ما وليته وما كنت لأرتشى فى حكم الله عز وجل ولكنك إن شئت أحيينا اسم عمر بن الخطاب فقال عمرو إن كنت تحب بيعة ابن عمر فما يمنعك من ابنى وأنت تعرف فضله وصلاحه فقال إن ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة. وهذه المناقشة تدل على أنهما قد اتفقا على خلع المتنازعين واختلفا فيمن يخلفهما وحينئذ اتفقا أن يكون الأمر شورى بين الناس يولون من رضوا ولم يبق إلا إعلام الناس بما اتفقا عليه فخرجا وكان عمرو يقدم أبا موسى فى كل كلام فتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع عليه رأيى ورأى عمرو وهو أن نخلع عليا ومعاوية وتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإنى قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا ثم تنحى وأقبل عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه وقال إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية فانه ولى عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه فتنابزا ــ ويروى المسعودى أنهما لم يحصل منهما خطبة وإنما كتبا صحيفة فيها خلع على ومعاوية وإن المسلمين يولون عليهم من أحبوا وهذا القول أقرب فى نظرنا إلى المعقول وإن لهج كثير من المؤرخين تذكر الأول لأن هذه الخطبة على فرض حصولها وإن الخديعة تمت على أبى موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئا لأن الذى ثبته إنما هو حكمه والذى يلزم الأمة بمقتضى الصحيفة إنما هو ما اجتمعا عليه لا ما رضى به أحد الحكمين ولم ينقل أحد أن أبا موسى رضى فى خطابه ببيعة معاوية

ومن الوقت الذى جرى فيه عقد التحكيم وعين الحكمان يشعر الإنسان بأنه لا يؤدى

إلى نتيجة لأن أباموسى كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويحب للمسلمين السلامة ويتمنى لو وصل إلى مايريد من أى طريق يسلكه وقرينه يميل إلى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك فلا يهمه إلا أن يصل إلى مقصوده مهما استعمل فى سبيل ذلك من الخدع ومثل هذين لا يتفقان : قال المغيرة ابن شعبة لبعض من معه من قريش سأعلم لكم علم هذين الرجلين أيتفقان أم يختلفان فدخل على عمرو فقال يا أبا عبد الله أخبرنى عما أسألك عنه كيف ترانا معشر المعتزلة فإنا قد شككنا فى الأمر الذى قد تبين لكم من هذا القتال ورأينا أن نتأنى ونتثبت حتى تجتمع الأمة فقال عمرو أراكم يا معشر المعتزلة خلف الأبرار وأمام الفجار ثم جاء أباموسى فسأله كما سأل عمرا فقال له أراكم أثبت الناس رأيا فيكم بقية المسلمين فانصرف المغيرة إلى أصحابه وقال لهم لا يجتمع هذان على أمر واحد

لم يكن على ليرضى بهذا الحكم الذى تأكد أنه مخالف للكتاب والسنة اللذين عهد إلى الحكمين أن يحكما بهما ورضى به معاوية طبعا لأن أقل مافى الحكم أن ليس لعلى وصار الأمر للناس يولون من شاءوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يفضلون عليه أحدا فزادت آماله فى أن يكون خليفة المسلمين

رأى على أنه لابد له من معاودة الكرة إلى معاوية وأصحابه ولكن عرض له معاودة الخوارج لخروجهم فإنه لما أراد أن يبعث أباموسى كره الخوارج ذلك لأنهم كانوا يظنون أن عليا وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة وجاءه إنسان فقال له إن الناس قد تحدثوا عنك أنك رجعت لهم عن كفرك فخطب الناس فى صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج فعابه فوثبوا من نواحى المسجد يقولون لا حكم إلا لله وعلى يقول كلمة حق أريد بها باطل وعند ذلك اجتمعت الخوارج فى منزل عبد الله بن وهب الراسبى فخطبهم خطبة حثهم فيها على الخروج وقال فى آخر خطابه فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور هذه البلاد أو إلى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة ثم أرادوا أن يولوا أمرهم رجلا فعرضوا الولاية على المتميزين منهم فكلهم يأباها ثم عرضوها على عبدالله بن وهب فقال هاتوها أما والله لا آخذها رغبة فى الدنيا ولا أدعها فرقا من الموت فبايعوه لعشر خلون من شوال ثم اتفقوا أن يخرجوا وحدانا مستخفين حتى يجتمعوا فى جسر النهروان وكتب ابن وهب

للخوارج من أهل البصرة يخبرهم بما تم عليه الأمر ولما خرجت الخوارج جاءت شيعة على اليه فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت وبعد هذا الخروج وعلمه بما فعل أبو موسى خطب أهل الكوفة فقال الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل وأشهد أنّ لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله أما بعد فإنّ المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين وفى هذه الحكومة أمرى ونحلتكم رأيى لو كان لقصير أمر ولكن أبيتم إلا ما أردتم فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن

أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى ۞ فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
فلما عصونى كنت منهم وقد أرى ۞ مكان الهدى أو أننى غير مهتد
وهل أنا إلا من غزية إن غوت ۞ غويت وإن ترشد غزية أرشد

ألا إنّ هذين الرجلين الذين اخترتموهما حكمين قد نبذا القرآن ظهورهما وأحييا ما أمات القرآن واتبع كل منهما هواه لغير هدى من الله حكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا فى حكمهما وكلاهما لم يرشد فبرئ الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين استعدوا وتأهبوا للمسير إلى الشام وأصبحوا فى معسكركم إن شاء الله يوم الإثنين .

وكتب إلى الخوارج يدعوهم إلى المجىء لحرب أهل الشام فكتبوا إليه (أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقد نابذناك على سواء إنّ الله لا يحب الخائنين) فلما قرأ كتابهم أيس منهم وأراد أن يدعهم ويسير إلى الشام فخرج حتى عسكر بالنخيلة ومن هناك كتب إلى ابن عباس يأمره أن يرسل إليه جند البصرة وإلى أمير المدائن يأمره أن يرسل إليه جندها فاجتمع عنده نحو سبعين ألف جندى . هناك بلغه أنّ الناس يقولون لو سار بنا إلى هذه الحرورية فبدأنا بهم فإذا فرغنا منهم توجهنا إلى الشام فقام فيهم خطيبا وبين لهم أنّ قتال أهل الشام أهم فتنادى الناس يا أمير المؤمنين سر بنا إلى ما أحببت : بلغ عليا وهو فى مقامه بالنخيلة أنّ الخوارج اعترضوا الناس وقتلوا منهم فأرسل رسولا ليعلم جلية الخبر فقتلوه ولما جاءه ذلك الخبر قال الناس يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفونا فى أموالنا وعيالنا سر بنا إلى القوم فإذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا إلى عدونا من اهل الشام فلم يجد بدأ من موافقتهم ونادى

بالرحيل فلما وصلهم أرسل إليهم أن ادفعوا إلينا قتلة إخواننا منكم نقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام فلعل الله يقلب قلوبكم و يردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم فبعثوا إليه كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . ولم تنجع فيهم تلك الخطب الرائعة والوصايا العظيمة التى نطق بها وهم يسمعون فرفع راية مع أبي أيوب الأنصارى ونادى من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف إلى الكوفة أو إلى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن إنه لاحاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم فى سفك دمائكم فانصرف منهم جمع وخرج إلى على جمع وبقى مع ابن وهب ٢٨٠٠ من أربعة آلاف فقامت رحى الحرب بين الفريقين وانتهت فى ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من معه ووجدوا من جرحاهم نحواً من ٤٠٠ فأمر بهم على فدفعوا إلى عشائرهم وقال احملوهم معكم فداووهم فإذا برءوا فخذوهم معكم إلى الكوفة ولما تم لعلى الظفر قال للناس توجهوا من فوركم هذا إلى عدوكم فقالوا يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصداً فارجع إلى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا عدة من هلك منا فإنه أوفى لنا على عدونا : فلما نزل النخيلة أمر الناس أن يلزموا عسكرهم ويوطنوا على الجهاد أنفسهم وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا إلى عدوهم فأقاموا هناك أياما ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا إلا رجالا من وجوه الناس قليلا وترك المعسكر خالياً فلما رأى ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه فى المسير وبعد أيام دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم وما الذى ينظرهم فنهم المعتل ومنهم المكروه وأقلهم من نشط : وهو فى كل يوم يأتى عليهم من خطبه الشديدة يحثهم ويستنهضهم فلا يفيد ذلك شيئا وصار فى جند لا يمر ولا يحلى ضعف سلطان أمامهم فى أنفسهم ونضلوا الدعة على تلك الحروب المستطيرة التى كادت تستأصلهم

هذه كانت حال أهل العراق مع إمامهم . أما حال أهل الشام مع إمامهم فكانت على العكس من ذلك جند مطيع وقلوب متحدة وفى هذا كفاية لمن يريد العظائم ولذلك كان شأنه دائما فى علو إلى ما كان يستعين به من الحيل

كان مما يهم معاوية أن يستولى على مصر فإنها متاخمة له وهى مورد رزق عظيم

للجنود فأعمل لذلك الرأى ونجح : كان محمد بن أبى حذيفة بمصر حين مقتل عثمان فضبطها واستولى عليها وافترق عليه أهل مصر فلما تم الأمر لعلى ولى عليها قيس بن سعد بن عبادة وهو من عظماء شيعته وكانت ولايته فى بدء سنة ٣٦ وكان رجلا سياسياً خبيراً بالأمور فاستقامت له الامور بمصر إلا أن فرقة من المصريين اعتزلت بقرية خربتى قد أعظموا قتل عثمان وكان عليهم مسلمة بن مخلد الانصارى فبعث اليهم قيس إنى لا أكرهكم على البيعة وأنا أدعكم وأكف عنكم : كان أثقل شىء على معاوية وجود قيس بمصر مخافة أن يقبل اليه على بأهل العراق ويقبل اليه سعد بأهل مصر فيقع بينهما فكاتبه معاوية ومناه فلما جاءه كتابه أحب أن يدافعه ولا يبدى له أمره ولا يتعجل له حربه فكتب اليه كتابا لا يستبين مراده منه إلا أنه قال له أنا كاف عنك ولن يأتيك من قبلى شىء تكرهه فلما قرأ معاوية كتابه لم يأمن أن يكون ذلك مكايدة فكتب له كتابا آخر يطلب منه التصريح برأيه ولما رأى قيس أن معاوية لا يقبل منه المدافعة والمماطلة أظهر له ذات نفسه وكتب له كتابا جعله ييأس منه واستنبط وجه الحيلة فى إخراجه عن مصر فقال لأهل الشام لا تسبوا قيس بن سعد ولا تدعوا إلى غزوه فإنه لنا شيعة يأتينا كيس نصيحته سراً ألا ترون ما يفعل بأخوانكم الذين عنده بخربتى يجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ويؤمن سربهم ويحسن إلى كل راكب قدم عليه منكم لا يستنكرونه فى شىء وكانت لعلى جواسيس بالشام فبعثوا اليه الخبر فاتهم قيسا وكتب اليه يأمره بقتال أهل خربتى وهم يومئذ عشرة آلاف فأبى قيس أن يقاتلهم وكتب إلى على إنهم وجوه أهل مصر وأشرافهم وأهل الحفاظ منهم وقد رضوا منى أن أؤمن سربهم وأجرى عليهم أرزاقهم وأعطياتهم وقد علمت أن هواهم مع معاوية فلست مكايدهم بأمر أهون على وعليك من الذى أفعل بهم ولو أنى غزوتهم كانوا لى قرناً وهم أسود العرب فذرنى فأنا أعلم بما أدارى منهم - فأبى على إلا قتالهم . أبى قيس أن يقاتلهم وكتب اليه إن كنت تتهمنى فاعزلنى عن عملك وابعث اليه غيرى فعزله وولى على مصر محمد بن أبى بكر فلم يلبث شهراً حتى كتب إلى أولئك المعتزلين يخيرهم بين أمرين الدخول فى طاعته أو الخروج من مصر فبعثوا إليه إنا لا نفعل دعنا حتى ننظر إلى ما تصير إليه أمورنا ولا تعجل بحربنا فأبى عليهم فامتنعوا منه وأخذوا حذرهم فكانت وقعة صفين وهم له هائبون فلما أتاهم خبر معاوية ومن معه من أهل الشام

لعلى وأن عليا ومن معه رجعوا عن أهل الشام اجترءوا على محمد بن أبى بكر وأظهروا له المبارزة فأرسل لهم سريتين الواحدة تلو الأخرى ونصيب كلتيهما الهزيمة وحينئذ اضطرب أمر مصر فلما بلغ ذلك عليا قال مالمصر إلا أحد رجلين صاحبنا الذى عزلناه عنها أو مالك بن الحارث الأشتر وكان قد استعمله على الجزيرة فكتب إليه بعد التحكيم فاستقدمه وولاه مصر وكتب إليه ذلك العهد المعدود من أحسن ما كتب فى العالم: والظاهر أن هذا العهد قد كتب بعد ذلك بأزمان

لم يصل الأشتر إلى مصر بل مات بالقلزم ويقال إنه سم فى شربة عسل بحيلة من معاوية فكتب على إلى محمد بن أبى بكر (أما بعد فقد بلغنى موجدتك من تسريحى الأشتر إلى عملك وإنى لم أفعل ذلك استبطاء لك فى الجهاد ولا ازدياداً منى لك فى الجد ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لوليتك ماهو أيسر عليك فى المؤنة وأعجب إليك ولاية منه: إن الرجل الذى كنت وليته مصر كان لنا نصيحا وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه رضوان فرضى الله عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ماولاك أعاننا الله وإياك على مالاينال إلا برحمته)

كان معاوية فى ذلك الوقت قد قوى بنتيجة التحكيم وبايعه أهل الشام بالخلافة فلم يكن له هم إلا مصر فرأى أن يستعين بمن بها ممن ساءهم قتل عثمان فكتب إلى مسلمة ابن مخلد ومعاوية بن خديج يقويهما ويمنيهما فكتبا إليه يخبر من معهما وأنهم ممتنعون وأن ابن أبى بكر هائب لهم وطلبا المدد فجهز إلى مصر عمرو بن العاص فى ستة آلاف رجل فأقبل حتى نزل أدانى أرض مصر فاجتمعت عليه العثمانية وكتب إلى ابن أبى بكر (أما بعد فتنح عنى بدمك ياابن أبى بكر فإنى لا أحب أن يصيبك منى ظفر إن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك وندموا على اتباعك فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فإنى لك من الناصحين) فكتب محمد إلى على يعلمه بذلك ويطلب منه مدداً

أقبل ابن العاص مريداً مصر فخرج إليه محمداً فى ألفى رجل يقدمهم كنانة بن بشير فلم يحتملوا هجمة الجنود الشامية ومن مالأهم من جنود مصر فقتل من قتل وفر

الباقون واختفى محمد بن أبى بكر فأقبل عمرو حتى نزل الفسطاط وخرج معاوية بن خديج يطلب محمداً حتى ظفر به فقتله ويقال إنه أحرقه بالنار بعد ذلك أما على فلم ينجح فى إخراج الجنود لإغاثة مصر إلا بعد شدة حيث انتدب له ألفان ولكنهم لم يسيروا إلا قليلا حتى بلغ عليا ما كان فأرسل إليهم من ردهم من الطريق وحزن كثيراً على ابن أبى بكر

وكانت مصر لمعاوية قوة كبيرة ولم يكفه الاستيلاء عليها بل رأى أن يجهز البعوث لأطراف على ينتقصها فأرسل النعمان بن بشير إلى عين التمر وبها مالك بن كعب مسلحة لعلى فكتب إلى على يستمده فأمر الناس أن ينهضوا اليه فتثاقلوا فخطب فيهم هذه الخطبة . يا أهل الكوفة كلما سمعتم بمنسر من مناسر أهل الشام أظلكم انجحر كل امرئ منكم فى بيته وأغلق بابه انجحار الضب فى جحره والضبع فى وجارها المغرور من غررتموه ولمن فاز منكم فاز بالسهم أوخيب لا أحرار عند النداء ولا اخوان ثقة عند النجاء إنا لله وإنا اليه راجعون ماذا منيت بكم عمى لا تبصرون وبكم لا تنطقون وصم لا تسمعون إنا لله وإنا اليه راجعون

ووجه معاوية بن أبى سفيان بن عوف فى ستة الا ف للاغارة على هيت والإنبار والمدائن فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحدا ثم أتى الإنبار وبها مسلحة لعلى فغلبهم على أمرهم واحتملوا ما بها من الأموال وعادوا إلى معاوية فخرج على فى طلبهم فلم يلحقهم

ووجه عبدالله بن مسعدة إلى تيماء ، وأمره أن يصدق من مر به من أهل البوادى وأن يقتل من امتنع ثم يأتى مكة والمدينة فوجه له على جيشا يقدمه المسيب بن نجية الفزارى فلحق ابن مسعدة بتيماء فاقتتلوا قتالا شديدا وانتهى الأمر بأن سهل لهم المسيب طريق الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش

ووجه الضحاك بن قيس للإغارة على بوادى البصرة فأغار عليها ووجه بسر بن أرطاة فى ثلاثة آلاف إلى الحجاز واليمن فسار حتى أتى المدينة وامتلكها وبايع أهلها لمعاوية ثم أتى مكة فبايع أهلها كذلك ثم ذهب إلى اليمن وكان واليها عبيد الله ابن عباس لعلى فلما علم بمسير بسر اليه فر إلى الكوفة حتى أتى عليا واستخلف على صنعاء فجاء بسر واستولى على اليمن وقتل ابنين صغيرين لعبيد الله وكان بسر عسوفا أسرف فى قتل من رآه من شيعة على

هكذا كانت الحال فى تلك الأزمنة الثقيلة التى كانت إلى الفوضى أقرب

ومن أغرب مايروى أنّ ابن عباس وهو الساعد الأشد لعلى فارقه وترك البصرة التى كانت قد ولاه عليها وجاء مكة لأنّ عليا اتهمه بمال أخذه من مال المسلمين

المحاضرة الحادية والثلاثون

مقتل على — بيت على — صفته وأخلاقه — الحسن بن على — مدنية الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين — الخلافة — القضاء — الجند — الخراج والصدقات والعشور — النقود — الحج — الصلاة — العلم والتعليم

مقتل على

اجتمع ثلاثة نفر من الخوارج وهم عبدالرحمن بن ملجم والبرك بن عبدالله وعمرو بن بكر التميمى فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئا إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لايخافون فى الله لومة لائم فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا فقال ابن ملجم أنا أكفينكم على بن أبى طالب وقال البرك أنا أكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر وأنا أكفيكم عمرو بن العاص فتعاهدوا وتواثقوا بالله لاينكص رجل منا عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة تخلو من رمضان سنة ٤٠ أن يثب كل على صاحبه الذى توجه إليه وأقبل كل رجل منهم على المصر الذى فيه صاحبه . فأما ابن ملجم المرادى وكان عداده فى كندة فخرج حتى أتى الكوفة ولم يخبر من بها من إخوانه شيئا كراهة أن يظهر وكان بالكوفة جماعة من تيم الرباب قتل منهم على يوم النهر عشرة وفيهم امرأة يقال لها قطام ابنة الشجنة قتل على أباها وأخاها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أذهلته عما جاء له فخطبها فقالت لاأتزوجك حتى تشفى لى قال وما يشفيك قالت ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل على بن أبى طالب قال هو لك مهر أما على فلم أرك ذكرته لى وأنت

تريدينى قالت بل ألتمس غرته فإن أصبت شفيت نفسك ونفسى ويهنئك العيش معى وإن قتلت فما عند الله خير وأبقى من الدنيا وزينتها وزينة أهلها فقال لها والله ما جئت هذا المصر إلا لذلك ثم اختارت له مساعداً من قومها واختار هو مساعداً آخر ولما كانت ليلة الجمعة ١٥ رمضان سنة ٤٠ ترصدوا له حتى خرج يريد صلاة الصبح فضربه ابن ملجم فى قرنه بالسيف وهو ينادى الحكم لله لا لك ولا لأصحابك ففزع الذين كانوا بالمسجد للصلاة وعلى يقول لا يفوتنكم الرجل فشد عليه الناس من كل جانب وأخذوه ودخل الناس على على فقالوا له إن فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن فقال ما آمركم ولا أنها كم أنتم أبصر ثم أوصى أولاده وفى يوم الأحد ١٧ رمضان توفى بعد أن مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياما قضاها فى هذا العناء وشدة الجهد ودفن بالكوفة التى كانت حاضرة خلافته

أما البرك بن عبدالله فانه قعد لمعاوية فى ذلك اليوم الذى ضرب فيه على فلما خرج معاوية شد عليه بالسيف فوقع السيف فى أليته ودوى من الضربة وأمر عند ذلك بعمل المقصورة وحرس الليل وقيام الشرط على رأسه إذا سجد . وأمّا عمرو ابن بكر فجلس لعمرو بن العاص فى تلك الليلة فلم يخرج لأنه كان شاكيا وصلى بدله خارجة بن حذافة وكان صاحب شرطته فشدّ عليه الخارجى فقتله وهو يظن أنه عمرو فقالوا أراد عمرا وأراد الله خارجة

بيت على

تزوّج علىّ بن أبى طالب

(١) فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى أوّل زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى

(٢) أمّ البنين بنت حزام من بنى عامر بن كلاب فولدت له العباس وجعفراً وعبد الله وعثمان

(٣) ليلى بنت مسعود التميمية فولدت له عبد الله وأبا بكر

(٤) أسماء بنت عميس الخثعمية فولدت له يحيى ومحمداً الأصغر

(٥) الصهباء بنت ربيعة من بنى جشم بن بكر وهى أمّ ولد من سبى تغلب فولدت له عمر ورقية (٦) أمامة بنت أبى العاص بن الربيع وأمّها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فولدت له محمدا الأوسط

(٧) خولة بنت جعفر الحنفية فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية

(٨) أمّ سعيد بنت عروة بن مسعود فولدت له أمّ الحسين ورملة الكبرى

(٩) محياة بنت امرئ القيس الكلبية ولدت له جارية ماتت صغيرة

وكان له بنات من أمّهات شتى منهنّ أمّ هانىء وميمونة وزينب الصغرى ورملة الصغرى وأمّ كلثوم الصغرى وفاطمة وأمامة وخديجة وأمّ الكرام وأمّ سلمة وأمّ جعفر وجمانة ونفيسة وأمّهاتهنّ أمّهات أولاد شتى وكان النسل من ولده الخمسة الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية والعباس وعمر

صفة علي وأخلاقه

يخطر ببال من فحص تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل أحوالهم هذا السؤال كيف دانت قريش لشيخين أوّلهما من بنى تيم بن كعب والثانى من بنى عدى وخضعت لهما الخضوع التام فسار القوم بقلب واحد فى سبيل نصرة الإسلام وعلو شأنه حتى إذا آلت لبنى عبد مناف وولبها اثنان منهم نغصت على أوّلهما حياته فى آخره ولم يصف الأمر لثانيهما فى جميع حياته بل كانت مدّة اختلاف وفرقة مع ماهو معلوم من قرب بنى عبد مناف للرسول صلى الله عليه وسلم فهم عشيرته الأدنون وسادة قريش فى جاهليتهم كما سادوا عليهم فى الإسلام ذلك إلى ماامتاز به ثانيهما من المميزات الكبرى التى لم تجتمع فى غيره . لابدّ لذلك من أسباب : أما ما كان من أمر عثمان فقد بينا أسبابه فيما مضى وأما أمر على فإنا سنجيب عنه الآن ببيان ما كان من خلق على وما كان من الظروف التى أحاطت به

كان على ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره وهى

الشجاعة — الفقه — الفصاحة

فأما الشجاعة فقد كان محله منها لايجهل . وقف المواقف المعهودة وخاض غمرات الموت لايبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه وأوّل ماعرف من شجاعته بياته موضع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة وهو يعلم أنّ قوما يترصدونه حتى إذا خرج يقتلونه فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه أو يؤثر فى نفسه ثم فى بدر وما بعدها من المشاهد كان علماً لايخفى مكانه يبارز الأقران فلايقفون له ويفرّق الجماعات بشدّة

هجانه وقد آتاه الله من قوة العضل وثبات الجنان القسط الأوفر أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة حتى إذا جاءت خلافته جرده على مخالفيه فعمل به الأفاعيل وكان الناس يهابون موافقته ويخشون مبارزته لما يعلمون من شدة صولته وقوة ضربته

وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه بالمجهول صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ صبوته وأخذ عنه القرآن وكان يكتب له مع ما أوتيه من ذكاء بني عبد مناف ثم بني هاشم ولم يزل معه إلى أن توفى عليه السلام كل هذا أكسبه قوة في استنباط الأحكام الدينية فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه في الأحكام ويرجعون إلى رأيه إذا خالفهم في بعض الأحيان وأكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب

وأما الفصاحة فيعرف مقداره فيها من خطبه ومكاتباته التي جمع منها السيد المرتضى جملة عظيمة في الكتاب الموسوم بنهج البلاغة وقد وصفه شارحه الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله :

كنت كلما انتقلت من موضع منه إلى موضع أحس بتغيير المشاهد وتحول المعاهد فتارة كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية في حلل من العبارات الزاهية تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية توحي إليها رشادها وتقوم منها مرادها وتنفر بها عن مداحض المزال إلى جواد الفضل والكمال

وطوراً كانت تتكشف لي الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح في أشباح النمور ومخالب النسور وقد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب فخلبت القلوب عن هواها وأخذت الخواطر دون مرعاها واغتالت فاسد الأهواء وباطل الآراء :

وأحيانا كنت أشهد أن عقلا نورانيا لا يشبه خلقا جسدانياً فصل عن الموكب الإلهي واتصل بالروح الإنساني فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به إلى الملكوت الأعلى ونما به إلى مشهد النور الأجلى وسكن به إلى جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس

وآنات كأني أسمع خطيب الحكمة ينادي بأعلياء الكلمة وأولياء أمر الأمة يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراب ويرشدهم إلى دقائق السياسة ويهديهم طرق الكياسة ويرتفع بهم إلى منصات الرياسة ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم على حسن المصير

وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئاً كثيراً

هذه الصفات العالية مع ما منحه من شرف القرابة للرسول صلى الله عليه وسلم ومصاهرته له جعلته يرى لنفسه فضلا على سائر قريش صغيرها وكبيرها شيخها وفتاها ويرى بذلك له الحق فى ولاية الأمر دونهم فقد قال لقد تقمصها فلان وهو يعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى ينحدر عنى السيل ولا يرقى إلى الطير . وقال فوالله مازلت مدفوعا عن حق مستأثراً على منذ قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم حتى يوم الناس هذا وهناك طبيعة ثابتة فى الناس أنهم لا يميلون إلى شخص يرى لنفسه التفوق ومزيد الفضل وإنما يقرب إلى قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم جعله ما يراه لنفسه يقتنع أن الحق فيما يراه وافقه عليه غيره أم خالفه ومن هذا شأنه لا يلجأ إلى الاستشارة فيما هو صانع وهذا شىء شديد لا تقبله أنفس الكبراء والأشياخ . روى أنه لما بويع عتب عليه طلحة والزبير من ترك مشورتهما والاستعانة فى الأمور بهما فقال لهما لقد نقمتما يسيراً وأرجأتما كثيراً الا تخبرانى أى شىء لكما فيه حق دفعتكما عنه وأى قسم استأثرت عليكما به أم أى حق أرفعه إلى أحد من المسلمين ضعفت عنه أم جهلته أم أخطأت بابه والله ما كانت لى فى الخلافة رغبة ولا فى الولاية أربة ولكنكم دعوتمونى اليها وحملتمونى عليها فلما أفضت إلى نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته وما استسن النبى صلى الله عليه وسلم فاقتديته فلم أحتج فى ذلك إلى رأيكما ولا رأى غيركما ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخوانى المسلمين ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة فإنّ ذلك لم أحكم أنا فيه برأيى ولا وليته هوى منى بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فرغ منه فلم أحتج اليكما قد فرغ الله من قسمه وأمضى حكمه فليس لكما والله عندى ولا لغيركما فى هذا عتبى أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق وألهمنا وإياكم الصبر . وأى نفس تصبر على مثل هذا

لما رفعت قضية عبيد الله بن عمر فى قتله الهرمزان إلى عثمان كان من رأى على قتله ولكن عثمان قضى بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزمها فى ماله وهو خليفة قضاؤه محترم صوابا كان أم خطأ فلما آل الأمر إلى على كان يريد قتل عبيد الله بعد أن مضى على القضية تلك المدة الطويلة فلم يكن من عبيد الله إلا أن لحق بمعاوية وكان من قواده العظام بصفين . كانت لعثمان قطائع أقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأى على

فقال بعد خلافته والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته فإن في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق : بويع وولاة الأمصار من علية قريش وذوى الرأى والدهاء فيها فأشار عليه مشيروه أن لا يعجل بنزعهم من أمصارهم حتى يتم أمره فلم يسمع لأحد قولا بل عجل بنزعهم وأظهر سوء الرأى فيهم حتى خيل اليهم أنه لو ملك عليهم كانت مصيبة كبرى فناوءوه وكانوا عليه يداً واحدة أراد فى هذه الظروف أن يحمل الناس على مثل حد السيف مع ماسبق لهم من مضادة الخليفة وثقتهم فى أنفسهم أنه لولاهم ما بويع فلم يحتملوا ذلك له حتى قالوا ارض التحكيم وإلا فعلنا بك مافعلنا بعثمان : ولما ولى ابن عباس على البصرة نظر بعضهم إلى بعض وقالوا قثم بن العباس على الحجاز وعبيدالله بن العباس على اليمن وعبد الله بن عباس على البصرة ففيم قتلنا ابن عفان وكانت سآمته منهم وسآمتهم منه تزداد كل يوم حتى لم يكن له على أنفسهم سلطان يدعوهم فلا يجيبون ويستصرخهم فلا يفزعون وجيش خصمه قاده كبراء قريش وعظماؤها فأرهقوهم بالطاعة وملكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن لهاتين الطائفتين توازن عند الخصومة كان معاوية يتساهل بعض الشىء لرءوس أجناده ويفيض عليهم من العطاء مايجعل رقابهم خاضعة له وعلى يحاسبهم على النقير والقطمير فى وقت هو محتاج اليهم حتى كان شىء من ذلك سببا فى تغير قلب ابن عباس عليه وفرقته له فترك البصرة وذهب إلى مكة . ليس شأن على فى ذلك شأن عمر فإن عمر كان يشتد على عماله والأمة كلها معه وأما على فكان معظم الأمة عليه فضلا عن أن كثيرا من التهم كانت تلصق بعماله من قوم يشون بهم كالحال فى قيس بن سعد وعبدالله ابن عباس . وعلى الجملة فإن أكبر الأسباب فى عدم استقامة الأمر لعلى يرجع إلى عقيدته فى نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغنائه عن رأى الأشياخ من قريش وشدته عليهم شدة لم يعهدها ما يهون أمرها وعدم إعطائه الظروف التى كان فيها حقها من السياسة

الحسن بن على

كان من رأى جند على أن يبايعوا الحسن بن على بالخلافة بعد قتل أبيه فبايعوه ولكن الرجل نظر إلى الظروف التى هو فيها نظرة صائبة وجد جندا لا يركن اليه وخصما قوى الشكيمة وفوق ذلك كان يكره الفتن ويحب للمسلمين الألفة فلم ير خيرا لنفسه

ولالأمته من أن يتنازل لمعاوية وصالحه على شروط رضيها الطرفان وكتب إلى معاوية ببيعته وسلم اليه الكوفة فى أواخر ربيع الأول سنة ٤١ وبذلك تم ماقاله رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّ ابنى هذا سيد ولعلّ الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين . وهدأت الأحوال وسمى المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والأربعون من الهجرة عام الجماعة

مدنية الإسلام فى عهد الخلفاء الراشدين

اصطلح المؤرخون على تسمية الدولة الأولى من دول الإسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدّتها تقرب من ثلاثين سنة ونحن الآن ذاكرون شيئا من المدنية الإسلامية أو العربية لعهدهم ونريد بالمدنية مجموع النظام الذى اتبعوه فى أحوالهم الاجتماعية سواء فى إدارة أمورهم الداخلية أو فى حروبهم

الخلافة

أول ما كان لهم من مظاهر المدنية تأسيس الخلافة الإسلامية وكان الرئيس يسمى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء ثانى الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين ثم مازال مستعملا لقبا لجميع من أتى بعده من الخلفاء وهذه الخلافة رياسة دنيوية أساسها الدين وغايتها حمل الناس على مافيه صلاحهم متبعا فى ذلك نصوص الكتاب وماعرف من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر مالم يخالف النصوص أو الشريعة الإسلامية وكان أساس التشريع فى زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فإن عرض لهم ماليس فيهما عرفوا الأشباه والأمثال وقاسوا مالانص فيه على مافيه نص لما بينهما من التشابه . وكان الخليفة فى الاجتهاد والاستنباط كأحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم فإن اتفقوا فى الفتوى كان من المحتم عليه أن يتبع رأيهم وهذا مايسمى فى عرف المسلمين بالإجماع وإن اختلفوا فى الفتيا عمل الخليفة بما يرى من آرائهم فلم يكن له سلطان دينى أكثر من أنه منفذ لأحكام الدين فليست الخلافة فيما نرى سلطانا دينياً كما يزعمون وإنما هى سلطان أساسه الدين

لم يكن فى تلك الدولة للخلافة أسرة معينة بل كان يختار الخليفة من أى أسرة من أسر قريش والخلفاء الأربعة من ثلاث أسر فأبو بكر من بنى تيم وعمر من بنى عدى وعثمان وعلى من بنى عبدمناف : وكان أساس الانتخاب الشورى فالخلافة من جهة

كونها لاتتعين لها أسرة وصاحبها يتعين بالانتخاب ومقيد فيما يعمل بالقانون الشرعى تشبه رياسة الجمهورية وتمتاز الخلافة بأنها مختصة بالبيت القرشى

وكانت الناس تبايع الخليفة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وزادوا فى بيعة عثمان وسنة الشيخين أبى بكر وعمر وحذفت هذه الزيادة فى بيعة على لأنه أباها لما عرض عليه الأمر عبد الرحمن بن عوف وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الأمور أو أنهم لم يكونوا على درجة واحدة فى ذلك وكان أكثرهم اهتماما بالشورى عمر بن الخطاب فإنه كان قلما يقدم على أمر إلا بعد أن يستشير ويمحص الآراء وكانت له شورى خاصة من أعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والأنصار ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وعلى بن أبى طالب ومن ماثلهم وكان يلحق بهم عبد الله بن عباس لما يراه من فقهه وجودة رأيه : وشورى عامة من كل من له رأى من المسلمين يعرض عليهم الأمر فى المسجد بعد أن يدعو (للصلاة جامعة) فيقول كل مابداله وربما استشار بعد ذلك خاصته . وكان كثيراً مايرجع عن رأيه متى تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه . ورجال الشورى كانوا مختارين من قبله إلا أنه لم يكن أحد يمنع من إبداء رأيه مهما كان صاحب الرأى صغير القدر لأنّ حياتهم كانت مبنية على المساواة

ولم يكن ينقص هذا النظام البديع إلا شىء واحد وهو تعيين من لهم الصوت فى انتخاب الخلفاء بوصف يبينهم لأنّ عدم هذا التعيين كان سبباً من أسباب الفرقة بين على ومعاوية لأنّ علياً كان يرى أنّ هذا الحق لأهل المدينة وحدهم لايشركهم فى ذلك أهل الأمصار الأخرى فتى بايع أهل المدينة لواحد تمت بيعته وليس لأحد بعد ذلك اعتراض ومعاوية ومن معه من أهل الشام كانوا يرون غير ذلك وأنّ البيعة لاتتم إلا برضا أهل الأمصار فكانت تلك الفرقة الهائلة وتلتها الحروب العظيمة بين المسلمين. لم يكن للخلافة فى هذه الدولة شىء من شارات الملك ولا أبهته بل كان الخليفة يسير فى طريقه وفى بيته كسائر الناس لاحاجب ولا حارس يقف للصغير والكبير وكان عمر يكره أن يكون لعماله حجاب حتى أنه أرسل لسعد بن أبى وقاص من أحرق باب دار الإمارة الذى حال بين العامة وبين رفع شكواهم إليه

القضاء

كان القضاء معتبراً من عمل الخليفة لأنّ معناه فصل الخصومات والمنازعات على حسب القانون الشرعى المأخوذ من الكتاب والسنة فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بأنفسهم ويستفتون فى الحكم إن كانت هناك حاجة إلى الاستفتاء : ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح واضطر الخلفاء للاشتغال بالجيوش وتدبيرها فوضوا هذا العمل إلى من فى مكنتهم الاستنباط ولكنهم لم يتسموا باسم القضاة إلا من عهد عمر بن الخطاب فإنه بعث قضاة إلى الأمصار ووضع لهم أنموذجا يسيرون عليه واستمر الحال على ذلك إلى آخر عهد الخلفاء الراشدين : ومن أعظم ما كان لأولئك القضاة من الفخر شرفهم واستقلالهم فى الحكم فلم يعرف عن أحد منهم فى ذلك العصر ميل إلى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به وكان سواء فى نظرهم الشريف والوضيع والخليفة والرعية ولم يكن لأمراء الأمصار سلطان عليهم فى قضائهم وكان تعيينهم من الخليفة رأسا وأحيانا يكتب الخليفة إلى الأمير أن يولى فلانا قضاء بلده وعلى الحالين التعيين صادر من الخليفة : وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منه ومن أحسن ما رأينا فى أمر القضاة ما كتبه على بن أبى طالب إلى أحد عماله ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر من الفىء إلى الحق إذا عرفه ولا يشرف نفسه على طمع ولا يكتفى بأدنى فهم إلى أقصاه أوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له فى البذل ما يزيل عليه وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك)

وكان فى كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الأحكام كان يستعين بهم القاضى ويستفتيهم إذا أشكل عليه أمر وأهم ما كان يدعوهم إلى ذلك أنّ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن مجموعة فى كتاب بل كانت فى صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءاً والثانى جزءا وقد لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر فربما عرضت للقاضى مسألة

فلا يرى فيها نصاً ويكون النص وهو الحديث عنده غيره وبذلك كانوا يسألون هل عندكم شيء فى هذا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يجمعوا هذه الفتاوى ولا الأقضية فى كتاب خاص يرجع إليه من بعدهم وكان ماذكرناه من أمر السنة سبباً كبيراً من أسباب اختلافهم فى الفتاوى والأقضية

لم يكن القاضى فى أحكامه موكولا إلى الاجتهاد الصرف كما يظن بعض الباحثين ويجعل ذلك من عيوب القضاء وإنما كان موكولا إلى الاجتهاد فى فهم القانون الشرعى وتطبيقه على الحوادث والواقعات حقيقة أن ذلك القانون لم يعتن بالتفصيل التام بل اهتم بالقواعد الكلية وليس هذا عيبا فى القوانين التى يراد منها البقاء بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان

الاجتهاد للقاضى والحال ماذكرنا أمر لابد منه ولذلك أعده المتقدمون من الشروط المتحتمة

لم يكن تعيين القضاة مانعا الخلفاء من نظر أى خصومة تعرض عليهم وقد حصل ذلك من الخلفاء فى آنات كثيرة فكأن القضاة كانوا نوابا للخلفاء

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها مايصدر من الأحكام ولا أن صور الأحكام كانت تعطى للمحكوم له لأن ذلك لم يكن مايدعو إليه مادام التنفيذ فى يد القاضى فهو الذى يقضى وهو الذى ينفذ الحكم ويظهر لنا مما قرأنا من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون للتنفيذ لأن من حكم عليه كان يبادر بتنفيذ ماقضى عليه به من الحقوق فكان المتنازعون أقرب إلى كونهم مستفتين

ويظهر لنا أن قضاء القضاة فى عهد الخلفاء الراشدين كان قاصراً على فصل الخصومات المدنية أما القصاص والحدود فكانت ترجع إلى الخلفاء وولاة الأمصار لأنا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والأمراء بقتل قصاصا أو جلد بسكر ولم يبلغنا أن قاضيا ليس أميراً قضى بعقوبة منها أو نفذها وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لا يأمر بها إلا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة : ولم يبلغنا أيضا أن قضاة الأمصار كانوا ينيبون عنهم قضاة فى غير الحواضر الكبرى وذلك كله دليل على قلة القضايا والخصومات

قيادة الجيوش

كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقود

الجنود بنفسه ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسلة إلى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائداً للجيش ممن يرون فيه النجدة والشجاعة وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء وبعد انتهاء الفتح واستقرار الأمن يكون سلطانهم قاصراً على تدبير أمر الجنود والنظر فى معدانهم ولم تكن هذه الجنود محصورة فى ديوان إلا من عهد عمر بن الخطاب فهو الذى دون لهم الدواوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر منهم عن وجهه وكان يعاقب المتأخر بأن يقام فى مسجد حيه ويقال إن هذا تخلف : وهذا التوبيخ كان فى نظرهم أمض من ضربة السيف لما هو معروف عنهم من الشجاعة والإقدام ويرون فى الإحجام عاراً لا يمحى وكما حصرهم عمر رتب لهم الأرزاق من بيت المال ولم يكن قبل ذلك لهم رزق معين إلا أنه لم يسو بين الجنود فى العطاء وقد سوى بينهم على بن أبى طالب وكان لكل جند عرفاء يلون أمور الجند ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم

أما تعبئة الجيوش فقد نالوا منها حظاً عظيماً فبعد أن كانت العرب تحارب فى جاهليتها بطريقة الكر والفر وهى أن يكر المحارب على خصمه ثم يفر ويكر وهكذا لا يتبعون فى ذلك نظاماً رأى قواد الجنود من المسلمين أن هذا النظام لا يصلح معه حروب الأمم المنظمة فربطوا مسير الجنود بعضهم ببعض حتى يكون الصف متضامناً وليس لأحدهم أن يتأخر عن صفه أو يتقدم عنه وكان للجيش مقدمة تكون فى الأمام وهى التى تبدأ المناوشات وتتعرف الطريق وترتاد المواضع وقلب وهو وسط الجيش وفيه أمير الجند ومجنبتان يمنى ويسرى أو جناحان وساقة ولكل فرقة أمير يأتمر بأمر القائد وكانوا يجعلون على الفرسان خاصة أميراً وكان لهم الشأن العظيم فى الاحتفاظ بخطوط رجعتهم حتى لا يؤتوا من خلفهم وكانوا يحذرون من البيات جهدهم

ومن أحسن ما اطلعت عليه من الأوامر الخاصة بتسيير الجنود ما كتبه عمر ابن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص من كتاب له فى ذلك حيث يقول (وترفق بالمسلمين فى سيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينتقص من قوتهم فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا

يدخلها من أصحابك إلا من تثق به ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً فإنّ لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيراً ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح . وإذا وطئت أرض عدوك فاذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك من أمرهم شيء وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه فإنّ الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك فى بعضه والغاش عين عليك وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم واختر للطلائع أهل البأس والرأى من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فإن لقوا عدوّا كان أوّل ما تلقاهم القوة واجعل أهل السرايا من أهل الجهاد والصبر على الجلاد ولا تخص أحداً بهوى فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعث طليعة ولا سرية فى وجه تتخوّف فيه غلبة أو ضيعة ونكاية فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وأجمع إليك مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم بالمناجزة مالم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوّك ومقاتله وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها فتصنع بعدوّك كصنعه بك ثم اذك حراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك الخ)

الخراج وجبايته

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالا مستقلين عن العمال والقوّاد وقليلا ما كانوا يكلون أمر الجباية إلى العمال وكانوا يدفعون مما يجبون أرزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة مما تقتضيه المصالح العامة والباقى يرسل إلى دار الخلافة ليصرف فى مصارفه

وكانت هناك إيرادات ثابتة أو عادية أو إيرادات غير ثابتة : أما الأولى فهى الخراج والعشر والصدقات والجزية

والخراج هو ما كان يوضع على الأراضى التى امتلكها المسلمون عنوة وتركوها فى أيدى أهلها يؤخذ منهم كأنه أجرة للأرض التى أبقيت فى أيديهم وكانوا يجعلونه أحيانا شيئاً مقدّراً كما جعل عمر فى السواد وأحيانا يجعلونه حصة شائعة مما يخرج من الأرض أما الأراضى التى أسلم أهلها عليها وهى من أرض العرب أو العجم كالمدينة واليمن أو ملكها

المسلمون عنوة وأهلها لاتقبل منهم الجزية كعبدة الأوثان من العرب فهذه أرض عشر ومثلها الاراضى التى امتلكها المسلمون عنوة وقسمت بين الغانمين : والعشر هو عشر مايخرج من الأرض

وكان عمر لما فتح السواد والشام شاور الناس فى قسمة الأرضين التى فتحها المسلمون فتكلم فيها قوم وأرادوا أن يقسم لهم حقوقهم ومافتحوا فقال عمر فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ماهذا برأى فقال عبد الرحمن بن عوف فما الرأى ماالأرض والعلوج إلا مما أفاء الله عليهم فقال عمر ماهو إلا ماتقول ولست أرى ذلك والله لايفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل بل عسى أن يكون كلا على المسلمين فإذاقسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق فأكثروا على عمر وقالوا تقف ماأفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولابناء القوم ولابناء أبنائهم ولم يحضروا فكان عمر لايزيد على أن يقول هذا رأيى قالوا فاستشر فاستشار المهاجرين الأولين فاختلفوا فأماعبد الرحمن بن عوف فكان رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ورأى عثمان وعلى وطلحة وابن عمر رأى عمر فأرسل إلى عشرة من الأنصار وخمسة من الأوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بماهوأهله ثم قال إنى لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا معى فيما حملت من أموركم فإنى واحد كأحدكم وأنتم اليوم تفرقون بالحق خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى . معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ماأريد به إلا الحق قالوا قل نسمع ياأمير المؤمنين قال قدسمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلما لئن كنت ظلمتهم شيئا هولهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى وقدغنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم فقسمت ماغنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا فى توجيهه وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتى من بعدهم : أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها أرأيتم هذه

المدن العظام كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر لابدّ لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم فمن أين يعطى هؤلاء إذاقسمت الأرضون والعلوج فقالوا جميعاً الرأى رأيك فنعما قلت ومارأيت إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم ماينفقون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم : فقال قد بان لى الأمر فمن رجل له جزالة وعقل يضع الأرض مواضعها ويضع على العلوج مايحتملون فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثه إلى أهم ذلك فإن له بصراً وعقلا وتجربة فأرسل اليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فأدت جباية سواد الكوفة قبل أن يموت عمر بعام مئة ألف ألف درهم وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال

وأرادوا منه أن يقسم الشام كما قسم الرسول خيبر وكان أشدّ الناس عليه فى ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبى رباح فقال عمر إذاً أترك من بعدكم من المسلمين لاشىء لهم : وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين

قال أبو يوسف القاضى والذى رأى عمر من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها توفيقا من الله كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم لأن هذا لو لم يكن موقوفا على الناس فى الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة والمرتزقة

ولم يكن مقدار الخراج معروفا تماما فى عهد الخلفاء الراشدين

والجزية ما كان يوضع على رؤس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدوّ عنهم ولم يكونوا يأخذونها من المسكين الذى يتصدق عليه ولا ممن لاقدرة له على العمل

روى أبو يوسف القاضى فى كتابه الموسوم بالخراج ص ٧٢ قال مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل يسأل شيخ كبير ضرير البصر فضرب عضده من خلفه وقال من أى أهل الكتاب أنت فقال يهودى قال فما ألجأك إلى ما أرى قال أسأل الجزية والحاجة والسن قال فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشىء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال انظر هذا وضرباءه فوالله ماأنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم إنما الصدقات للفقراء والمساكين والفقراء هم المسلمون

وهذا من المساكين من أهل الكتاب ووضع عنه الجزية وعن ضربائه

وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحول الناس ويسارهم لاتزيدعن ٤٨ درهما في السنة ولاتنقص عن اثنى عشر . روى أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من ظلم معاهدا أوكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه . وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم

الصدقات

كانت الصدقات تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم نعمهم السائمة الإبل والبقر والغنم ونقودهم الدرهم والدينار ومايخرج من أرضهم وقد بينت الشريعة لكل ذلك نصابا معينا لاتجب الزكاة فيما دونه وقدرا معينا لايؤخذ فوقه بين ذلك في كتاب كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته وعمل به المسلمون بعده وكانوا يعينون لأهل البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الإمام في مصارفها الشرعية

العشور (الجمارك)

كان تجار من المسلمين يذهبون بتجارتهم إلى ديار الحرب فيتقاضى منهم أهل البلاد عشر أموالهم فكتب أبو موسى الأشعرى إلى عمر أن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب اليهم عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة ربع العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما وليس فيما دون المئتين شيء فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه

وروى أبو يوسف القاضى أن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشاروا عليه به فكان أول من عشر أهل الحرب

وبعث زياد بن حدير على عشور العراق والشام ومما يستطرف من خبره أن رجلا من نصارى تغلب مر عليه بفرس قومت بعشرين ألفاً فأخذ منه ألفاً ثم مر عليه راجعا في سنته فقال أعطنى ألفا أخرى فقال له التغلبي كلما مررت بك تأخذ مني ألفا قال نعم فرجع التغلبي إلى عمر فوافاه بمكة وهو في بيت فاستأذن عليه فقال من أنت قال

رجل من نصارى العرب وقصّ عليه قصته فقال عمر (كفيت) ولم يزد على ذلك فرجع التغلبي إلى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا أخرى فوجد كتاب عمر قد سبقه إليه من مر عليك فاخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا إلى مثل ذلك اليوم من قابل إلا أن تجد فضلا فقال الرجل قد والله كانت نفسى طيبة أن أعطيك ألفا وإنى أشهد أنى على دين الرجل الذى بعث إليك الكتاب

قد اتبع المسلمون عمر فى تعشير أموال التجارة التى ترد من خارج البلاد الإسلامية إلى بلاد المسلمين : قال أنس بن سيرين أرادوا أن يستعملونى على عشور الإبلة فأبيت فلقينى أنس بن مالك فقال ما يمنعك فقلت العشور أخبث ما عمل عليه الإنسان قال فقال لى لا تفعل عمر صنعه فجعل على أهل الإسلام ربع العشر وعلى أهل الذمة نصف العشر وعلى المشركين ممن ليس له ذمة الشرك

ولم يريدوا أن يأخذوا من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليهم من الزكاة وضاعفوا ذلك على أهل الذمة كما فعلوا مع نصارى تغلب من العرب وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسلمين فى بلدانهم

وليس عندنا علم بمجموع ما كان يرد فى السنة إلى بيت المال ولا بتقدير ما كان يصرف إلا أنهم لم يكونوا يتركون فى بيت المال وفراً وكان لبيت المال خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة

أما الغنائم فكانت تقسم أربعة أخماسها على الغانمين والخمس الباقى يرد إلى بيت المال ليصرف فى مصارفه

النقود

كان العرب قبل الإسلام يتعاملون بنقود كسرى وفارس من الذهب والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة بهم لأنها تتبع المدنية والحضارة وكانت الأمة العربية تغلب عليها إذ ذاك البداوة ولما جاء الإسلام لم يتغير هذا التعامل بل سار على تلك الحال مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر فلما افتتحت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم رأى عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لأنه نظر فرأى الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الوزن فمنها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطا ومنها درهم وزنه اثنا عشر قيراطا ودرهم وزنه عشرة قراريط

فأخذ عمر جميع هذه الأوزان الثلاثة وهى ٢٤ قيراطا وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطا من قراريط المثقال وضرب الدراهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لأن كل منها ـ ١٤٠ فصارت النسبة بين الدراهم والمثقال كنسبة ١٠ : ٧ نقل المرحوم على مبارك باشا فى خططه عن المقريزى قال وفى سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد فى بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله وفى بعضها لا إله إلا الله وحده وعلى أخرى عمر وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل فلما بويع عثمان ضرب فى خلافته دراهم ونقشها الله أكبر

الحج

كان من الأعمال الكبرى لإمام المسلمين إقامة حجهم وكان الحج معتبراً فى نظر الخلفاء الراشدين موسما عاما يجتمع فيه أمراء الجهات ليدلوا إلى الخليفة بما عندهم من الأحوال فى بلادهم ولتسمع شكوى من يشكوهم من رعيتهم وكان الخلفاء يلونه بأنفسهم وقلما يتخلفون وكان أكثرهم توليا لأمر الحج بنفسه عمر بن الخطاب حج سنيه كلها لم يتخلف أبداً إلا أنه حصل خلاف فى السنة الأولى من حكمه فقيل إنه أناب عنه عبد الرحمن بن عوف . وأبو بكر حج بنفسه مرة وأناب عنه مرة وعثمان حج معظم سنيه وعلى أناب عنه كل سنى خلافته لما شغل به من الاضطراب الذى كان بينه وبين معاوية

كان هذا الاهتمام بأمر الحج قد جعل له مظهراً عظيما وفائدة كبرى فى تعارف المسلمين بعضهم ببعض وأن الخلفاء يجيئهم من الأخبار مالا يمكن أن يكون بواسطة الولاة

الصلاة

كانت إقامة الصلاة من أعمال الخليفة فهو الذى يقيمها بنفسه أو بواسطة نائبه وكان فى كل مصر مسجد جامع واحد تؤدى به الجمعة ولا ينصب منبر فى غيره فلم تكن تقام إلا جمعة واحدة فى المصر يقيمها الخليفة إن كان أو الوالى ولم يبلغنا أنه تعددت المنابر فى البلد الواحد فى عهد الخلفاء الراشدين

العلم والتعليم

كانت الكتابة قبل مجىء الإسلام نادرة فى الأمة العربية خصوصا الحجاز ونجد فلما جاء الإسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب . ففى زمن رسول الله صلى الله

عليه وسلم استخدم جماعة من فقراء أسرى بدر فى أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وكان ذلك فداءه . ولما افتتحت البلاد الفارسية وكان بالحيرة كثير ممن يكتبون جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة وكان أكثر النشء الذى نشأ فى عهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابة . أما الخلفاء أنفسهم فكانوا كلهم من الكتاب قبل الهجرة وقد كتبوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم

ولم يكتب شىء من الكتب فى ذلك العهد إلا القرآن فإنه جمع فى صحف فى عهد أبى بكر وفى عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة أرسل بها إلى الأمصار ليكون كل مصحف إماما لأهل المصر الذى أرسل إليه . أما سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تجمع فى كتاب . وكذلك لم يكتب شىء فى العلوم . أما الدينية منها فكانوا مكتفين بما فطروا عليه من معرفة اللغة العربية وفهم أساليبها والشريعة إنما جاءتهم بهذه اللغة فكانوا يستقلون بفهمها وأما العلوم الصناعية فإن الأمة كانت لاتزال فيها على بداوتها وإن كان قد نبغ منها من أمكنهم إنشاء المدن ومسح الأراضى بالمران على ذلك لا بتعلم سابق

المحاضرة الثانية والثلاثون

الدولة الأموية — معاوية وترجمته — انتخابه
حال الأمة حين انتخابه

الدولة الأموية

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيداً من سادات قريش فى الجاهلية يعادل فى الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف وكانا يتنافسان رياسة قريش وكان أمية رجلا تاجراً كثير المال أعقب كثيراً من الأولاد والمال وكثرة العصبة كانا فى الجاهلية من أكبر أسباب السيادة بعد شرف النسب وكان لأمية عشرة من الأولاد كلهم ساد وشرف فمنهم العنابس وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمرو ومنهم الأعياص وهم العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص وقد كان

حرب بن أمية قائد قريش كلها يوم الفجار وهو الذى تحمل الديات فى ماله حينما دعا الناس إلى الصلح فى ذلك اليوم رهن لسدادها ولده أبا سفيان : وكان حرب يسمر مع عبد المطلب بن هاشم وقددامت الألفة بينهماطويلا وأبوسفيان كان صديقا للعباس بن عبدالمطلب فلم يكن هذان البطان متعاديين فى الجاهلية كما يظنه بعض من لايدقق فى المسائل التاريخية وإنما كان يظهر فى بعض الأحيان شيء من التنافس الضرورى وجوده فى الأحيان المتقاربة وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى ولم يكن هذان البطنان مختلفين فيما به الشرف فى الجاهلية الأولى بل كان كل منهما قد أخذ منه قسطاً وافراً

لما جاءت النبوة ودعا رسول الله الناس إلى الله أجابه من بنى عبد شمس جمع كما أجابه من بنى هاشم وعاداه كثير من هؤلاء كما صدّ عنه كثير من أولئك إلا أنّ بنى هاشم وبنى المطلب حدبا على رسول الله للعصبية القومية العربية حيث حماه أبو طالب كبير بيته . وكان يزاحم بنى عبد مناف فى الشرف بيوت قرشية أخرى كآل مخزوم وآل أسد بن عبد العزى بن قصى

ولما ائتمر المشركون على اغتيال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان المؤتمرون من جميع قبائل قريش إلا أنه لم يكن فيهم من بنى هاشم إلا أبو لهب : جاءت الحروب الإسلامية والمشاهد الكبرى النبوية من بدر فما بعدها ولم ينل حظ الوقوف بجانب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا عدد قليل من بنى عبد شمس وكان القائد الأكبر لقريش فى بدر من بنى عبد شمس بن عبد مناف وهو عتبة بن ربيعة ورئيسهم فى أحد والأحزاب أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ولم يزل الأمر على ذلك حتى تأذن الله بفتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة وكان أبو سفيان رجلا عظيما فى نفسه ذا شرف يخشى على قومه أن تصيبهم مهانة أو مذلة ويتبع تلك الصفة غالبا محبة الفخر والذكر فأنهى العباس ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه الرسول فى ذلك اليوم تأليفاً له وتحبباً إليه مالم يعطه أحداً وهو أن أمر منادياً ينادى بمكة من أغمد سيفه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن فسوّى بين بيته وبين بيت الله وهذا شرف عظيم لم ينل أحد مثله الآن وفى ذلك اليوم أسلم معظم المتأخرين عن الإسلام من رجالات قريش وذوى النجدة فيها وكانوا يسمون مشيخة الفتح . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرّ الناس بإسلامهم وكان يقابلهم قائما فاتحاً ذراعيه معانقا لهم كما فعل بصفوان بن أمية

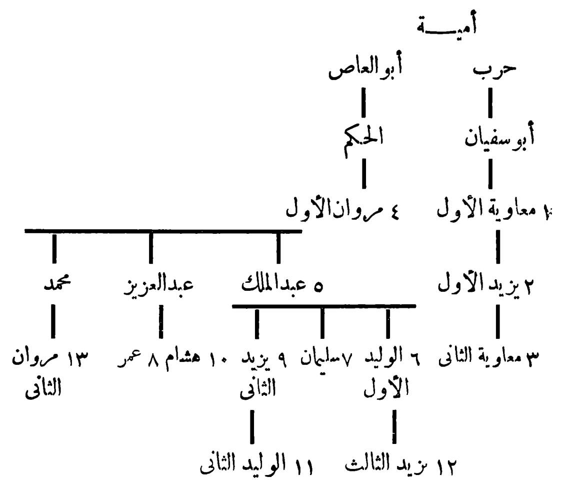
والحارث بن هشام وغيرهم ولم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عفوه عنهم سيكون عيباً لاحتمابهم يعيرون به فى مستقبل أيامهم

وبعد انتهاء فتح مكة ولى عليها شابا من بنى عبد شمس . استعمل أبو بكر مشيخة الفتح ومن لم تلحقهم أعمالهم بالسابقين فى حروب الردة فأبلوا فيها بلاء عظيما وأغنوا غناء حسنا ثم سير بهم إلى ثغور الشام وكانوا كلهم فى شوق إلى وقائع يقضون فيها الواجب الذى عليهم للإسلام حتى يكتب لهم فى نصرته ما يمحو ما كتب عليهم فى مغاضبته

وممن اشتهر غناؤهم وعظم ذكرهم يزيد بن أبى سفيان فقد كان ولاه أبو بكر قيادة أحد الجنود الأربعة التى توجهت لفتوح الشام وكان الوالى على دمشق لعمر بن الخطاب وكان أخوه معاوية عاملا على إحدى الجهات الشامية فلما مات يزيد استعمل عمر على عمله أخاه معاوية مضافا إلى ما كان له قبل من العمل وكان عمر يحس منه بحسن السياسة وقوة التدبير والأمانة وهذا كل ما كان يطلب عمر من عماله : وفى عهد عثمان جمعت الشام كلها لمعاوية فصار واليها العام ويولى على الكور عمالا من قبله . ونزل هناك العدد الطيب من قريش ومن بنى عبد شمس فساسوا الجنود وأرهقوها بالطاعة

وعلى الجملة فإن بيت عبد شمس انتقل من سيادة فى الجاهلية إلى سيادة فى الإسلام وقد قال عليه السلام (الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا) فاتصلت له السيادتان

وفروعه التى كانت فيها الشهرة والخلافة اثنان فرع حرب بن أمية وفرع أبى العاص ابن أمية وكان من الفرع الأول ثلاثة خلفاء ومن الثانى عشرة على الشكل الآتى :



فقد تولى من الفرع الأول ثلاثة خلفاء ومن الثانى عشرة ومدّة خلافة هذه الدولة تبتدئ من اليوم الذى بويع فيه معاوية بيعة عامة فى ٢٥ ربيع سنة ٤١ وتنتهى بمقتل مروان الثانى بن محمد سنة ١٣٢ لثلاث بقين من ذى الحجة وهى ٩١ سنة وتسعة أشهر

١ — معاوية بن أبى سفيان

ترجمته

هو معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد بمكة قبل الهجرة بخمس عشرة سنة وفى يوم الفتح كان سنه ٢٣ سنة وفى ذلك اليوم دخل فى الإسلام مع من أسلم من مسلمة الفتح وكان بعد إسلامه يكتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى خلافة أبى بكر ولاه قيادة جيش مدداً لأخيه يزيد بن أبى سفيان وأمره أن يلحق به فكان غازيا تحت إمرة أخيه وكان على مقدمته فى فتح مدن صيدا وعرقه وجبيل وبيروت وهى سواحل دمشق ثم ولاه عمر ولاية الأردن : ولما توفى يزيد فى طاعون عمواس ولاه عمر بن الخطاب عمل يزيد على دمشق وما معها . وفى عهد

عثمان جمع لمعاوية الشام كلها فكان ولاة أمصارها تحت أمره وما زال والياً حتى استشهد عثمان بن عفان وبويع على بالمدينة فرأى أن لا يبايعه لأنه اتهمه بالهوادة فى أمر عثمان وإيواء قتلته فى جيشه وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان وكان وراء ذلك أن حاربه على بن أبى طالب فى صفين وانتهت الموقعة بينهما بالتحكيم كما مر ذكره فلما اجتمع الحكمان واتفقا على خلع على ومعاوية من الخلافة وأن يكون أمر المسلمين شورى ينتخبون لهم من يصلح لامامتهم بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فصار معاوية إمام أهل الشام وعلىّ إمام أهل العراق ومازال الخلاف محتدما بينهما حتى قتل على ابن أبى طالب وسلم ابنه الحسن بن على الخلافة إلى معاوية وحينئذ اجتمع على بيعة معاوية أهل العراق والشام وسمى ذلك العام الحادى والأربعون من الهجرة عام الجماعة لاتفاق كلمة المسلمين بعد الفرقة وبذلك يكون ابتداء خلافة معاوية الخلافة العامة فى ربيع الأول سنة ٤١

طريقة انتخاب معاوية

لم ينتخب معاوية للخلافة انتخابا عاما يعنى من جميع أهل الحل والعقد من المسلمين وإنما انتخبه أهل الشام للخلافة بعد صدور حكم الحكمين ولا يعتبره التاريخ بذلك خليفة . فلما قتل وبايع جند العراق ابنه الحسن رأى من مصلحة المسلمين أن يبايع معاوية ويسلم الأمر إليه فبايعه فى ربيع الأول سنة ٤١ فبيعته اختيار من أهل الشام وبطريق الغلبة والقهر من أهل العراق إلا أنها انتهت فى الآخر بالرضا عن معاوية والتسليم له من جميع الأمة ماعدا الخوارج

حال الأمة عند استلام معاوية الأمر

تولى معاوية أمر الأمة وهى أقسام ثلاثة القسم الأول شيعة بنى أمية من أهل الشام ومن غيرهم فى سائر الأمصار الاسلامية . القسم الثانى شيعة على بن أبى طالب وهم الذين كانوا يحبونه ويرون أنه أحق بالأمر من معاوية وغيره وأن أعقابه أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم ومعظم هؤلاء كان ببلاد العراق وقليل منهم بمصر : القسم الثالث الخوارج وهم أعداء الفريقين يستحلون دماء مخالفيهم ويرونهم مارقين من الدين وهم أشداء الشكيمة متفانون فيما يعتقدون يرون أن أول واجب عليهم قتال معاوية ومن تبعه وقتال شيعة علىّ لأن كلا قد ألحد على زعمهم فى الدين ومع

مابينهما وهم من هذا التباين كانت أمة متمتعة بصفة الشجاعة والاقدام ومثل هذه الأمة تحتاج لسياسة حكيمة فى إدارة شؤنها وإفاضة ثوب الأمن عليها : أما معاوية نفسه فلم يكن أحد أوفر منه يداً فى السياسة صانع رءوس العرب وقروم مضر بالإغضاء والاحتمال والصبر على الأذى والمكروه وكانت غايته فى الحلم لاتدرك وعصابته فيه لاتنزع ومرقاته فيه تزل عنها الأقدام

كان الذى يهم معاوية ويقلقه أمر الخوارج لأنهم قوم قلما ينفع معهم حسن السياسة لأنهم قوم غلوا فى الدين غلواً عظيما وفهموا كثيراً منه على غير وجهه ففرقوا كلمة الأمة ورأوا من واجبهم استعراض الانفس وأخذ الأموال ولنبدأ بذكر أخبارهم لبيان تفاصيل أحوالهم

لما بويع معاوية بالكوفة كان فروة بن نوفل الأشجعى معتزلا فى ٥٠٠ من الخوارج فرأوا أن الوقت قد حان لتجريد السيف فأقبلوا حتى نزلوا النخيلة فأرسل اليهم معاوية جمعاً من أهل الشام فانهزم أهل الشام أمامهم فقال معاوية لأهل الكوفة والله لا أمان لكم عندى حتى تكفونيهم فخرج اليهم أهل الكوفة فقال لهم الخوارج أليس معاوية عدونا وعدوكم دعونا حتى نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم عدوكم وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا فقالوا لابدلنا من قتالكم فأخذت أشجع صاحبهم فروة قهراً وأدخلوه الكوفة فولى الخوارج عليهم عبدالله بن أبى الحوساء الطائى فقاتلهم أهل الكوفة فقتلوهم وكان ابن أبى الحوساء قد خوف بالصلب فقال

ما إن أبالى إذا أرواحنا قبضت * ماذا فعلتم بأوصال وأبشار
تجرى المجرة والنسران عن قدر * والشمس والقمر السارى بمقدار
وقد علمت وخير القول أنفعه * أن السعيد الذى ينجو من النار

فلما قتل ابن الحوساء ولى الخوارج أمرهم حوثرة الاسدى فسار حتى قدم النخيلة فى ١٥٠ وانضم إليه فل ابن الحوساء وهم قليل فقال معاوية لأبى حوثرة اكفنى أمر ابنك فصار إليه أبوه فدعاه إلى الرجوع فأبى فأداره فصمم فقال له يابنىّ أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن إليه فقال ياأبت أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق منى إلى ابنى فرجع إلى معاوية فأخبره فقال ياأباحوثرة عتا هذا جداً ولما نظر حوثرة إلى أهل الكوفة قال ياأعداء الله أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا

سلطانه واليوم تقاتلون مع معاوية لتشدوا سلطانه فخرج إليه أبوه فدعاه إلى البراز فقال يا أبت لك فى غيرى مندوحة ولى فى غيرك مذهب عنك ثم حمل على القوم وهو يقول

اكرر على هذى الجموع حوثرة * فعن قليل ماتنال المغفرة

فحمل عليه رجل من طيء فقتله فرأى أثر السجود وقد لوح جبهته فندم على قتله . ثم توالت الخوارج حتى أخافوا بلاد العراق فرأى معاوية أنه لابد من تولية العراق رجالا ذوى قدرة وحكمة يأخذون على أيدى السفهاء ويشتدون فى طلب المريب فاختار رجلين كلاهما قد عرف بالسياسة وحسن الرأى وهما زياد بن سمية والمغيرة بن شعبة

فأما زياد فقد كان من شيعة على وكان والياً له على فارس وقتل على وهو بها فذكر معاوية اعتصامه بفارس وأهمه ذلك فجعل المغيرة وسيطاً فى استقدامه فأتى المغيرة زياداً وقال له إن معاوية استخفه الوجل حتى بعثنى إليك ولم يكن أحد يمد يده إلى هذا الأمر غير الحسن وقد بايع فخذ لنفسك قبل التوطين فيستغنى عنك معاوية فقال زياد أشر على وارم الغرض الأقصى فإن المستشار مؤتمن فقال له المغيرة أرى أن تصل حبلك بحبله وتشخص إليه ويقضى الله : وكتب إليه معاوية بأمانه بعد عودة المغيرة فخرج زياد من فارس حتى أتى معاوية فسأله عن أموال فارس فأخبره بما أنفق منها وبما حمل إلى على وبما بقى عنده فصدقه معاوية وقبض منه مابقى عنده

وفى سنة ٤٤ استلحق معاوية زياداً ألحقه بأبى سفيان لاعتراف كان من أبى سفيان بذلك شهد به جمع وكان معاوية قد كتب إلى زياد فى حياة على يعرض له بولادة أبى سفيان إياه فلما علم بذلك على كتب إلى زياد يقول له (إنى وليتك ما وليتك وأنا أراك له أهلا وقد كانت من أبى سفيان فلتة من أمانى الباطل وكذب النفس لاتوجب له ميراثاً ولا تحل له نسبا وأن معاوية يأتى الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذر ثم احذر والسلام) فلما قتل علىّ رأى معاوية أن يستميل زياداً واستصفى مودته باستلحاقه فكان يقال له بعد ذلك زياد بن أبى سفيان وإن كان كثير من الناس لايعترف له بهذا النسب فقد كتب زياد إلى عائشة أم المؤمنين يقول لها من زياد بن أبى سفيان وهو يريد أن تكتب له بهذا العنوان فكتبت اليه من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها زياد وأراد زياد أن يحج بعد هذا الاستلحاق فسمع بذلك أخوه أبو بكرة وكان له مهاجراً فجاء إلى بيت زياد وكلم أحد أبنائه فقال له يابنى قل

لأبيك إنى سمعت أنك تريد الحج ولابد من قدومك إلى المدينة ولاشك أنك تطلب الاجتماع بأم حبيبة بنت أبى سفيان زوج النبى صلى الله عليه وسلم فإن أذافت لك فأعظم به خزيا مع رسول الله وإن منعتك فأعظم به فضيحة فى الدنيا فترك زياد الحج

وفى السنة الخامسة والأربعين ولاه معاوية البصرة وخراسان وسجستان فقدم البصرة آخر شهر ربيع الأول سنة ٤٥ والفسق ظاهر فاش فيها فخطبهم خطبته الشهيرة بالبتراء وإنما قيل لها ذلك لأنه لم يحمد الله فيها ولما فى هذه الخطبة من روائع الكلم وبديع الحكم وبيان سياسته فى حكم البلاد أحببنا إيرادها قال

أما بعد فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والغى الموفى بأهله على النار مافيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور العظام ينبت فيها الصغير ولايتحاشى عنها الكبير كأنكم لم تقرؤا كتاب الله ولم تسمعوا ماأعده من الثواب الكريم لأهل طاعته والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن السرمدى الذى لايزول. أتكونون كمن طرقت عينيه الدنيا وسدت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية ولاتظنون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله : ماهذه المواخير المنصوبة والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل : ألم يكن منكم نهاة يمنع الغواة : عن دلج الليل وغارة النهار قربتم القرابة وباعدتم الدين تعتذرون بغير العذر وتغضون على المختلس كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنيع من لايخاف عاقبة ولا يرجو معادا . ماأنتم بالحلماء ولقد اتبعتم السفهاء فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ثم اطرقوا وراءكم كنوسا فى مكانس الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدما وإحراقا . إنى رأيت آخر هذا الأمر لايصلح إلابما صلح أوله : لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد أو تستقيم لى قناتكم إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتى فإذا سمعتموها منى فاغتمزوها فى واعلموا أن عندى أمثالها من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب من ماله فإياى ودلج الليل فإنى لاأوتى بمدلج إلاسفكت دمه وقد أجلتكم فى ذلك بمقدار ماياتى الخبر الكوفة ويرجع إليكم . وإياى ودعوى الجاهلية فإنى لاأجد

أحدا عليها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثا لم تكن وقلما أحدثنا لكل ذنب عقوبة فمن غرق قوما غرقناه ومن حرق على قوم حرقناه ومن نقب بيتا نقبت عن قلبه ومن نبش قبرا دفنته فيه حيا فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم لساني ويدي ولا يظهر من أحد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، وقد كان بيني وبين أقوام إحن جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي فمن كان منكم محسنا فليزدد إحسانا ومن كان مسيئا فلينزع عن إساءته إني لو علمت أن أحداً منكم قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعا ولم أهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته فإذا فعل لم أناظره فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم فرب مبتئس بقدومنا سيسر ومسرور بقدومنا سيبتئس . أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا واعلموا أني مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقا بليل ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبانه ولا مجمراً لكم بعثاً فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فإنهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذي إليه تأوون ومتى تصلحون يصلحوا ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ولا تدركوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم . أسأل الله أن يعين كلا على كل فإذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فانفذوه على إذلاله وايم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاي

فقام إليه عبد الله بن الأهتم فقال أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب فقال كذبت ذاك نبي الله داود فقال الأحنف لقد قلت فأحسنت أيها الأمير والثناء بعد البلاء والحمد بعد العطاء وإنا لن نثني حتى نبتلي فقال صدقت : فقام إليه أبو بلال مرداس بن أدية وهو من الخوارج وقال أنبأ الله بغير ما قلت قال الله تعالى (وإبراهيم الذي وفى أن لا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فأوعدنا الله خيراً مما أوعدتنا يا زياد . فقال زياد إنا لن نصل إلى الحق فيك وفي أصحابك حتى نخوض في الباطل خوضا

واستعمل على شرطته عبد الله بن حصن وأجل الناس حتى بلغ الخبر الكوفة وعاد

إليه وصول الخبر فكان يؤخر العشاء الآخرة ثم يصلي فيأمر رجلا أن يقرأ سورة البقرة أو مثلها يرتل القرآن فإذا فرغ أمهل بقدر ما يرى أن إنسانا يبلغ أقصى البصرة ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج فلا يرى إنسانا إلا قتله فأخذ ذات ليلة أعرابيا فأتى به زياداً فقال له هل سمعت النداء فقال لا والله قدمت بحلوبة لي وغشيني الليل فاضطررتها إلى موضع وأقمت لأصبح ولا علم لي بما كان من الأمير فقال أظنك والله صادقا ولكن في قتلك صلاح الأمة ثم أمر به فضربت عنقه . وكان زياد أول من شدد أمر السلطان وأكد الملك لمعاوية وجرد سيفه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفا شديدا حتى أمن بعضهم بعضا وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ولا يغلق أحد بابه وأدر العطاء وبنى مدينة الرزق وجعل الشرط أربعة آلاف . وقيل له إن السبيل مخوفة فقال لا أعاني شيئا وراء المصر حتى أصلح المصر فإن غلبني فغيره أشد غلبة منه فلما ضبط المصر وأصلحه تكلف ما وراء ذلك فأحكمه : قال أبو العباس المبرد في صفة زياد ومعاملته للخوارج كان يقتل المعلن ويستصلح المسر ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة . ووجه يوما بحينة بن كبيش الأعرجي إلى رجل من بني سعد يرى رأى الخوارج فجاء بحينة فأخذه فقال إني أريد أن أحدث وضوءا للصلاة فدعني أدخل إلى منزلي قال ومن لي بخروجك قال الله عز وجل فتركه فدخل فأحدث وضوءاً ثم خرج فأتى به بحينة زياداً فلما مثل بين يديه ذكر الله زياد ثم صلى على نبيه ثم ذكر أبا بكر وعمر وعثمان بخير ثم قال قعدت عني فأنكرت ذلك فذكر الرجل ربه فحمده ووحده ثم ذكر النبي عليه السلام ثم ذكر أبا بكر وعمر بخير ولم يذكر عثمان ثم أقبل على زياد فقال إنك قد قلت قولا فصدقه بفعلك وكان من قولك ومن قعد عنا لم نهجه فقعدت فأمر له بصلة وكسوة وحملان فخرج الرجل من عند زياد وتلقاه الناس يسألونه فقال ما كلكم أستطيع أن أخبره ولكن دخلت على رجل لا يملك ضراً ولا نفعا لنفسه ولا حياة ولا نشوراً فرزق الله منه ما ترون . وكان زياد يبعث إلى الجماعة منهم فيقول ما أحسب الذي يمنعكم عن إتياني إلا الرجلة فيقولون أجل فيحملهم ويقول اغشوني الآن واسمروا عندي

وبلغ زياداً عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يرى رأي الخوارج فدعاه فولاه جند يسابور وما يليها ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر وجعل عمالته

فى كل سنة مائة ألف فكان أبو الخير يقول ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة فلم يزل والياً حتى أنكر منه زياد شيئاً فتنمر لزياد فحبسه فلم يخرج من حبسه حتى مات

وفى سنة ٥٠ أضاف معاوية إلى زياد ولاية الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة فصار والى المصرين وهو أول من جمعا له فسار إلى الكوفة فلما وصلها خطب أهلها فحصب وهو على المنبر فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قوما من خاصته فأخذوا أبواب المسجد ثم قال ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقولن لا أدرى من جليسى ثم أمر بكرسى فوضع له على باب المسجد فدعا هم أربعة أربعة يحلفون ما منا حصبك فمن حلف خلاه ومن لم يحلف حبسه حتى صار إلى ثلاثين فقطع أيديهم . واتخذ زياد المقصورة حين حصب . وكان يقيم بالبصرة ستة أشهر وبالكوفة مثلها

كان بالكوفة جماعة من شيعة على رأسهم حجر بن عدى الكندى وعمرو بن الحمق وأشباههما فبلغ زياداً أنهم يجتمعون ويقعون فى معاوية وعماله فجاء الكوفة وصعد المنبر وقال أما بعد فإن غب البغى والغى وخيم إن هؤلاء جموا فأشروا وأمنونى فاجترءوا على الله لئن لم تستقيموا لأداوينكم بدوائكم ولست بشىء إن لم أمنع الكوفة من حجر وأدعه نكالا لمن بعده ويل أمك يا حجر سقط العشاء بك على سرحان . وأرسل إلى حجر يدعوه وهو بالمسجد فأبى حجر أن يجىء فأمر زياد صاحب شرطته أن يبعث إليه جماعة ففعل فسبهم أصحاب حجر فجمع زياد أهل الكوفة وقال تشجون بيد وتأسون بأخرى أبدانكم معى وقلوبكم مع حجر الأحمق هذا والله من رجسكم والله لتظهرن لى براءتكم أو لآتينكم بقوم أقيم بهم أودكم وصعركم فقالوا معاذ الله أن يكون لنا رأى إلا طاعتك وما فيه رضاك قال فليقم كل منكم فليدع من عند حجر من عشيرته وأهله ففعلوا وأقاموا أكثر أصحابه عنه وقال زياد لصاحب شرطته انطلق إلى حجر فائتنى به فإن أبى فشدوا عليهم بالسيوف حتى تأتونى به وبمن معه فبعد خطوب طويلة جىء به فلما رآه زياد قال له مرحبا أبا عبد الرحمن حرب أيام الحرب وحرب وقد سالم الناس على أهلها تجنى براقش فقال حجر ما خلعت طاعة ولا فارقت جماعة وإنى على بيعتى فأمر به إلى السجن ثم طلب أصحابه فهرب بعضهم وأخذ بعضهم وعدتهم اثنا عشر رجلا فأودعهم السجن وأحضر شهوداً شهدوا على حجر أنه جمع الجموع وأظهر شتم الخليفة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين

وأظهر أن هذا الأمر لايصلح إلا فى آل أبى طالب ووثب بالمصر وأخرج عامل أمير المؤمنين وأظهر عذر أبى تراب والترحم عليه والبراءة من عدوه وأهل حربه وأن هؤلاء النفر الذين معه هم رؤس أصحابه على مثل رأيه وكان الشهود على ذلك كثيرين من أهل الكوفة فكتب شهادتهم وأرسل بها وبحجر وأصحابه إلى معاوية فسير بهم حتى انتهوا إلى مرج عذراً عند دمشق فأمر معاوية بقتل ثمانية منهم وترك ستة وهم الذين تبرءوا من على بن أبى طالب

ولما بلغ عائشة خبر حجر أرسلت عبد الرحمن بن الحارث إلى معاوية فيه وفى أصحابه فقدم عليه وقد قتلهم فقال له عبد الرحمن أين غاب عنك حلم أبى سفيان قال حين غاب عنى مثلك من حلماء قومى وحملنى ابن سمية فاحتملت وقالت عائشة لولا أنا لم نغير شيئاً إلا صارت بنا الأمور إلى ماهو أشد منه لغيرنا قتل حجر : وقالت هند بنت زيد الأنصارية ترثى حجراً وكانت تتشيع

ترفع أيها القمر المنير تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب ليقتله كما زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعد حجر وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد له محولا كأن لم يحيها مزن مطير
ألا ياحجر حجر بنى عدى تلقتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عديا وشيخا فى دمشق له زئير
فإن تهلك فكل زعيم قوم من الدنيا إلى هلك يصير

وتوفى زياد فى سنة ٥٣ بالطاعون

والمطالع على الطريقة التى حكم بها زياد بلاد العراق يراها بمثابة إعلان حكم عرفى فإن أخذ الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح فى جسمه بالسقيم أمر ليس جاريا على القانون الشرعى الذى يقصر على المسؤلية على المجرم وإنما ذلك شىء يلجأ إليه الإداريون لتخفيف آلام الجرائم وإرهاب الناس حتى يأمن الناس شرهم وفائدة ذلك فى الغالب وقتية . ومن ذلك وضعه العقوبات التى شرعها للجرائم المحدثة كما قال من نقب عن بيت نقبت عن قلبه ومن نبش قبرا دفنته فيه حياً ومن ذلك : عقوبته المدلج بالقتل . كل هذه قوانين عرفية شديدة رآها لائقة لأهل

العراق وقد أفادت فى إصلاح حالهم لأن الأمان ساد وقل خروج الخوارج فى زمنه ولكنه ضحى فى سبيل الوصول إلى ذلك شيئا كثيراً والتاريخ إنما يعطى الإنسان صفة السياسة والحكمة إذا تمكن من إصلاح الفاسد بقليل من العسف لا نقول ذلك هضما لحق زياد لأنه يعتبر أقل ولاة العراق إسرافا فى الدماء ولقد بذل من وعده ما يقوم بوعيده فقال إنه لا يحتجب عن طالب حاجة وإن أتاه طارقا بليل ولا يحبس عطاء ولا رزقا عن إبانه ولا يجمر لهم بعثا وهذه الأشياء الثلاثة متى وفرها الوالى وصدقها لا نجد سببا للثورات ولا الفتن ولذلك يقول بعض المؤرخين إن زيادا لم يحتج لتنفيذ ما أوعد به من العقوبات إلا قليلا لأن علمهم بصدقه فى الإيعاد أخافهم وأرهبهم وصيرهم يقفون عند الحد المشروع لهم

وعلى الجملة فإن عهد زياد بالعراق على ما فيه من قسوة كان عهد رفاهة وأمن وهذا مما يسطره التاريخ لعرب العراق آسفا وذلك أنهم قوم لا يصلحهم إلا الشدة وإذا وليهم وال فيه لين ورحمة فسدوا وارتكبوا المصاعب وأجرموا إلى الأمراء أو الخلفاء من غير مبينة واضحة

المحاضرة الثالثة والثلاثون

المغيرة بن شعبة — عبيد الله بن زياد — الفتوح فى عهد معاوية
بيعة يزيد — وفاة معاوية

المغيرة بن شعبة

أما المغيرة بن شعبة فكانت سياسته أرفق وألين . أحب العافية وأحسن فى الناس السيرة ولم يفتش أهل الأهواء عن أهوائهم وكان يؤتى فيقال إن فلانا يرى رأى الشيعة وإن فلانا يرى رأى الخوارج فكان يقول قضى الله أن لا يزالوا مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون فأمنه الناس وكانت الخوارج يلقى بعضهم بعضا ويتذاكرون مكان إخوانهم بالنهروان ويرون أن فى الإقامة الغبن والوكف وأن فى جهاد أهل القبلة الفضل والأجر : وقد فزع الخوارج فى عهده الى ثلاثة نفر منهم المستورد بن علفة التيمى من تيم الرباب وحيان بن ظبيان

السلمى ومعاذ بن جوين بن حصين الطائى فولوا أمرهم بعد الشورى المستورد بن علفة لأنه كان أسن القوم واتعدوا أن يتجهزوا ويتيسروا ثم يخرجوا فى غرة الهلال هلال شعبان سنة ٤٣ فكانوا فى جهازهم وعدتهم فجاء رئيس شرطة المغيرة إليه وأخبره أن القوم مجتمعون فى منزل حيان بن ظبيان وأنهم اتعدوا الخروج فى هلال شعبان فأمره المغيرة أن يسير بالشرطة ويحيط بدار حيان ويأتيه بهم فسار رئيس الشرطة وأحاط بدار حيان وقبض على المجتمعين هناك فقال لهم المغيرة ماحملكم على ما أردتم من شق عصا المسلمين فقالوا ما أردنا من ذلك شيئاً ومن الغريب أنهم يكذبون مع أن الخوارج تبرأ من الكاذب ـ قال المغيرة بلى قد بلغنى ذلك عنكم قد صدق ذلك عندى جماعتكم . قالوا له أما اجتماعنا فى هذا المنزل فإن حيان بن ظبيان أقرؤنا للقرآن فنحن نجتمع عنده فى منزله فنقرأ القرآن عليه فأمربهم إلى السجن فلم يزالوا فيه نحواً من سنة وسمع إخوانهم بأخذهم فحذروا وخرج المستورد وأصحابه فبلغ الخبر المغيرة أن الخوارج خارجة عليه فى أيامه تلك وأنهم قداجتمعوا على رجل منهم فقام فى أهل الكوفة خطيبا فقال :

(أما بعد : فقد علمتم أيها الناس أنى لم أزل أحب لجماعتكم العافية وأكف عنكم الأذى وإنى والله لقد خشيت أن يكون أدب سوء لسفهائكم فأما الحلماء الأتقياء فلا وايم الله لقد خشيت أن لاأجد بداً من أن يعصب الحليم التقى بذنب السفيه الجاهل فكفوا أيها الناس سفهاءكم قبل أن يشمل البلاء عوامكم وقد ذكرلى أن رجالامنكم يريدون أن يظهروا فى المصر بالشقاق والخلاف وايم الله لايخرجون فى حى من أحياء العرب فى هذا المصر إلاأبدتهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم فنظر قوم لأنفسهم قبل الندم فقد قمت هذا المقام إرادة الحجة والإعذار) فقام إليه معقل بن قيس الرياحى فقال أيها الأمير هل سمى لك أحد من هؤلاء القوم فإن كانوا سموا لك فأعلمنا من هم فإن كانوا منا كفيناكهم وإن كانوا من غيرنا أمرت أهل الطاعة من أهل مصرنا فأتتك كل قبيلة بسفهائها فقال ماسمى لى أحد منهم ولكن قد قيل لى إن جماعة يريدون أن يخرجوا بالمصر فقال معقل أصلحك فإنى أسير فى قومى وأكفيك ماهم فيه فليكفك كل امرئ من الرؤساء قومه : فنزل المغيرة وأرسل إلى الرؤساء وقال لهم ليكفنى كل امرئ من الرؤساء قومه وإلا فوالذى لاإله غيره لأتحولن عما كنتم تعرفون

إلى ماتنكرون وعما تحبون لى ماتكرهون فلا يلم لائم إلا نفسه وقد أعذر من أنذر فخرجت الرؤساء إلى عشائرهم فناشدوهم الله والإسلام إلا دلوهم على من يرون أنه يهيج فتنة أو يفارق جماعة

ولما كان الخوارج قد نزلوا فى إحدى دور عبد القيس قام صعصعة بن صوحان العبدى وقد بلغه خبر نزول المستورد ومن معه فى دار العبدى فكره أن يؤخذوا فى عشيرته وكره مساءة أهل بيته من قومه فخطبهم خطابا حسنا قال فى آخره (ولا قوم أعدى لله ولكم ولأهل بيت نبيكم ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة الذين فارقوا إمامنا واستحلوا دماءنا وشهدوا علينا بالكفر فإياكم أن تؤوهم فى داركم أو تكتموا عليهم فإنه ليس ينبغى لحى من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم وقد والله ذكر لى أن بعضهم فى جانب من الحى وأنا باحث عن ذلك وسائل فإن كان حكى لى ذلك حقا تقربت إلى الله بدمائهم فإن دماءهم حلال) ولما بلغ ذلك المستورد كره المقام بمنزل العبدى ولما بلغ من فى محبس المغيرة إجماع أهل المصر على نفى من كان بينهم من الخوارج وأخذهم قال معاذ بن جوين فى ذلك

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ ... شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة ... وكل امرئ منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فإنها ... إقامتكم للذبح رأيا مضللا
ألا فاقصدوا ياقوم للغاية التى ... إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فياليتنى فيكم على ظهر سابح ... شديد القصيرى دارعا غير أعزلا
ويا ليتنى فيكم أعادى عدوكم ... فيسقينى كأس المنية أولا
يعز على أن تخافوا وتطردوا ... ولما أجرد فى المحلين منصلا
ولما يفرق جمعهم كل ماجد ... إذا قلت قد ولى وأدبر أقبلا
مشيحا بنصل السيف فى حمس الوغى ... يرى الصبر فى بعض المواطن أمثلا
وعز على أن تضاموا وتنقصوا ... وأصبح ذا بث أسيرا مكبلا
ولو أننى فيكم وقد قصدوا لكم ... أثرت إذا بين الفريقين قسطلا
فيارب جمع قد فللت وغارة ... شهدت وقرن قد تركت مجدلا

ثم خرج المستورد وأصحابه إلى سوراً فتنادوا بها ٣٠٠ رجل ثم ساروا إلى الصراة

فباتوا بها ليلة فلما علم بذلك المغيرة دعا رؤساء الناس فقال إنّ هؤلاء الأشقياء قد أخرجهم الجبن وسوء الرأى فمن ترون أبعث اليهم فقام اليه عدى بن حاتم فقال كلنا لهم عدوّ ولرأيهم مسفه وبطاعتك مستمسك فأينا شئت سار اليهم فقام معقل بن قيس فقال إنك لاتبعث اليهم أحدا ممن ترى حولك من أشراف المصر إلا وجدته سامعا مطيعا ولهم مفارقا ولهلاكهم محبا ولا أرى أصلحك الله أن تبعث اليهم أحدا من الناس أعدى لهم ولاأشد عليهم منى فابعثنى اليهم فإنى أكفيكهم بإذن الله فقال اخرج على اسم الله فجهز معه ثلاثة آلاف رجل وتخيرو هم من نقاوة شيعة على وفرسانهم فخرج يتبع آثارهم ولما وصل المدائن قدم بين يديه أبا الرواغ اليشكرى فى ٣٠٠ فلحقهم بالمذار مقيمين فبات ليلته حتى إذا أصبح خرج عليه الخوارج فشدوا عليه وعلى من معه فما ثبت لهم إنسان ثم إن أبا الرواغ صاح وقال يافرسان السوء قبحكم الله سائر اليوم الكرة الكرة فعادوا إلى الحملة مرة ثانية ولكنهم لم يصبروا فيها أيضا وانكشفوا فقال لهم الرواغ انصرفوا بنا فلنكن قريبا منهم لانزايلهم حتى يقدم علينا أميرنا فما أقبح بنا أن نرجع إلى الجيش وقد انهزمنا من عدونا ولم نصبر لهم حتى يشتد القتال ويكثر القتلى فقال له رجل إنّ الله لايستحيى من الحق قد والله هزمونا قال أبو الرواغ لاأكثر الله فينا مثلك إنا مالم ندع المعركة فلم نهزم إنا متى عطفنا عليهم وكنا قريبا منهم فنكن على حال حسنة حتى يقدم علينا الجيش فوقفوا قريبا منهم حتى قدم معقل فشكر أبا الرواغ على ثباته فقال له أبو الرواغ أصلحك الله إنّ لهم شدات منكرات فلاتكن أنت تليها بنفسك ولكن قدم بين يديك من يقاتلهم وكن أنت من وراء الناس ردءاً لهم فقال نعما رأيت فما كان ريثما قالها حتى شدّوا عليه وعلى أصحابه فلما غشوه انجفل عنه أصحابه وثبت ونزل وقال الأرض الأرض يا أهل الإسلام ونزل معه أبو الرواغ وناس كثير من الفرسان وأهل الحفاظ نحو من ٢٠٠ رجل ولما رآه الناس قد ثبت كروا راجعين ثم حجز بينهم الليل وفى أثنائه بلغ الخوارج أن جيشاً من البصرة قد أرسل لقتالهم فلم يروا أن يقفوا حذار أن يقعوا بين جيشين فرحلوا من وراء جيش معقل ولم يعلم معقل برحيلهم إلا عند الصبح فعاد متبعا آثارهم وأبو الرواغ على مقدمته فى ٦٠٠ فلحقهم بجرجرايا فلما رآه الخوارج شدوا عليه شدة واحدة صدقوا فيها الحملة فانكشف جند أبو الرواغ وبقى معه نحو مائة رجل فعطف عليهم وهو يقول :

إن الفتى كل الفتى من لم يهل   إذا الجبان حاد عن وقع الأسل
قد علمت أنى إذا البأس نزل   أروع يوم الهيج مقدام بطل

ثم عطف وعطف معه أصحابه الذين ثبتوا فصدقوا القتال حتى ردوهم إلى مكانهم الذى كانوا فيه ولما رأى الخوارج ذلك خافوا من مجىء معقل فتركوا الموقعة وساروا وأبو الرواغ فى آثارهم . قال المستورد لأصحابه إن الذين مع أبى الرواغ هم حر أصحاب معقل فهلم فلنقابل معقلا قبل أن يلتقى بأصحابه فعاد المستورد بجنده وترك أبا الرواغ بعد أن خدعه ولم يكن إلا قليل حتى التقى بمعقل وأصحابه ومقدمته ليست عنده فلما رآهم معقل نصب رايته ونزل ونادى ياعباد الله الأرض الأرض فنزل معه نحو من ٢٠٠ رجل فحمل عليهم الخوارج فاستقبلوهم بأطراف الرماح جثاة على الركب وصبروا على حملات الخوارج الشديدة : وبيناهم على تلك الحال إذا طلعت عليهم مقدمة أصحاب الرواغ واشتد القتال وكانت نتيجته أن قتل المستورد وسائر أصحابه ماعدا خمسة منهم وقتل معقل بن قيس رئيس الجيش وكان معقل قد بارز المستورد بيد معقل السيف وبيد المستورد الرمح فأشرع المستورد الرمح فى صدر معقل حتى خرج السنان من ظهره وضربه معقل بالسيف على رأسه حتى خالط أم الدماغ فخرا ميتين وبذلك انتهى أمر هؤلاء القوم الذين لم يكن يمكن أن يماثلهم أحد فى شداتهم المنكرة قال الشعبى ماولينا وال بعد المغيرة مثله وإن كان لاحقا بصالح من كان قبله من العمال .

وأقام المغيرة عاملا لمعاوية سبع سنين وأشهراً وهو من أحسن شىء سيرة وأشده حباً للعافية غير أنه لايدع ذم على والوقوع فيه والعيب لقتلة عثمان واللعن لهم والدعاء لعثمان بالرحمة والاستغفار له والتزكية لأصحابه وكان يقول لاأحب أن أبتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى ويعز فى الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة ولكنى قابل من محسنهم وعاف عن مسيئهم وحامد حليمهم وواعظ سفيههم حتى يفرق بينى وبينهم الموت وسيذكرونى لو قد جربوا العمال بعدى . قال شيخ من أهل الكوفة قد والله جربناهم فوجدنا خيرهم أحمدهم للبرىء وأغفرهم للمسىء وأقبلهم للعذر . وتوفى المغيرة سنة ٥١ ولو وازناه بزياد لرجح عليه لأنه أصلح المصر بقليل من الشدة والعنف

ومن ولاة العراق الأشداء عبيد الله بن زياد ولاه معاوية البصرة سنة ٥٥ وقد

اشتد على الخوارج شدة لم يفعلها أبو زياد فقتل منهم سنة ٥٨ جماعة كثيرة صبراً وفى الحرب جماعة أخرى وممن قتل صبراً عروة بن أدية أخو أبى بلال مرداس ابن أدية وكان سبب ذلك أن ابن زياد خرج فى رهان له فلما جلس ينتظر الخيل اجتمع الناس وفيهم عروة بن أدية فأقبل على ابن زياد فقال خمس كن فى الأمم قبلنا فقد صرن فينا : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين) وذكر خصلتين أخريين . فلما سمع ذلك ابن زياد ظن أنه لم يجترئ عليه إلا ومعه جماعة من أصحابه فقام وركب وترك رهانه : فقيل لعروة ما صنعت تعلمن والله ليقتلنك فتوارى فطلبه ابن زياد فى الكوفة فأخذها فقدم به على ابن زياد فأمر به فقطعت يداه ورجلاه ثم دعا به فقال كيف ترى قال أرى أنك أفسدت دنياى وأفسدت آخرتك فقتله وأرسل إلى ابنته فقتلها وخرج أخوه مرداس فى أربعين رجلا بالأهواز فبعث اليهم ابن زياد جيشاً عدته ألفان وعليهم ابن حصن التميمى فهزمه الخوارج فقال شاعرهم

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلكم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم لكن الخوارج مؤمنونا
هى الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصرونا

ولم يزل عبيدالله واليا على البصرة حتى توفى معاوية

وفى مصر كان الوالى عمرو بن العاص فاتحها وأعرف الناس بها ولم يزل واليا عليها حتى مات سنة ٤٣ فولى بدله ابنه ثم عزله بعد ذلك وولى غيره ولاة سيأتى ذكرهم متى بدأنا فى تاريخ مصر

أما الحجاز فكان ولاته دائما من بنى أمية وكانت ولاية المدينة بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص يتداولانها وكان معاوية إذا أراد أن يولى رجلا من بنى حرب ولاه الطائف فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها فإن أحسن الولاية وقام بها ولى قياما حسنا جمع له معهما المدينة فكان إذا ولى الطائف رجلا قيل هو فى أبى جاد فإذا ولاه مكة قيل هو فى القرآن فإذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق : وكان ولاة المدينة فى الغالب هم الذين يقيمون للناس الحج فإن معاوية لم يحج بنفسه إلا مرتين سنة ٤٤ وسنة ٥٠ وفيما عداهما كان يقيمه هؤلاء الولاة وكلهم من بنى أمية

الفتوح فى عهد معاوية

لم يكن فى الشرق على حدود بلاد الفرس إلا فتوح قليلة والذى كان إنما هو إرجاع الناكثين من أهل تلك البلاد إلى الطاعة وغزا عبدالله بن سوار العبدى الذى كان أميراً على ثغر السند القيقان [1] مرتين وفى المرة الثانية استعان القيقان بالترك فقتلوه وغزا المهلب بن أبى صفرة الأزدى ثغر السند فأتى بنة ولاهور [2] وهما بين الملتان وكابل فلقيه العدو وقاتله ولقى المهلب ببلاد القيقان ثمانية عشر فارسا من الترك فقاتلوه فقتلوا جميعا فقال المهلب ماجعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتشمير منا فحذف الخيل وكان أول من حذفها من المسلمين . وكانت همة المسلمين موجهة نحو الشمال والغرب حيث مملكة الروم كان على عهد معاوية من ملوك الروم ملكان أحدهما قسطنطين الثانى بن هرقل الثانى الذى ولى الملك من سنة ٦٤١ إلى سنة ٦٦٨ وقسطنطين الرابع بوغاناتس الذى ولى من سنة ٦٦٨ إلى سنة ٦٨٥ ودولة الروم لم تزل فيها الحياة تغير على البلاد الإسلامية لما بينهما من الجوار فرتب معاوية الغزو إليها براً وبحراً أما البحر فكانت الأساطيل فى زمنه كثيرة لاهتمامه بأمرها وساعده على ذلك كثرة الغابات بجبال لبنان حتى بلغت أساطيله ١٧٠٠ ألفا وسبعمائة سفينة كاملة العدد والعدد وصار يسيرها فى البحر فترجع غانمة وافتتح بها عدة جهات منها جزيرة قبرص وبعض جزائر اليونان وجزيرة رودس افتتحها جنادة بن أبى أمية الأزدى ونزلها المسلمون وهم على حذر من الروم وكانوا أشد شىء على الروم يعترضونهم فى البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يكثر لهم العطاء وكان العدو قد خافهم

وأما فى البر فرتب الشواتى والصوائف والشواتى جمع شاتية وهى الجيش الذى يغزو فى الشتاء والصوائف جمع صائفة وهى الجيش الذى يغزو فى الصيف فكانت الغزوات متتابعة والثغور محفوظة من العدو وفى سنة ٤٨ جهز معاوية جيشا عظيما لفتح القسطنطينية براً وبحراً وكان على الجيش سفيان بن عوف وأمر ابنه يزيد أن يغزو معهم وكان فى هذا الجيش ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصارى وغيرهم وعبدالعزيز بن زرارة الكلابى فساروا حتى بلغوا القسطنطينية فاقتتل المسلمون والروم فى بعض الأيام

(١) من بلاد السند مما يلى خراسان (٢) مدينة بكابل

واشتدت الحرب بينهم فلم يزل عبدالعزيز يتعرض للشهادة فلم يقتل فأنشأ يقول :

قد عشت فى الدهر أطواراً على طرق   شتى فصادفت منها اللين والبشعا
كلا بلوت فلا النعماء تطربنى   ولا تخشعت من لاوائها جزعا
لا يملأ الأمر صدرى قبل موقعه   ولا أضيق به ذرعا إذا وقعا

ثم حمل على من يليه فقتل فيهم وانغمس بينهم فشجره الروم برماحهم حتى قتلوه فبلغ خبر قتله معاوية فقال لأبيه والله هلك فتى العرب فقال ابنى أو ابنك قال ابنك فآجرك الله فقال :

فإن يكن الموت أودى به   وأصبح مخ الكلابى زيراً
فكل فتى شارب كأسه   فإما صغيراً وإما كبيرا

ولم يتمكن هذا الجيش من فتح القسطنطينية لمتانة أسوارها ومنعة موقعها وفتك النار الإغريقية بسفنهم . وفى أثناء الحصار توفى أبو أيوب الأنصارى خالد بن زيد وهو الذى نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حينما هاجر وقد دفن خارج المدينة قريبا من سور القسطنطينية ولا يزال قبره بها يزار الآن وعليه مسجد مشيد يتوج فيه خلفاء آل عثمان ثم اضطر المسلمون للعودة إلى الشام بعد أن فقدوا كثيرا من جنودهم ومراكبهم

ومن الفتوح العظيمة ما كان فى إفريقية ففى سنة ٥٠ ولى معاوية عقبة بن نافع وكان مقيما ببرقة وزويلة مذ فتحها أيام عمرو بن العاص وله فى تلك البلاد جهاد وفتوح فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فدخل أفريقية وانضاف إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه ووضع السيف فى أهل البلاد لأنهم كانوا إذا دخل عليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد من أسلم ثم رأى أن يتخذ مدينة يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد فقصد موضع القيروان وكان دجلة مشتبكة فقطع الأشجار وأمر ببناء المدينة فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وكان دورها ٣٦٠٠ باع وتم أمرها سنة ٥٥ وسكنها الناس وكان فى أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير ودخل كثير من البربر فى الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها

وحصل بعد ذلك أن معاوية ولى على مصر وأفريقية مسلمة بن مخلد فاستعمل على أفريقية مولى له يقال له أبو المهاجر فقدم أفريقية وأساء عزل عقبة واستخف به وهذا من الخلل القديم الذى يئن منه المسلمون إلى الآن فإن الخلف كان من الولاة عوضا عن أن يستعين بآراء سلفه وتجاربه يجتهد فى تصغيره وتحقيره حتى ينطفىء اسمه ويكون لهذا الخلف الذكر المحمود وحده ولايدرى أنه بهذا يقتطع من نفسه قوة كان يمكن الانتفاع بها وترون مثل هذا بين أظهركم الآن فإنه ماولى إنسان عملا بعد رجل آخر إلا أن اجتهد أن يسىء سمعته ويبين للناس أنه لم يكن يحسن أن يسير فيما ولى سيرة رجل عارف بالأمور وكذلك السلف يجتهد أن يخفى عن خلفه كل ما يمكن أن ينفعه ليرتبك فى إدارته حتى يكون الأول الاسم وحده والأمة التى عندها مثل هذا الفكر العقيم لايمكن أن تنجح أوتسود

عاد عقبة إلى الشام وعاتب معاوية على مافعله أبو المهاجر فاعتذر اليه ووعده باعادته إلى عمله وتمادى الأمر حتى توفى معاوية وسنبين لكم فى خلافة يزيد ما كان منه حين أعيد إلى عمله

البيعة ليزيد بولاية العهد

فكر معاوية أن يأخذ على الناس البيعة ليزيد ابنه بولاية العهد وكان الواضع لهذه الفكرة المغيرة بن شعبة قبل وفاته فإنه دخل على يزيد وقال له قد ذهب أعيان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبراء قريش وذوو أسنانهم وإنما بقى أبناؤهم وأفضلهم وأحسنهم رأيا وأعلمهم بالسنة والسياسة ولاأدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة . قال أوترى ذلك يتم قال نعم . فأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة فأحضره معاوية وسأله عما قال ليزيد فقال قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد منك خلف فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولاتسفك دماء ولا تكون فتنة قال ومن لى بذلك قال أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك قال فارجع إلى عملك وتحدث مع من تثق به فى ذلك وترى ونرى

فسار المغيرة إلى الكوفة وذاكر من يثق به ومن يعلم أنه شيعة لبنى أمية ، أمر يزيد فأجابوا إلى بيعته فأوفد منهم وفداً عليهم ابنه موسى فقدموا على معاوية فزينوا

له بيعة يزيد فقال معاوية لاتعجلوا باظهار هـذا وكونوا على رأيكم فرجعوا وقوى عزم معاوية على البيعة ليزيد . فأرسل إلى زياد يستشيره فأحضر زياد عبيد بن كعب النميرى وقال ان لكل مستشير ثقة ولكل سر مستودعا وان الناس قـد أبدع بهم خصلتان إذاعة السر وإخراج النصيحة إلى غير أهلها وليس موضوع السر إلا أحد رجلين رجل آخرة يرجو ثوابها ورجل دنيا له شرف فى نفسه وعقل يصون حسبه وقد خبرتهما عنك وقد دعوتك لأمر اتهمت عليه بطون الصحف إن أمير المؤمنين كتب إلى يستشيرنى فى البيعة ليزيد وأنه يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم وعلاقة أمر الاسلام وضمانه عظيم ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ماقد أولع به من الصيد فالق أمير المؤمنين وأد اليه فعلات يزيد وقال له رويدك بالأمر فأحرى لك أن يتم لك ولا تعجل فإن دركا فى تأخير خير من فوت فى عجلة فقال له عبيد أفلا غير هذا قال وماهو قال لا تفسد على معاوية رأيه ولا تبغض اليه ابنه وألقى أنا يزيد فأخبره أن أمير المؤمنين كتب اليـك يستشيرك فى البيعة له وإنك تتخوف خلاف الناس عليه لهنات ينقمونها عليـه وإنك ترى له ترك ماينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس ويتم ماتريد فتـكون قد نصحت أمير المؤمنين وسلمت مما تخاف من أمر الأمة فقال زياد لقد رميت الأمر بحجره أشخص على بركة الله فإن أصبت فما لا ينـكر وإن يكن خطأ فغير مستغش وتقول بمـا ترى ويقضى الله بغيب مايعلم فقدم على يزيد فذكر ذلك له فكف عن كثير ممـا كان يصنع وكتب زياد معه إلى معاوية يشير بالتؤدة وأن لا يعجل فقبل منه فلما مات زياد عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد فكتب إلى مروان بن الحكم أمير المدينة يقول له إنى كبرت سنى ودق عظمى وخشيت الاختلاف على الأمة من بعـدى وقد رأيت أن أتخير لهم من يقوم بعـدى وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك فأعرض ذلك عليهم وأعلمنى بالذى يردون عليك فقام مروان فى الناس فأخبرهم فقالوا أصاب ووفق وقـد أحببنا أن يتخير لنا فـلا يألو فكتب مروان إلى معاوية بذلك فأعاد اليـه الجواب فذكر يزيد فقام مروان فيهم فقال إن أمير المؤمنين قـد اختار لـكم فلم يأل وقد استخلف ابنـه يزيد : فقام عبد الرحمن بن أبى بكر وقال ما الخيار أردتم لأمـة محمد ولـكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلمـا مات هرقل قام هرقل وأنـكر ذلك الحسين بن على وعبـد الله بن عمر

وعبد الله بن الزبير فكتب مروان إلى معاوية بذلك

وكان معاوية قد كتب إلى عماله بتقريظ يزيد ووصفه وأن يوفدوا اليه الوفود من الأمصار فكان فيمن أتاه محمد بن عمر بن حزم من المدينة والأحنف بن قيس فى وفد أهل البصرة فقال محمد بن عمرو لمعاوية ان كل راع مسئول عن رعيته فانظر من تولى أمر أمة محمد ثم أن معاوية قال للضحاك بن قيس الفهرى لما اجتمعت الوفود عنده إنى متكلم فإذا سكت فكن أنت الذى تدعو إلى بيعة يزيد وتحثنى عليها فلما جلس معاوية للناس تكلم فعظم أمر الاسلام وحرمة الخلافة وحقها وما أمر الله به من طاعة ولاة الأمر ثم ذكر يزيد وفضله وعلمه بالسياسة وعرض بيعته فقام الضحاك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا أمير المؤمنين أنه لابدّ للناس من وال بعدك وقد بلونا الجماعة والألفة فوجدناهما أحقن للدماء وأصلح للدهماء وآمن للسبل وخيراً فى العاقبة والأيام عوج رواجع والله كل يوم هو فى شأن ويزيد بن أمير المؤمنين فى حسن هديه وقصد سيرته أعلى ما علمت وهو من أفضلنا علماً وحلماً وأبعدنا رأيا فوله عهدك واجعله لنا علماً بعدك ومفزعا نلجأ اليه ونسكن فى ظله : ثم تكلم غيره بمثل كلامه فقال معاوية للأحنف بن قيس ماتقول يا أبا بحر فقال نخافكم أن صدقنا ونخاف الله ان كذبنا وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه فإن كنت تعلمه لله وللأمة رضا فلا تشاور فيه وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة وإنما علينا أن نقول سمعنا وأطعنا . كان معاوية يعطى المقارب ويدارى المباعد ويلطف به حتى استوسق له أكثر الناس وبايعوه فلما بايعه أهل العراق وأهل الشام سار إلى الحجاز فى ألف فارس فلما دخل المدينة خطب الناس فذكر يزيد فمدحه وقال من أحق منه بالخلافة فى فضله وعقله وموضعه وما أظن قوما بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أنذرت ان أغنت النذر ثم أنشد متمثلا

قد كنت حذرتك آل المصطاق ... وقلت يا عمرو أطعنى وانطلق

إنك ان كلفتنى مالم أطق ... ساءك ماسرك منى من خلق

دونك ما استسقيته فاحسن وذق

وكان أولئك النفر الثلاثة قد تركوا المدينة إلى مكة فخرج معاوية إلى مكة وقضى

بهـا نسكه ثم جمعهم ثلاثتهم وكانوا قد اتفقوا على أن يكون الذى يخاطبه بن الزبير فقال لهم معاوية قدعلمتم سيرتى فيكم وصلتى لأرحامكم وحملى ما كان منكم ويزيدأخوكم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتأمرون وتجبون المـال وتقسمونه لايعارضكم فى شىء من ذلك فقال بن الزبير نخيرك بين ثلاث خصال قال أعرضهن : قال تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر : قال معاوية ليس فيكم مثل أبى بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيه فاستخلفه . وإن شئت فاصنع كما صنع عمر جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا بنى أبيه قال معاوية هل عندكم غير هذا فقالوا لا قال فإنى أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد أعذر من أنذر أنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلى القائم منكم فيكذبنى على رؤس الناس فاحمل ذلك فاصفح فإنى قائم بمقالة فأقسم بالله لئن ردّ على أحد منكم كلمة فى مقامى هذا لاترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها للسيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين مع كل أحد سيف فإن ذهب رجل منهم يردّ على كلمة بتصديق أو تكذيب فليضرباه بسيفهما ثم خرج وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمدالله وأثنى عليه ثم قال إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لايبتز أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشورتهم وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب رواحله وانصرف إلى المدينة ثم إلى الشام ويروى أن ابن عمر قال لمعاوية أبايعك على أنى أدخل فيما تجتمع عليه الأمة فوالله لو اجتمعت على حبشى لدخلت معها

ونقول أن فكر معاوية فى اختيار الخليفة بعده حسن جميل وأنه مادام لم توضع قاعدة لانتخاب الخلفاء ولم يعين أهل الحل والعقد الذين يرجع إليهم الاختيار فأحسن مايفعل هو أن يختار الخليفة ولى عهده قبل أن يموت لأنّ ذلك يبعد الاختلاف الذى هو شر على الأمة من جور إمامها وقد فعل معاوية مايظهر معه أنه لم يستبد بالأمر دون الأمة نطاب وفود الأنصار فحضروا عنده وأجابوه إلى طلبته من بيعة يزيدابنه والذى ينقده التاريخ من أمره هو

(١) أنه استهان بأولئك النفر الذين لم يرضوا ببيعة يزيد وهم من سادة الأمة الذين

يتطلعون لولاية أمر المسلمين فلم يهتم بخلافهم بل ادعى أنهم بايعوا لينال بيعته أهل مكة وهذا غير لائق بمقام خليفة المسلمين لاجرم إن كان من نتائج ذلك تلك الحوادث المحزنة التى سنوضحها فى خلافة يزيد

(٢) مما انتقده الناس أنه اختار ابنه للخلافة وبذلك سنّ فى الإسلام سنة الملك المنحصر فى أسرة معينة بعد إن كان أساسه الشورى ويختار من عامة قريش وقالوا إن هذه الطريقة التى سنها معاوية تدعو فى الغالب إلى انتخاب غير الأفضل الأليق من الأمة وتجعل فى أسرة الخلافة الترف والانغماس فى الشهوات والملاذ والرفعة على سائر الناس أما رأينا فى ذلك فإن هذا الانحصار كان أمراً حتماً لا بد منه لصلاح أمر المسلمين وألفتهم ولم شعثهم فإنه كلما اتسعت الدائرة التى منها يختار الخليفة كثر الذين يرشحون أنفسهم لنيل الخلافة وإذا انضم إلى ذلك اتساع المملكة الإسلامية وصعوبة المواصلات بين أطرافها وعدم وجود قوم معينين يرجع إليهم الانتخاب فإنّ الاختلاف لابد واقع ونحن نشاهد أنه مع تفوق بنى عبد مناف على سائر قريش واعتراف الناس لهم بذلك وهم جزء صغير من قريش فإنهم تنافسوا الأمر وأهلكوا الأمة بينهم فلو رضى الناس عن أسرة ودانوا لها بالطاعة واعترفوا باستحقاق الولاية لكان هذا خير مايفعل لضم شعث المسلمين أنّ أعظم من ينتقد معاوية فى تولية ابنه هم الشيعة مع أنهم يرون انحصار ولاية الأمر فى آل على ويسوقون الخلافة فى بنيه يتركها الأب منهم للابن وبنو العباس أنفسهم ساروا على هذه الخطة فجعلوا الخلافة حقاً من حقوق بيتهم لايعدوهم إلى غيرهم والنتيجة أنّ مافعله معاوية كان أمراً لابد منه مع الحال التى كانت عليها البلاد الإسلامية

مقارنة الحكم فى عهد معاوية بالحكم مدّة الخلفاء الراشدين

إنّ الناظر لحال سياسة الناس فى عهد معاوية يراها لاتشبه من كل الوجوه ما كانت عليه الحال فى عهد الخلفاء الراشدين قبل الفتنة فقد كانت الناس تساس بالقانون الشرعى تماما يأخذ كلّ إنسان ماله ويعطى ماعليه فإن تأخر فى واجب مما عليه عاقبته الدرة درة عمر وكان الناس أنفسهم متحدى الميل لم تكثر بينهم الاختلافات فى الآراء ولم يتأولوا القرآن تأولاً يخرجه عن حقيقته التى تدعو الناس إلى التآلف والتآزر والتحاب أما فى هذا العهد فإنّ الأمة اختلفت أهواؤها وسهل عليها شق عصا الطاعة ودخلوا فى غمار الفتنة متأوّلين للقرآن فكانت السياسة التى حكموا بها شديدة قاهرة حتى سهل

إهراق الدماء ألا ترون إلى زياد وما كان يفعله فإنه قتل ذلك الأعرابى الذى أخذ من الجامع مع اعتقاد زياد صدقه لكنه قال إنّ فى قتلك صلاحاللرعية . لا ننكر أنّ معاوية نفسه كان سهلا لينا يعفو ويغفر ويفيض على الناس من حلمه الواسع ويحب لهم العافية ولكن بعض عماله اشتدوا على الناس شدّة لانظن أنها تصلح القلوب وإنما تخفف الألم عن الأمّة تخفيفاً وقتياً

ومما ننقده على هذا العهد اهتمام معاوية بالتشهير بعلى على المنابر مع أنّ الرجل قد لحق بربه وانتهى بأمره وكان يعلم يقينا أنّ هذه الأقوال مما يهيج صدور شيعته وتجعلهم يتأففون ويتذمّرون ولا ندرى ماالذى حمله على أن جعل ذلك فرضا حتما فى كل خطبة كأنه ركن من أركانها لاتتم إلابه .

من المحدثات الجليلة التى حدثت فى عهد معاوية البريد ، معنى ذلك أن تقسم الطرق منازل فى كل منزلة دواب مهيأة معدّة لحمل كتب الخليفة إلى البلدان المختلفة فتسلم الكتب بالحاضرة فيأخذها صاحب البريد ويمر مسرعا حتى إذا وصل إلى أول منزلة سلمها لصاحب البريد فيها فيفعل بها كالأول وبذلك كانت تصل الكتب إلى الأمراء والعمال فى أسرع وقت يمكن وكان بين كل منزلتين أربعة فراسخ أواثناعشر ميلا وتسمى هذه المسافة بريداً . وروى ياقوت فى معجم البلدان أنه إنما سميت خيل البريد بهذا الاسم لأنّ بعض ملوك الفرس اعتاق عنه رسل بعض جهات مملكته فلما جاءته الرسل سألها عن سبب بطئها فشكوا من مروا به من الولاة وأنهم لم يحسنوا معاونتهم فأحضرهم الملك وأراد عقوبتهم فاحتجوا بأنهم لم يعلموا أنهم رسل الملك فأمر أن تكون أذناب خيل الرسل وأعرافها مقطوعة لتكون علامة لمن يمرون به ليزيحوا عللهم فى سيرهم فقيل بريد أى قطع فعرب فقيل خيل البريد . وقال ياقوت إنه روى هذا عن بعض من لايوثق به ولكنه صحيح فى القياس والنظر

معاوية أول من اتخذ الحرس ولم يكن شىء من ذلك فى عهد الخلفاء الراشدين وإنما اتخذه بعد أن كان ما كان من إرادة الخارجى قتله

اتخذ معاوية ديوان الخاتم وكان سبب ذلك أنه أمر لعمرو بن الزبير بمائة ألف درهم وكتب له بذلك إلى زياد ففتح عمرو الكتاب وصير المائة مائتين فلما رفع زياد حسابه أنكرها معاوية وطلبها من عمرو وحبسه فقضاها عنه أخوه عبد الله بن الزبير فأحدث

معاوية عند ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب وكانت قبل لاتحزم

كان كاتب معاوية سرجون الرومى لأنّ ديوان الشام كان لعهده بالرومية ويظهر أنه كاتب الخراج وكان سرجون صاحب أمره ومدبره ومشيره وكان حاجبه سعد مولاه وقاضيه فضالة بن عبيد الأنصارى ثم أبو إدريس الخولانى ومعنى ذلك أنه كان قاضى الشام وكان لكل ولاية قاض خاص

بيت معاوية

(١) تزوج ميسون بنت بحدل وهى أم يزيد ابنه (٢) فاختة بنت قرظة النوفلى فولدت له عبد الرحمن وعبد الله ومات عبد الرحمن صغيراً (٣) نائلة بنت عمارة الكلابية وهذه طلقها (٤) كنوة بنت قرظة أخت فاختة غزا قبرس فماتت معه هناك

وفاة معاوية

مرض معاوية بدمشق فى جمادى الثانية وكان يزيد ابنه غائبا فأحضر معاوية الضحاك ابن قيس ومسلم بن عقبة المرى وأدى إليهما وصيته إلى يزيد وكان فيها (يابنى إنى قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك مالم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فإن عزل عامل أسهل من أن يشهر عليك مائة ألف سيف وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وغيبتك فان رابك من عدوك شيء فانتصر بهم فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فانهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم وإنى لست أخاف أن ينازعك فى هذا الأمر إلا أربعة من قريش الحسين بن على وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمن بن أبى بكر فأما ابن عمر فإنه رجل قد وقذته العبادة فإذا لم يبق أحد غيره بايعك وأما الحسين ابن على فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فإن خرج وظفرت به فاصفح عنه فإن له رحما ماسة وحقاً عظيما وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم . وأما ابن أبى بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ليس له همة إلا فى النساء واللهو وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها فظفرت به فقطعه إربا إربا واحقن دماء قومك ما استطعت) ثم مات بدمشق

لهلال رجب سنة ٦٠ هـ (٧ إبريل سنة ٦٨٠ م) فخرج الضحاك بن قيس حتى صعد المنبر وأكفان معاوية على يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنّ معاوية كان عود العرب وحد العرب وجدّ العرب قطع الله به الفتنة وملكه على العباد وفتح به البلاد إلا أنه قد مات وهذه أكفانه ونحن مدرجوه فيها ومدخلوه قبره ومخلون بينه وبين عمله ثم هو الهرج إلى يوم القيامة فمن كان يريد أن يشهده فعنده الأولى وصلى عليه الضحاك وكان قد أرسل الخبر إلى يزيد فقال فى ذلك يزيد

جاء البريد بقرطاس يخب به ... فأوجس القلب من قرطاسه فزعا
قلنا لك الويل ماذا فى كتابكم ... قال الخليفة أمسى مثبتا وجعا
ثم انبعثنا إلى خوص مزممة ... نرمى الفجاج بها لانأتلى سرعا
فمادت الأرض أو كادت تميد بنا ... كأن أغبر من أركانها انقطعا
من لم تزل نفسه توفى على شرف ... توشك مقاليد تلك النفس أن تقعا
لما انتهينا وباب الدار منصفق ... وصوت رملة ريع القلب فانصدعا
ثم ارعوى القلب شيئا بعد طيرته ... والنفس تعلم أن قد أثبتت جزعا
أودى ابن هند وأودى المجد يتبعه ... كانا جميعا فماتا قاطنين معاً
أغرّ أبلج يستسقى الغمام به ... لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا

ثم أقبل يزيد وقد دفن معاوية فأتى قبره فصلى عليه

المحاضرة الرابعة والثلاثون

يزيد الأول — كيفية انتخابه — مقتل الحسين — وقعة الحرة
حصار مكة — الفتوح فى عهد يزيد — بيته ووفاته

٢ — يزيد الأول

هو يزيد بن معاوية بن أبى سفيان وأمه ميسمون بنت بحدل ولد سنة ٢٦ هـ وأبوه أمير الشام لعثمان بن عفان فتربى فى حجر الإمارة ولما شب فى خلافة أبيه

كان يرشحه للإمارة فولاه الحج مرتين وولاه الصائفة وأرسله فى الجيش الذى غزا القسطنطينية لأول مرة وكان مغرما بالصيد وهذا مما أخذه عليه الناس إذ ذاك لأنهم لم يكونوا فارقوا البداوة العربية والجد الإسلامى بعد

كيفية انتخابه

عهد إليه أبوه بالخلافة من بعده بعد أن استشار فى ذلك وفود الأمصار فبايعه الناس ولم يتخلف عن البيعة إلا نفر قليل من أهل المدينة وهم الحسين بن على وعبدالله ابن الزبير وعبد الله بن عمر : فلما توفى معاوية لم يكن ليزيد إلا مبايعتهم له فأرسل إلى الوليد بن عتبة بن أبى سفيان أمير المدينة يقول له (أما بعد فخذ حسيناً وعبدالله ابن عمر وابن الزبير أخذاً ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام) فلما أتاه نعى معاوية فظع به وكبر عليه فأرسل إلى هؤلاء النفر فأما حسين فجاءه فلما عرض عليه البيعة وأخبره بموت معاوية استرجع وترحم على معاوية وقال أما البيعة فإن مثلى لا يبايع سرا ولا يجتزى بها منى سرا فإذا خرجت إلى الناس ودعوتهم إلى البيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً فقال له الوليد وكان يحب العافية انصرف فانصرف وأما ابن الزبير فترك المدينة وذهب إلى مكة وقال إنى عائذ بالبيت ولم يكن يصلى بصلاتهم ولا يفيض فى الحج بإفاضتهم وكان يقف هو وأصحابه ناحية وخرج من المدينة بعده الحسين بن على وأخذ معه بنيه وإخوته وبنى أخيه إلا محمد بن الحنفية فإنه أبى الخروج معه ونصحه فلم يقبل نصحه

أما ابن عمر فإنه قال إذا بايع الناس بايعت فتركوه وكانوا لا يتخوفونه ولما بايع الناس بايع هو وابن عباس

حادثة الحسين

جاء الحسين مكة فكان أهلها يختلفون اليه ويأتونه ومن بها من المعتمرين وأهل الآفاق وابن الزبير قد لزم جانب الكعبة فهو قائم يصلى عندها عامة النهار ويطوف ويأتى الحسين فيمن يأتيه ولا يزال يشير عليه بالرأى وهو أثقل خلق الله على ابن الزبير لأنّ أهل الحجاز لا يبايعونه مادام الحسين بالبلد : لما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وبيعة يزيد أرجفوا بيزيد واجتمعت الشيعة إلى منزل كبيرهم سليمان بن صرد الخزاعى واتفقوا أن يكتبوا إلى الحسين يستقدمونه

ليبايعوه فكتبوا اليه نحواً من ١٥٠ صحيفة ولما اجتمعت الكتب عنده كتب اليهم (أما بعد فقد فهمت كل الذى اقتصصتم وقد بعثت اليكم بأخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل وأمرته أن يكتب إلى بحالكم وأمركم ورأيكم فإن كتب إلى أنه قد اجتمع رأى ملئكم وذوى الحجى منكم على مثل ماقدمت به رسلكم أقدم اليكم وشيكا إن شاء الله فلعمرى ماالإمام إلا العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق والسلام) ثم دعا الحسين مسلم بن عقيل فسيره نحو الكوفة وأمره بتقوى الله وكتمان أمره واللطف فإن رأى الناس مجتمعين عجل اليه بذلك فسار مسلم نحو الكوفة وأميرها النعمان بن بشير الأنصارى فأقبلت اليه الشيعة تختلف اليه . ولما بلغ ذلك النعمان صعد المنبر وقال أما بعد فلا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة فإن فيهما تهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الأموال وكان النعمان حليما ناسكا يحب العافية ثم قال إنى لاأقاتل إلا من يقاتلنى ولا أثب على من لايثب على ولاأنبه نائمكم ولاأتحرش بكم ولا آخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة ولكنكم إن أبديتم صفحتكم ونكثتم بيعتكم وخالفتم إمامكم فوالله الذى لاإله إلا هو لأضربنكم بسيفى ماثبت قائمه بيدى ولو لم يكن لى منكم ناصر ولامعين أما إنى أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل فقام اليه رجل من شيعة بنى أمية وقال له إنه لايصلح ماترى إلا الغشم إن هذا الذى أنت عليه رأى المستضعفين فقال أكون من المستضعفين فى طاعة الله أحب إلى من أن أكون من الأعزين فى معصية الله ونزل . فكتب ذلك الرجل إلى يزيد يخبره بقدوم مسلم بن عقيل ومبايعة الناس له ويقول إن كان لك بالكوفة حاجة فابعث اليها رجلا قويا ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك فى عدوك فإن النعمان رجل ضعيف أو يتضعف فعزل يزيد النعمان وولى على الكوفة عبيد الله بن زياد أمير البصرة فجعله والى المصرين وأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو نفيه فقام ابن زياد إلى الكوفة وخطب فى أهلها فقال (أما بعد فإن أمير المؤمنين ولانى مصركم وثغركم وفيئكم وأمرنى بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم وبالشدة على مريبكم وعاصيكم وأنا متبع فيكم أمره ومنفذ فيكم عهده فأنا لمحسنكم كالوالد البر ولمطيعكم كالأخ الشفيق وسيفى وسوطى على من ترك أمرى وخالف عهدى فليبق امرؤ على نفسه) ثم نزل فأخذ العرفاء والناس أخذا شديدا وقال اكتبوا لى

الغرباء ومن فيكم من طلبة أمير المؤمنين ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين دأبهم الخلاف والشقاق فمن كتبهم إلى برئ ومن لم يكتب لنا أحدا فليضمن لنا ما فى عرافته أن لا يخالفنا فيهم مخالف ولا يبغى علينا منهم باغ فمن لم يفعل برئت منه الذمة وحلال لنا دمه وماله وأيما عريف وجد فى عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه الينا صلب على باب داره ألقيت تلك العرافة من العطاء وسير إلى موضع بعمان الزارة

سمع مسلم بمقال ابن زياد فاستجار بهانىء بن عروة المرادى فأجاره متكرهين وصارت الشيعة تختلف اليه هناك فعلم ابن زياد بمقره بدار هانىء فاستقدم هانئا فقدم عليه ولما دنا منه قال عبيد الله

أريد حياته ويريد قتلى   عذيرك من خليلك من مراد

فقال هانىء وماذاك فقال ياهانىء ماهذه الأمور التى تربص فى دارك لأمير المؤمنين والمسلمين جئت بمسلم فأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال وظننت أن ذلك يخفى لك وقد أراد هانىء أن ينكر فلم يجد إلى الإنكار سبيلا فطاب منه ابن زياد أن يسلم اليه مسلما فامتنع خوف السبة والعار فأمر ابن زياد به فضرب وحبسه بالقصر . ولما علم بذلك مسلم نادى فى أصحابه بشعارهم يامنصور وكان قد بايعه ثمانية عشر ألفاً وحوله فى الدور أربعة آلاف فاجتمع اليه ناس كثير فعباهم وأقبل إلى القصر فأحاط به وامتلأ المسجد والسوق من الناس ولم يكن مع ابن زياد إلا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون رجلا من الأشراف وأهل بيته ومواليه وأقبل أشراف الناس يأتونه فدعا كثير بن شهاب الحارثى وأمره أن يخرج فيمن أطاعه من مذحج ويخذل الناس عن ابن عقيل ويخوفهم وأمر محمد بن الأشعث أن يخرج فيمن أطاعه من كندة فيرفع راية أمان لمن جاءه من الناس وأمر بمثل ذلك غيره من الأشراف وأبقى عنده بعضهم استئناساً بهم فخرج الذين أمروا بالخروج يخذلون الناس وأشرف الذين بالقصر على الناس فمنعوا أهل الطاعة وخوفوا أهل المعصية ولما رأى الناس ذلك شرعوا يتفرقون حتى لم يبق مع ابن عقيل فى المسجد إلا ثلاثون رجلا فحار فى أمره أين يذهب واختفى فعلم ابن زياد بمكان اختفائه فأرسل اليه محمد بن الأشعث فجاء به فقال مسلم لابن الأشعث إنى أراك تعجز عن أمانى فهل تستطيع أن تبعث من عندك رسولا يخبر الحسين بحالى ويقول له عنى ليرجع بأهل

بيته ولا يغره أهل الكوفة فإنهم أصحاب أبيه الذى كان فراقهم بالموت أو القتل ففعل ذلك ابن الأشعث ولما جىء بمسلم إلى ابن زياد قتله ثم قتل بعده هانىء بن عروة المرادى.

أما أمر الحسين فإنه لما عزم على المسير إلى الكوفة جاءه عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فقال له بلغنى أنك تريد العراق وإنى مشفق عليك أن تأتى بلداً فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت الأموال وإنما الناس عبيد الدرهم والدينار فلا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك نصره ومن أنت أحب اليه ممن يقاتلك معه فجزاه الحسين خيراً . وجاءه ابن عباس فقال له قد أرجف الناس أنك تريد العراق فخبرنى ماأنت صانع . فقال قد أجمعت المسير فى أحد يومى هذين فقال له ابن عباس أعيذك بالله من ذلك خبرنى رحمك الله أتسير إلى قوم قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم فإن كانوا فعلوا ذلك فسر اليهم وإن كانوا إنما دعوك اليهم وأميرهم عليهم قاهرلهم وعماله تجبى بلادهم فإنما دعوك إلى الحرب ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ويستنفروا اليك فيكونوا أشدّ الناس عليك فقال الحسين فإنى أستخير الله وأنظر ما يكون . ثم جاءه ابن عباس ثانى يوم فقال يا ابن عم إنى أتصبر ولا أصبر إنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك والاستئصال ان أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فا كتب اليهم فلينفوا عاملهم وعدوهم ثم أقدم عليهم فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن فإن بها حصونا وشعابا وهى أرض عريضة طويلة ولأبيك بها شيعة وأنت عن الناس فى عزلة فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعاتك فإنى أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحب فى عافية . فلم يسمع منه الحسين فقال له ابن عباس فإن كنت سائراً فلا تسر بنسائك وصبيتك فإنى لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون إليه فلم يفد كلامه شيئا . ثم سار بأهله وأولاده فقابله بالطريق الفرزدق الشاعر فسأله عن خبر الناس فقال له قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية والقضاء ينزل من السماء والله يفعل مايشاء . ثم جاءه كتاب من عبدالله بن جعفر يقسم عليه فيه بالله إلا ماانصرف ومع كتابه كتاب من عمرو بن سعيد أمير المدينة فيه الأمان له ويسأله الرجوع فأبى وتمّ على وجهه فقابله عبدالله بن مطيع ولما علم بوجهه قال له أذكرك الله يا ابن رسول الله وحرمة الإسلام أن تنتهك أنشدك الله

فى حرمة العرب فوالله لئن طلبت ما فى أيدى بنى أمية ليقتلنك ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً والله إنها لحرمة الإسلام وحرمة قريش وحرمة العرب فلا تفعل ولا تأت الكوفة ولا تعرض نفسك لبنى أمية فأبى إلا أن يمضى

ولما كان بالثعلبية جاءه مقتل مسلم بن عقيل فقال له بعض أصحابه ننشدك الله إلا ما رجعت من مكانك فإنه ليس لك بالكوفة ناصر ولا شيعة بل نتخوف أن يكونوا عليك فوثب بنو عقيل وقالوا والله لا نبرح حتى ندرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم فسار حتى نزل بطن العقبة وهناك لقيه رجل من العرب فقال أنشدك الله إلا ما انصرفت فوالله ما تقدم إلا على الأسنة وحد السيوف إن هؤلاء الذين بعثوا إليك لو كانوا كفوك مؤنة القتال ووطئوا لك الأشياء فقدمت عليهم لكان ذلك رأيا فأما على هذه الحال التى تذكر فلا أرى أن تفعل فأبى أن يرجع ولما ترك شراف قابلته خيل عدتها ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمى فقال لهم الحسين أيها الناس إنها معذرة إلى الله وإليكم إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا إمام لعل الله أن يجعلنا بك على الهدى فقد جئتكم فان تعطونى ما أطمئن إليه من عهودكم أقدم مصركم وإن لم تفعلوا كنتم لمقدمى كارهين انصرفت منكم إلى المكان الذى أقبلنا منه فلم يجيبوه بشىء فى ذلك ثم قال له الحر إنا أمرنا إذا نحن لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد فقال الحسين الموت أدنى إليك من ذلك ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا فمنعهم الحر من ذلك فقال الحسين ثكلتك أمك ما تريد فقال أما والله لو غيرك من العرب يقولها ما تركت ذكر أمه بالثكل كائناً من كان ولكنى والله مالى إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما يقدر عليه ثم صار الحر يراقبه حتى لا يتمكن من الانصراف إلى المدينة فسار الحسين يتجه إلى الشمال حتى وصل نينوى وحينذاك قدم عليهم جيش سيره ابن زياد لقتال الحسين يقدمه عمر بن سعد بن أبى وقاص فلما قدم أرسل الحسين رسولا يسأله ما الذى جاء به فقال الحسين كتب إلى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فلما أذ كرهونى فانى أنصرف عنهم فكتب عمر إلى ابن زياد بذلك فقال

ألآن إذ عرضت مخالبنا به يرجو النجاة ولات حين مناص

ثم كتب إلى ابن سعد يأمره أن يعرض على الحسين بيعة يزيد فاذا قبل ذلك رأينا رأينا وأن يمنعه هو ومن معه الماء : وكان الحسين يعرض عليهم أن يدعوه يرجع إلى المكان الذى خرج منه وليس بصحيح أنه عرض عليهم أن يضع يده فى يد يزيد

فلم يقبلوا منه تلك العودة وعرضوا عليه أن ينزل على حكم ابن زياد ومثل هذا الطلب لا يقبله الحسين مهما يكن من الأمر فلم يكن إلا القتال وفى عاشر المحرم سنة ٦١ انتشب القتال بين هاتين الفئتين جيش العراق الذى لم يكن فيه أحد من أهل الشام وهذه الفئة القليلة ومن معه وهم لا يزيدون عن ٨٠ رجلا ولم يكن إلا قليل وقت حتى قتل الحسين وسائر من معه وعدة من قتل اثنان وسبعون رجلا وقتل من أصحاب ابن سعد ٨٨ رجلا ثم أخذوا رأس الحسين وحملوها إلى ابن زياد ومعها بنات الحسين وإخوته ومعهم على بن الحسين صغير مريض فأمر ابن زياد بحمل الرأس ومعها النساء والصبيان إلى يزيد فلما بلغوا الشام وأخبر يزيد بالخبر دمعت عيناه وقال كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن الله ابن سمية أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ثم قال لمن عنده أتدرون من أين أتى هذا! قال أبى خير من أبيه وأمى خير من أمه وجدى رسول الله خير من جده وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر فأما قوله أبوه خير من أبى فقد تحاج أبى وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له وأما قوله أمه خير من أمى فلعمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمى وأما قوله جده خير من جدى فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ولكنه إنما أتى من قبل فقهه ولم يقرأ (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء) ثم أمر بالنساء فأدخلن دور يزيد فلم تبق امرأة من آل يزيد إلا أتتهن وأقمن المأتم وسألهن عما أخذ منهن فأضعفه لهن ثم قرب اليه على بن الحسين وجهزهن بعد ذلك إلى المدينة وقال لعلى يابنى كاتبنى بكل حاجة تكون لك

بذلك الشكل المحزن انتهت هذه الحادثة التى أثارها عدم الأناة والتبصر فى العواقب فإن الحسين بن على رمى بقول مشيريه جميعا عرض الحائط وظن بأهل العراق خيراً وأهم أصحاب أبيه فقد كان أبوه خيراً منه وأكثر عند الناس وجاهة وكانت له بيعة فى الأعناق ومع كل ذلك لم ينفعوه حتى تمنى فى آخر حياته الخلاص منهم . أما الحسين فلم تكن له بيعة وكان فى العراق عماله وأمراؤه فاغتر ببعض كتب كتبها دعاة الفتن ومحبو الشر فحمل أهله وأولاده وسار إلى قوم ليس لهم عهد وانظروا كيف تألف الجيش الذى حاربه هل كان إلا من أهل العراق وحدهم الذين يرفعون عقيرتهم بأنهم شيعة على بن أبى طالب وعلى الجملة فإن الحسين أخطأ خطأ عظيما فى خروجه هذا الذى

جر على الأمة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا وقد أكثر الناس من الكتابة فى هذه الحادثة لايريدون بذلك إلاأن تشتعل النيران فى القلوب فيشتد تباعدها : غاية مافى الأمر أن الرجل طلب أمراً لم يتهيأ له ولم يعد له عدته فحيل بينه وبين مايشتهى وقتل دونه وقبل ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكاتبين ومن يبشع أمر قتله ويزيد به نار العداوة تأجيجا وقد ذهب الجميع إلى ربهم يحاسبهم على مافعلوا والتاريخ يأخذ من ذلك عبرة وهى أنه لاينبغى لمن يريد عظائم الامور أن يسير اليها بغير عدتها الطبيعية فلا يرفع سيفه إلا إذا كان معه من القوة ما يكفل له النجاح أو يقرب من ذلك كما أنه لابد أن تكون هناك أسباب حقيقية لمصلحة الأمة بأن يكون هناك جورظاهرلايحتمل وعسف شديد ينوء الناس بحمله أما الحسين فإنه خالف على يزيد وقد بايعه الناس ولم يظهر منه ذلك الجور ولا العسف عند إظهار هذا الخلاف

وقعة الحرة

لم تقف مصائب المسلمين عند قتل الحسين ومن معه بل حدثت حادثة هى فى نظرنا أدهى وأشنع وهى انتهاك حرمة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ومهبط الوحى الإلهى وهى التى حرمها عليه السلام كما حرم ابراهيم مكة فصارت هاتان المدينتان مقدستين لا يحل فيهما القتال فانتهاك حرمة أحدهما من الشرور العظيمة والمصائب الكبرى فكيف بانتهاك حرمتهما معاً فى سنة واحدة

أما حادثة المدينة فإنه فى عهد إمارة عثمان بن محمد أبى سفيان عليها أوفد إلى يزيد بدمشق وفداً من أشراف أهل المدينة فيهم عبدالله بن حنظلة الانصارى وعبدالله ابن أبى عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومى والمنذر بن الزبير وغيرهم ولما قدموا على يزيد أكرمهم وأحسن اليهم وأعظم جوائزهم فأعطى عبد الله بن حنظلة وكان شريفا فاضلا عابداً سيداً مائة الف درهم وكان معه ثمانية بنين فأعطى كل ولد عشرة آلاف وأعطى المنذر بن الزبير مائة ألف فلما قدموا إلى المدينة أقاموا فى أهلها فأظهروا شتم يزيد وعيبه وأعلنوا أنهم خلعوه فتابعهم الناس وولوا أمرهم عبد الله ابن حنظلة ولما علم بذلك يزيد أرسل النعمان بن بشير الأنصارى إلى المدينة لينصح قومه جماعتهم وأمرهم بلزومهم الطاعة وخوفهم الفتنة وقال لهم إنكم لاطاقة لكم بأهل

الشام فلم تجد نصيحته نفعا فعاد عنهم وحينذاك قام هؤلاء الثائرون وحصروا من في المدينة من بنى أمية فى دارمروان فكتبوا إلى يزيد يستغيثون به فلما جاءه كتابهم قال متمثلا

لقد بدلوا الحكم الذى فى سجيتى فبدلت قومى غلظة بليان

وحينذاك جهز جيشاً أمر عليه مسلم بن عقبة المزى وكان عدة من تجهز معه اثناعشر الفا وقال له يزيد ادع القوم ثلاثا فإن أجابوك وإلا فقاتلهم فإن ظهرت عليهم فأبحها ثلاثا فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند فإذا مضت الثلاث فأكف عن الناس وانظر على بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيرا فإنه لم يدخل مع الناس وإنه قد أتانى كتابه . سار مسلم بالجيش فلما بلغ أهل المدينة الخبر شددوا فى حصار بنى أمية ولم يفكروا عنهم الحصار إلا بعد أن عاهدوهم أن لا يبغوهم غائلة ولايدلوا لهم على عورة ولايظاهروا عليهم عدوا وبذلك جعلوهم يخرجون من المدينة فخرجوا وقابلوا مسلما بوادى القرى فدعا بعمرو بن عثمان وقال له ما وراءك فقال لا أستطيع فقد أخذت علينا العهود والمواثيق أن لا ندل على عورة ولانظاهرعدوا فانتهره وقال والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك ثم دخل عليه عبد الملك بن مروان فقال هات ما عندك فقال نعم أرى أن تسير بمن معك فإذا انتهيت إلى ذى نخلة نزلت فاستظل الناس فى ظله وأكلوا من تمره فإذا أصبحت من الغد مضيت وتركت المدينة ذات اليسار ثم درت بها حتى تأتيهم من قبل الحرة مشرقا ثم تستقبل القوم فإذا استقبلتهم وقد أشرقت عليهم الشمس طلعت بين أكتاف أصحابك فلا تؤذيهم ويصيبهم أذاها ويرون من ائتلاق بيضكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم مالاترونه أنتم مادامو امغربين ثم قاتلهم واستعن بالله عليهم . ثم دخل عليه مروان فقال إيه فقال مروان أليس قد دخل عليك عبد الملك قال بلى وأى رجل عبدالملك قلما كلمت من رجال قريش رجلا شبيها به قال مروان إذا لقيت عبد الملك فقد لقيتنى

ثم سار مسلم حسب وصية عبد الملك فلما ورد المدينة دعا أهلها وقال إنّ أمير المؤمنين يزعم أنكم الأصل وإنى أكره إراقة دمائكم وإنى أؤجلكم ثلاثا فمن ارعوى وراجع الحق قبلنا منه وانصرفت عنكم وسرت إلى هذا المحل الذى بمكة وإن أبيتم كنا قد أعذرنا اليكم فلم يبالوا وحاربوا وكان القتال بين الفريقين شديدا جداولكن

انتهى بهزيمة أهل المدينة بعد أن قتلت ساداتهم وأباح مسلم المدينة ثلاثا يقتلون الناس ويأخذون المتاع والأموال وبعد ذلك دعا مسلم الناس للبيعة ليزيد على أنهم خول له يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم فمن امتنع عن ذلك قتله ثم أتى بعلى بن الحسين فأكرمه لوصية يزيد ولم يلزمه بالبيعة وكانت هذه الوقعة لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ٦٣

وإن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة فى قيامهم وحدهم بخلع خليفة فى إمكانه أن يجرد عليهم من الجيوش مالا يمكنهم أن يقفوا فى وجهه ولا يدرى ماالذى كانوا يريدونه بعد خلع يزيد أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية لهم خليفة منهم يلى أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول فى أمرهم وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم فى هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية - إنهم فتقوا فتقا وارتكبوا جرما فعليهم جزءا عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة وكان من اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف فى معاملتهم بهذه المعاملة فإنه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار فإن المدينة لاتحتمل الحصار كثيرا لأنه ليس فيها مايمون أهلها وماؤها يجىء من الخارج فلوقطعوه عنهم مااستمروا يومين كاملين وربما يقال إن أهل المدينة تعجلوا بحرب أهل الشام لأنه كان لهم خندق تركوه وراء ظهورهم وخرجوا محاربين . بعد الانتصار لم يكن هناك معنى لإباحة ذلك الحرم ثلاثا احتراما لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا وإنا نعوذ بالله من الرءوس التى إذا هاجت لاتنظر فى عاقبة ولاتفكر فى مستقبل

حصار مكة

وثالثة الحوادث التى معظم تبعتها على عبدالله بن الزبير حصار مكة فإن مسلما لما انتهى من أمر المدينة سار قاصدا مكة لحرب ابن الزبير واستخلف على مكة روح بن زنباع الجذامى وقد أدركت المنية مسلما بالشلل فاستخلف على الجند الحصين بن نمير كأمر يزيد فسار بالجند إلى مكة فقدمها لأربع بقين من المحرم سنة ٦٤ وقد بايع أهلها وأهل الحجاز لعبد الله بن الزبير وقدم عليه نجدة بن عامر الحنفى الخارجى لمنع البيت : فخرج ابن الزبير لقاء أهل الشام فحاربهم حربا انكشف فيها أصحابه فسار راجعا إلى مكة فأقاموا عليه يقاتلونه بقية المحرم وصفر كله حتى إذا مضت ثلاثة أيام من ربيع الأول رموا البلد بالمنجنيق ولم يزل الحصار حتى بلغهم نعى يزيد بن معاوية فوقف القتال : هذه ثلاث

كبرى داخلية حصلت فى أيام يزيد جعلت اسمه عند عامة المسلمين مكروها حتى استحل بعضهم لعنه ونحن بعد أن بسطنا أمامكم هذه الحوادث وآثارها لا نرى من العدل أن يتحمل يزيد كل تبعتها بل إن الذى يتحمله جزء صغير منها لأنه خليفة بايعه معظم المسلمين وخالف عليه قليل منهم فليس من المعقول أن يتركهم وما يشتهون لتتفرق الكلمة وليس من السهل أن ينزل لهم عما تقلده فهو فيما نرى مجبور على فعل ما فعل وإنما الذى عليه تلك الشدة التى أجرتها جنوده بعد أن تم لها النصر

الفتوح فى عهد يزيد

استعمل يزيد عقبة بن نافع على إفريقية كما وعده معاوية بذلك فسار إليها ولما وصل إلى القيروان قبض على أبى المهاجر وأوثقه فى الحديد وترك بالقيروان جنداً مع الذرارى والأموال ثم سار فى عسكر عظيم حتى دخل مدينة باغايه وقد اجتمع بها كثير من الروم فقاتلوه قتالا شديداً وانهزموا عنه ودخل المنهزمون المدينة فحاصرهم عقبة ثم كره المقام عليهم فسار إلى بلاد الزاب وهى بلاد واسعة فيها عدة مدن وقرى كثيرة فقصد مدينتها العظمى واسمها أربة فامتنع من بها من الروم فقاتلتهم الجنود الإسلامية حتى هزمتهم ثم رحل إلى تاهرت: فلما بلغ الروم خبره استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم فاجتمعوا فى جمع كثير واشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو ولكن العاقبة كانت لهم فانهزمت الروم والبربر وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ثم سار حتى نزل على طنجه فلقيه بطريق رومى اسمه يليان فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه ثم سار نحو السوس الأدنى وهو مغرب طنجه فلقيته البربر فى جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم هزيمة منكرة ثم سار نحو السوس الأقصى وقد اجتمع له جمع عظيم من البربر فقاتلهم وهزمهم وسار بعد ذلك حتى بلغ بحر الظلمات فقال يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهداً فى سبيلك ثم عاد فنفر الروم والبربر من طريقه خوفا منه ولما وصل إلى مدينة طبنة وبينها وبين القيروان ثمانية أيام أمر أصحابه أن يتقدموا فوجا فوجا ثقة منه بما نال من العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه وسار إلى تهوذا لينظر إليها فى نفر يسير فلما رآه الروم فى قلة طمعوا فيه فأغلقوا باب الحصن وشتموه وقاتلوه وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منه وكان فى الجيش كبير من البربر اسمه كسيلة قد أسلم فى أيام أبى المهاجر فلما جاء عقبة وأساء إلى أبى المهاجر استخف بكسيلة وصار يحتقره فقال له أبو المهاجر أوثق الرجل فإنى أخاف عليك منه فتهاون به عقبة فلما رأى الروم قلة من مع

عقبة راسلوا كسيلة فى أن ينضم إليهم فقبل وجمع أهله وبنى عمه وقصد عقبة فقال له أبو المهاجر عاجله قبل أن يقوى جمعه فزحف عقبة إلى كسيلة فتنحى هذا عن طريقه ليكثر جمعه ولما كثر اتفق مع الروم فهاجموا المسلمين وقتلوهم فقتل المسلمون جميعهم لم يفلت منهم أحد وقتل عقبة وأبو المهاجر وكان فى القيروان قيس بن زهير البلوى خليفة عليها فأراد القتال فلم يطعه الجيش فاضطر إلى مبارحة القيروان والمسير إلى برقة والمقام بها أما كسيلة فإنه جاء القيروان وامتلكها وآمن من فيها من أصحاب الأنفال والذرارى من المسلمين واستولى على إفريقية وسنبين ما كان من أمره بعد

وفاة يزيد

لأربع عشر خلت من شهر ربيع الأول سنة ٦٤ (١٠ نوفمبر سنة ٦٨٣) توفى يزيد بن معاوية بحوران من أرض الشام وسنه تسع وثلاثون سنة ومدّة خلافته ثلاث سنوات وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما

بيت يزيد

تزوج يزيد أم هاشم بنت عتبة بن ربيعة وكان له منها معاوية وخالد ويكنى أبا هاشم وتزوج أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر وكان له منها عبد الله وكان أرمى العرب وكان له من الأولاد عبد الله الأصغر وعمر وأبو بكر وعتبة وحرب وعبد الرحمن لأمهات أولاد شتى

المحاضرة الخامسة والثلاثون

معاوية الثانى — عبدالله بن الزبير — حال الشام مروان الأول
عبد الملك — تغلبه على ابن الزبير وقتله — الحجاج بالعراق

معاوية الثانى — عبدالله بن الزبير

بعدموت يزيد كانت بيعتان أحدهما بالشام لمعاوية بن يزيد والثانية بمكةوالحجاز لعبدالله بن الزبير

فأما معاوية فكانت سنه إحدى وعشرين سنة اختاره أهل الشام للخلافة بعد موت أبيه إلا أنه بعد قليل من خلافته نادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس فحمدالله وأثنى عليه ثم قال (أما بعد فأنى قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم) ثم دخل منزله وتغيب حتى مات بعد ثلاثة أشهر من خلافته

هكذا فعل ذلك الشاب الضعيف حينما رأى عصا المسلمين منشقة ولم ير من نفسه القدرة على لم شعثها وإصلاح أمرها

أما ابن الزبير فإنّ يزيد مات وحصين بن نمير محاصرله وقداشتد الحصار عليه فجاءه الخبر قبل أن يصل لرئيس الجند المحاصر فناداه علام تقاتلون وقدهلك طاغيتكم فلم يصدّقوه ولما وصل الخبر الحصين بعث إلى ابن الزبير يريد محادثته فجاءه فكان فيما قال له أنت أحق بهذا الامر هلم فلنبايعك ثم اخرج معنا إلى الشام فإن هذا الجند الذين معي هم وجوه الشام وفرسانه فوالله لايختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التى كانت بيننا وبينك وبين أهل الحرم فقال له أنا لاأهدر الدماء والله لاأرضى أن أقتل بكل رجل منهم عشرة منكم وأخذ الحصين يكلمه سراً وهو يجهر ويقول والله لاأفعل فقال له الحصين قد كنت أظن لك رأياوأنا أكلمك سراً وتكلمنى جهراً وأدعوك إلى الخلافة وأنت لاتريد إلا القتل والهلكة ثم فارقه ورحل إلى

المدينة فالشام فوصلوها وقد بويع لمعاوية بن يزيد

هذا حال الشام لا إمام فيه والحجاز فيه ابن الزبير . أما العراق فان عبيد الله بن زياد لما بلغه نعى يزيد نادى الصلاة جامعة فلما اجتمع الناس قال يا أهل البصرة إن مهاجرنا إليكم ودارنا فيكم ومولدى فيكم ولقد وليتكم ومايحصى ديوان مقاتلتكم إلاسبعين ألفا ولقد أحصى اليوم مائة ألف وما كان يحصى ديوان عمالكم إلاتسعين ألفاً ولقد أحصى اليوم مائة وأربعين ألفاً وماتركت لكم قاطبة من أخافه عليكم إلاوهو فى سجنكم وإن يزيد قدتوفى واختلف الناس بالشام وأنتم اليوم أكثر الناس عدداً وأعرضهم فناء وأغنى عن الناس وأوسعهم بلاداً فاختاروا لأنفسكم رجلا ترضونه لدينكم وجماعتكم فأنا أول راض من رضيتموه فان اجتمع أهل الشام على رجل ترضونه لدينكم وجماعتكم دخلتم فيه فيما دخل المسلمون وإن كرهتم ذلك كنتم على أحد يليكم حتى تقضى حاجتكم فمابكم إلى أحد من أهل البلدان حاجة ولايستغنى الناس عنكم : فقالوا له قدسمعنا مقالتك ومانعلم أحداً أقوى عليها منك فهلم فلنبايعك فأبى عليهم ذلك ثلاثا ثم بسط يده فبايعوه ثم انصرفوا عنه يمسحون أيديهم بالحيطان ويقولون أيظن ابن مرجانة أنا ننقاد له فى الجماعة والفرقة ثم أرسل إلى أهل الكوفة من يطلب بيعتهم له فأبوا عليه : ولما علم أهل البصرة بإبائهم أظهروا النفرة منه وخلعوه ودعا بعضهم إلى بيعة ابن الزبير فأجابه إلى ذلك أكثرهم وضعف أمر ابن زياد وخاف أهل البصرة على نفسه فاستجار بالحرث بن قيس الأزدى ثم بمسعود ابن عمرو سيد الأزد فأجاراه حتى هرب إلى الشام : واختار أهل البصرة واليا عليهم عبد الله بن الحرث بن نوفل الملقب ببية فبايعوه وأقبلوا به إلى دار الإمارة وذلك أول جمادى الآخرة سنة ٦٤ وكذلك اختار أهل الكوفة لهم أمير وكتب أهل المصرين إلى ابن الزبير بالبيعة فأرسل لهم العمال من عنده : وكذلك دخل فى بيعة ابن الزبير أهل مصر ولم يبق إلاالشام

حال الشام

كان رأس بنى أمية بالشام مروان بن الحكم : وكان أمير دمشق الضحاك بن قيس وكان هواه فى ابن الزبير يدعوله وأمير حمص النعمان بن بشير وأمير قنسرين زفر بن الحارث الكلابى وهواهم كلهم فى ابن الزبير يدعون له وكان أمير فلسطين

حسان بن مالك الكلبي وهواه فى بنى أمية وقد بايعه على الدعوة لهم أهل الأردن على شرط أن يجنبهم هذين الغلامين عبد الله وخالداً ابنى يزيد لأنهم قالوا إنا نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بغلام فكتب حسان إلى الضحاك بن قيس كتاباً يعظم فيه حق بنى أمية وحسن بلاغهم عنده ويذم ابن الزبير وأنه خلع خليفتين وأمره أن يقرأ كتابه على الناس وكتب كتاباً آخر سلمه لرسوله وقال له إن قرأ الضحاك كتابى على الناس وإلا فقم واقرأه عليهم فلما ورد كتابه على الضحاك لم يقرأه على الناس فقام رسول حسان وقرأ عليهم الكتاب فقال الوليد بن عتبة بن أبى سفيان صدق حسان وقام غيره فقالوا مثل مقاله فأمر بهم حسان فحبسوا ولكن عشائرهم أخرجوهم من الحبس وكان الذين فى دمشق فريقين فقيس تدعو إلى ابن الزبير وكلب تدعو إلى بنى أمية

خرج الضحاك بجموعه فنزل مرج راهط ودمشق بيده واجتمع بنو أمية وحسان بالجابية فتشاوروا فيمن يلى أمر المسلمين واتفق رأيهم أخيراً على تولية مروان بن الحكم فبايعوه لثلاث خلون من ذى القعدة سنة ٦٤

ولما تمت بيعته سار بالناس من الجابية إلى مرج راهط وبه الضحاك بن قيس ومن على رأيه واجتمع على مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون وكانت بين الفريقين مواقع هائلة عشرين ليلة فى مرج راهط وكانت الغلبة أخيراً لمروان فقتل الضحاك وقتل من قيس مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها فى موطن قط وكانت الوقعة فى المحرم سنة ٦٥ : ولما بلغ خبر الهزيمة النعمان بن بشير خرج من حمص هارباً فتبعه جماعة من أهلها فقتلوه : ولما بلغت الهزيمة زفر بن الحارث بقنسرين هرب فلحق بقرقيسيا وغلب عليها وتحصن بها واجتمعت إليه قيس وقد صحبه فى هزيمته شابان من بنى سليم فجاءت خيل مروان بطلبه فقال الشابان لزفر أنج بنفسك فإنا نحن نقتل فمضى وتركهما فقتلا وقال زفر فى ذلك

أرينى سلاحى لا أبالك إننى ☼ أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
أتانى عن مروان بالغيب أنه ☼ مقيد دمى أو قاطع من لسانيا
ففى العيس منجاة وفى الأرض مهرب ☼ إذا نحن رفعنا لهن المثانيا
فلا تحسبونى إن تغيبت غافلا ☼ ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ☼ وتبقى حزازات النفوس كما هيا

أتذهب كلب لم تنلها رماحنا * وتترك قتلى راهط هى ماهيا
لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط * لحسان صدعاً بيننا متنائيا
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا * ومقتل همام أمنى الأمانيا
فلم تر منى نبوة قبل هذه * فرارى وتركى صاحبى ورائيا
عشية أعدو بالقران فلا أرى * من الناس إلا من علىّ ولا ليا
أيذهب يوم واحد إن أسأته * بصالح أيامى وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا * وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألاليت شعرى هل تصيبنّ غارتى * تنوخا وحى طيْ من شفائيا

ولما تم الأمر لمروان بالشام سار إلى مصر فافتتحها وبايعه أهلها ثم عاد إلى دمشق فأقام بها

لم تطل مدّة مروان فى سلطانه فإنه توفى فى رمضان سنة ٦٥ وكان قد عهد بالخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز

ترجمة مروان

هو مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية وأمه آمنة بنت علقمة بن صفوان الكنانى ولد فى السنة الثانية من الهجرة وأسلم أبوه الحكم يوم الفتح فنشأ مروان مسلماً وكان فى عهد عثمان بن عفان كاتباً له ومدبرا وولى لمعاوية المدينة جملة مرات ولما مات يزيد أوشك أن يذهب إلى ابن الزبير فيبايعه لولا عبد الله بن زياد فإنه أشار عليه أن يطلب الخلافة لنفسه لأنه شيخ بنى أمية فاستشرف لها ووجد من ينصره على ذلك وتم له الأمر بعد وقعة مرج راهط وكان أمره فى الشام ومصر لم يتجاوزهما حتى مات وولى أمر الأمة من بعده ابنه

٥ — عبد الملك

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد سنة ٢٦ هـ بالمدينة وأمه عائشة بنت معاوية ابن الوليد بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية ولما شب كان عاقلا حازما أديبا لبيبا وكان معدودا من فقهاء المدينة يقرن بسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وقال الشعبى

ماذاكرت أحداً إلا وجدت لى الفضل عليه إلاعبد الملك فإنى ماذا كرته حديثاً إلا زادنى فيه ولاشعراً إلازادنى فيه

ولى الخلافة بعدأبيه بعهد منه وكانت الحال فى البلاد الاسلامية على غاية الاضطراب فإن الحجاز به عبد الله بن الزبير وقد بايعه أهله وبلاد العراق أهلها ثلاث فرق زبيرية قد بايعوا ابن الزبير ودخلوا فى طاعته وشيعة تدعو إلى آل البيت وخوارج وهم من عرفتم حديثهم قبل فتاقى الأمر بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى دان الناس له واجتمعت الكلمة عليه

كان مروان قبل وفاته قد جهز جيشا يقوده عبد الله بن زياد إلى الجزيرة ومحاربة زفر بن الحارث بقرقيسيا واستعمله على كل مايفتحه فإذا فرغ من الجزيرة توجه إلى العراق وأخذه من ابن الزبير فلما كان بالجزيرة بلغه موت مروان وأتاه كتاب عبد الملك يستعمله على مااستعمله عليه أبوه ويحثه على المسير إلى العراق فسار حتى إذا كان بعين الوردة قابلته جنود مقبلة من العراق لم يبعثهم أمير ولكنهم خرجوا للمطالبة بدم الحسين وسموا أنفسهم التوابين وهم جماعة من الشيعة ندموا على خذلانهم الحسين بن على ولم يروا أنهم يخرجون من هذا الذنب إلا إذا قاموا للمطالبة بثأره وقتلوا قتلته وكان رئيسهم كبير الشيعة بالكوفة سليمان بن صرد الخزاعى فما زالوا يجمعون آلة الحرب ويدعون الناس سراً إلى ماعزموا عليه حتى تم لهم ما أرادوا سنة ٦٥ فخرجوا حتى إذا كانوا بعين الوردة قابلتهم جنود الشام فكان بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها سليمان بن صرد رئيس الشيعة ومعظم من معه ونجا قليل منهم وكانوا نحواً من ستة آلاف ولما بلغ عبدالملك قتل سليمان قام خطيباً فى أهل الشام فقال إنّ الله قد أهلك من رءوس أهل العراق ملقح فتنة ورأس ضلالة سليمان بن صرد ألا وإنّ السيوف قد تركت رأس المسيب خذاريف وقد قتل الله منهم رأسين عظيمين ضالين مضلين عبد الله بن سعد الأزدى وعبد الله بن وال البكرى ولم يبق بعدهم من عنده امتناع

بعد مقتل هؤلاء ثار بالكوفة رجل الفتنة الكبير المختار بن أبى عبيد الثقفى وكان وثوبه بها رابع عشر ربيع الأول سنة ٦٦ فأخرج منها عامل ابن الزبير وهو عبدالله ابن مطيع وكان وثوبه باسم محمد بن الحنفية زاعماً أنه هو الذى أرسله للأخذ بثار

الحسين ولقبه بالإمام المهدى وكان هذا التلقيب أول ظهور كلمة المهدى فى عالم الوجود وكان يود أن يتبعه على رايه إبراهيم بن الأشتر لقوة بطشه وسمو شرفه فأرسل إليه المختار من يعرض عليه ذلك فقبل على شرط أن يكون هو ولى الأمر فقالوا له إنّ المختار قد جاء من قبل المهدى وهو المأمور بالقتال وقد أمرنا بطاعته فسكت ولما كان بعد ثلاث توجه إليه المختار بكتاب مفتعل من ابن الحنفية إلى ابن الأشتر يسأله فيه أن يكون مع المختار وعنوان الكتاب (هذا كتاب من محمد المهدى إلى إبراهيم ابن مالك الأشتر) فقال إبراهيم قد كتبت إلى ابن الحنفية قبل اليوم وكتب إلىّ فلم يكتب إلا باسمه واسم أبيه قال المختار ذاك زمان وهذا زمان قال ابن الأشتر فمن يعلم أنّ هذا كتابه فشهد جماعة ممن مع المختار أنه كتابه فتأخر إبراهيم عن صدر الفراش وأجلس المختار عليه وبايعه واتفقوا على الوثوب فى التاريخ الذى بيناه. ولما حان الموعد وثبوا وغلبوا على الكوفة وكانوا ينادون يالثارات الحسين وكانت بيعة أهل الكوفة على كتاب الله وسنة رسوله والطلب بدماء أهل البيت وقتال المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا ثم بعث العمال على أمصار الكوفة وكان من أهم الأمور لديه انتخاب جيش يوجهه إلى قتال ابن زياد الذى أرسله عبد الملك لافتتاح العراق وقبل ذلك تتبع قتلة الحسين بالكوفة فقتلهم قتلا ذريعاً ومنهم عمر ابن سعد وغيره ممن كان فى ذلك البعث ثم دخلت فى بيعته البصرة وكان عمل المختار سببا لتغيير ابن الزبير على محمد بن الحنفية ومن معه من أهل بيته فدعاهم ليبايعوه فأبوا عليه فحبسهم فأرسل إليهم المختار من خلصهم من سجنه ثم خرج إلى الشام نحو عبد الملك ولما وصل أيلة بدا له فعاد إلى مكة ونزل شعب أبى طالب فأمره ابن الزبير بالرحيل فذهب إلى الطائف وأقام بها

ثم إنّ المختار تخير الجند لمحاربة ابن زياد وجعل قائدهم إبراهيم بن الاشتر فسار حتى التقى بجنود الشام على نهر الخازر فكان بين الفريقين موقعة هائلة انتصر فيها ابن الاشتر وقتل عبيد الله بن زياد بعد أن ذهب من جند الشام عدد وافر قتلا وغرقا فى نهر الخازر ولما انتهت الموقعة أرسل ابن الاشتر العمال إلى البلاد الجزرية

بعد أن تم الأمر للمختار ولى ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة فجاءها وصعد منبرها وقال للناس بعد أن حمد الله وأثنى عليه (طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا

عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إنّ فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين) وأشار نحو الشام - (ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض) - وأشار نحو الحجاز - (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وأشار نحو الكوفة - وقال ياأهل البصرة بلغنى أنكم تلقبون أمراءكم وقد لقبت نفسى بالجزار

وجاءه وهو بالبصرة أشراف من أهل الكوفة وهم الذين ليسوا راضين عن المختار وطلبوا منه أن يسير لتخليص الكوفة منه فجند مصعب جنداً عظيما قاده بنفسه ومعه أشراف المصرين وسار نحو الكوفة فبلغ خبره المختار فانتدب له جنداً قابل مصعبا عند المذار وكان النصر لمصعب فانهزم جند الكوفة فسار مصعب يتبعهم حتى وصل الكوفة وقاتل بها أصحاب المختار حتى قهرهم وخرج المختار من القصر مستقتلا فقتل وقتل جميع من كانوا معه بالقصر صبراً ومن غريب ماوقع أنهم قتلوا امرأة المختار عمرة بنت النعمان بن بشير فقال فى ذلك عمر بن أبى ربيعة

إنّ من أعجب العجائب عندى　　قتل بيضاء حرة عطبول

قتلت هكذا على غير جرم　　إنّ لله درها من قتيل

كتب القتل والقتال علينا　　وعلى الغانيات جر الذيول

وبذلك عاد أمر العراق لابن الزبير وكان الأمر بالشام ومصر لعبد الملك بن مروان فأراد أن يجمع كلمة الناس عليه فتجهز لقصد العراق ولما أراد الخروج ودع زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية فبكت فقال قاتل الله كثير عزة لكأنه يشدنا حيث يقول

إذ ما أراد الغزو لم يثن همه　　حصان عليها عقد در يزينها

نهته فلما لم تر النهى عاقه　　بكت وبكى مما عناها قطينها

ثم سار عبد الملك إلى العراق فبلغ خبره مصعباً فتجهز له وجعل على مقدمته إبراهيم ابن الاشتر فتقابل الجيشان بمسكن وكان كثير من أهل العراق الذين كاتبوا عبد الملك وكاتبهم فكانت نياتهم فاسدة فلما حصلت الموقعة انهزم أهل العراق وبقى مصعب مع قليل من المخلصين له فأنشد

وإن الالى بالطف من آل هاشم　　تأسوا فسنوا للكرام التأسيا

وما زال يقاتل حتى قتـل ودخل عبد الملك الكوفة فوعد المحسن وتوعد المسىء وولى على المصرين عمالا من قبله قال بعض الشعراء فى مقتل مصعب

حمى أنفه أن يقبل الضيم مصعب — فمـات كريما لم تذم خلائقه
ولو شاءأعطى الضيم من رام هضمه — فعاش ملوما فى الرجال طرائقه
ولـكن مضى والبرق يبرق خاله — يشـاوره مرآ ومرآ يعانقه
فولى كريما لم تنله مذمة — ولم يك وغدا تطبيه نمـارقه

بذلك لم يبق خارجا عن سلطان عبد الملك إلا الحجاز فوجه وهو بالكوفة جنداً إلى مكة يقوده الحجاج بن يوسف الثقفى لقتال عبد الله بن الزبير فسار إليه فى جمادى الأولى سـنة ٧٢ فلما وصل مكة حصر ابن الزبير بها ورماها بالمجانيق ولم يزل الأمر على ذلك حتى اشتدت الحال على أهل مكة من الحصار فتفرقوا عن ابن الزبير وخرجوا بالأمان إلى الحجاج وكان ممن فارقه أبناه حمزة وحبيب ولما رأى ابن الزبير أنه لم يبق معه إلا قليل لايغنون عنه شيئا دخل على أمه أسمـاء بنت أبى بكر فقال يا أماه خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ماأردت من الدنيا فما رأيك فقالت أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتـل عليه أصحابك ولا تمـكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلـكت نفسك ومن قتل معك وإن قتلت كنت على حق فلما أدهن أصحابى ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك فى الدنيا القتل أحسن . فقال :

يا أماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى : قالت يا بنى إن الشاة لاتتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وقال هذا رأيى والذى خرجت به دائبا إلى يومى هذا ماركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها ومادعانى إلى الخروج إلا الغضب لله وأن تستحل حرماته ولـكننى أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتنى بصيرة فانظرى يا أماه فإنى مقتول يومى هـذا فلايشتد حزنك وسلمى الأمر إلى الله فان ابنك لم يتعهد إيثار منـكر ولاعمل بفاحشة ولم يجر فى حكم الله ولم يغدر فى أمان ولم يتعهد ظلم مسلم أومعاهد ولم يبلغنى ظلم عن عمالى فرضيت به بل أنـكرته ولم يكن شىء آثر عندى من رضا ربى . اللهم لاأقول هذا تزكية لنفسى ولـكنى أقوله

تعزية لأمى حتى تسلو عنى فقالت أمه لارجو أن يكون عزائى فيك جميلا أن تقدمتنى احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك اخرج حتى أنظر إلى مايصير إليه أمرك فقال جزاك الله خيراً فلاتدعى الدعاء لى قالت لاأدعه لك أبداً فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق ثم خرج فقاتل حتى قتل وكانت سنه ثلاثا وسبعين سنة وبعد قتله صلبت جثته ثم أنزلت بأمر من عبد الملك

مكث ابن الزبير خليفة بالحجاز تسع سنين لأنه بويع له سنة ٦٤ وبقتل ابن الزبير صفا الأمر لعبد الملك فى جميع الأمصار الإسلامية واجتمعت عليه الكلمة وبقى الحجاج واليا على مكة والمدينة حتى سنة ٧٥ وفيها عزله عبدالملك عنهما وولاه العراقين فسار إلى الكوفة فى اثنى عشر راكبا على النجائب حتى دخلها فبدأ بالمسجد فصعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء فأجمع إليه الناس وهو ساكت قد أطال السكوت حتى أراد بعضهم أن يحصبه ثم كشف اللثام عن وجهه وقال

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

ياأهل الكوفة إنى لأرى رؤسا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى ثم قال

هذا أوان الشد فاشتدى زيم [1] قد لفها الليل بسواق حطم [2]

وليس براعى إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم [3]

ثم قال :

قد لفها الليل بعصلبى [4] أروع [5] خراج من الدوى [6]

مهاجر ليس بأعرابى

وقال قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وترعرد [7] مثل ذراع البكر أو أشد

لابد مما ليس منه بد

(١) يعنى فرسا أو ناقة (٢) الحطم الذى لايبقى من السير شيئا

(٣) الوضم كل ما قطع عليه اللحم (٤) الشديد (٥) ذكى

(٦) الصحراء الواسعة التى تسمع بها دويا بالليل ويريد بها الغماء الشديدة

(٧) شديد

إنى والله ياأهل العراق مايقعقع لى بالشنان [١] ولا يغمز جانبى كتغماز التين ولقد فررت عن ذكاء [٢] وفتشت عن تجربة وإنّ أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم [٣] عيدانها فوجدنى أمرّها عوداً وأصلبها مكسراً فرماكم بى لأنكم طالما أوضعتم [٤] فى الفتنة واضطجعتم فى مراقد الضلال والله لأحزمنكم حزم السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل فإنكم لكأهل قرية (كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) وإنى والله ما أقول إلا وفيت ولا أهم إلا مضيت ولا أخلق إلا فريت وإنّ أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه . ياغلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأ :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم فلم يقل أحد شيئا فقال الحجاج أكفف ياغلام ثم أقبل على الناس فقال أسلم عليكم أمير المؤمنين فلم تردّوا عليه شيئا هذا أدب ابن نهيه [٥] أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن اقرأ ياغلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ إلى قوله سلام عليكم فلم يبق أحد فى المسجد إلا قال على أمير المؤمنين السلام ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يرعش كبرا فقال أيها الأمير إنى من الضعف على ما ترى ولى ابن هو أقوى على الأسفار منى فتقبله بدلا عنى فقال الحجاج نفعل أيها الشيخ فلما ولى قال قائل أتدرى من هذا أيها الأمير قال لا قال هذا عمير بن ضابىء البرجمى الذى يقول أبوه

همت ولم أفعل وكدت وليتنى ترکت على عثمان تبكى حلائله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا فكسر ضلعين من أضلاعه فقال ردوه فلما ردّ قال أيها الشيخ هلا بعثت إلى أمير المؤمنين عثمان بدلا يوم الدار إنّ فى قتلك

---

(١) وأحدها شنّ وهو الجلد اليابس فإذا ضرب به نفرت الإبل فضرب ذلك مثلا لنفسه (٢) الذكاء حدّة القلب (٣) مضغها لينظر أيها أصلب

(٤) الإيضاع ضرب من السير

(٥) رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج

أيها الشيخ صلاحا المسلمين ياحرسى اضربن عنقه فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيرتحل ويأمر وليه أن يلحقه بزاده فنى ذلك يقول عبدالله بن الزبير الأسدى

تجهز فإمّا أن تزور ابن ضابىء عميراً وإما أن تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما ركوبك حوليا من الثلج أشهبا
فأضحى ولو كانت خراسان دونه رآها مكان السوق أو هى أقربا

من هذه الخطبة وماتلاها تتبين خطة الحجاج التى أراد أن يسوس بها أهل العراق وهى خطة العسف والجور التى قدّمنا أنها لاتصلح أمّة إصلاحا حقيقياً أبداً وإنما تضع على المرجل غطاء لايلبث البخار أن يقتلعه ويطير به وتتبين حال أهل العراق وسكونهم إلى هـــذه الذلة يجيئهم الحجاج فى بضعة عشر راكباً وفيهم الأشراف والرؤساء فيخطبهم هذه الخطبة ويتوعدهم بالمصائب وهم ساكتون لايردّ أحد منهم عليه قولا ويوبخهم على ترك السلام على أمير المؤمنين فيستكينون ويخضعون وهم هم الذين فتحوا أبواب الشرور ومع هذا فيظهر مما سنقصه عليكم أنّ هذا الخضوع وقتى

وبعد ذلك ذهب إلى البصرة فخطب فيها خطبة تشابه خطبته بالكوفة فأتى برجل يشكرى فقال أيها الأمير إنّ بى فتقا وقد رآه بشر بن مروان فعذرنى وهذا عطائى مردود فى بيت المال فلم يقبل منه وقتله ففزع لذلك أهل البصرة فخرجوا حتى تداركوا على العارض بقنطرة رامهرمز وخرج الحجاج حتى نزل رستقاباذ فى أول شعبان سنة ٧٥ ومعه وجوه أهل البصرة وكان بينه وبين المهلب ١٨ فرسخاً فقام فى الناس فقال إنّ الزيادة التى زادكم بها ابن الزبير فى أعطياتكم لست أجيزها فقام إليه عبدالله بن الجارود العبدى وقال إنها ليست بزيادة ابن الزبير ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبدالملك أثبتها لنا فكذبه وتوعده فخرج عليه ابن الجارود وتابعه وجوه الناس فقاتله الحجاج حتى قتله وقتل جماعة من أصحابه وبعث برؤوسهم إلى المهلب وهو يقاتل الخوارج وانصرف إلى البصرة

فى سنة ٧٩ ولى الحجاج عبيدالله بن أبى بكرة سجستان فغزا رتبيل وقد كان مصالحا وقد كانت العرب قبل ذلك تأخذ منه خراجا وربما امتنع فلم يفعل فبعث الحجاج إلى ابن أبى بكرة يأمره بغزوه فتوغلوا فى بلاده فأصيبوا وهلك معظمهم ونجا أقلهم فرأى الحجاج أن يجهز إليهم جنداً كثيفا فجهز عشرين ألفا من البصرة ومثلهم من الكوفة

وجد فى ذلك وشمر وأعطى الناس أعطياتهم كملا وأخذهم بالخيول الروائع والسلاح الكامل واستعرض الناس ولا يرى رجلا تذكر منه شجاعة إلا أحسن معونته ولما استتب أمر ذينك الجندين ولى عليهم عبدالرحمن بن الأشعث فسار حتى قدم سجستان فصعد منبرها وقال أيها الناس إنّ الأمير الحجاج ولانى ثغركم وأمرنى بجهاد عدوّكم الذى استباح بلادكم وأباد أخياركم فإياكم أن يتخلف منكم رجل فيحل بنفسه العقوبة أخرجوا إلى معسكركم فعسكروا به مع الناس . فعسكر الناس فى معسكرهم ووضعت لهم الأسواق وأخذ الناس بالجهاز والهيئة لآلة الحرب ثم سار حتى دخل أوّل بلاد رتبيل وصار كلما حوى بلداً بعث إليه عاملا وبعث معه أعوانا ووضع البرد فيما بين كل بلد وبلد وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان مخوف حتى إذا حاز من أرضه أرضاً عظيمة وملأ يديه من الغنائم حبس الناس عن الوغول فى أرض رتبيل وقال نكتفى بما أصبناه العام من بلادهم حتى نجبيها ونعرفها ويجترئ المسلمون على طرقها ثم نتعاطى فى العام المقبل ما وراءها ثم لم نزل ننتقصهم فى كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتلهم آخر ذلك على كنوزهم وذراريهم وفى أقصى بلادهم ونمتنع حصونهم ثم لا نزايل بلادهم حتى يهلكهم الله وكتب إلى الحجاج بما كان برأيه فكتب إليه الحجاج أما بعد فإنّ كتابك أتانى وفهمت ما ذكرت فيه وكتابك كتاب امرئ يحب الهدنة ويستريح إلى الموادعة قد صانع عدواً قليلا ذليلا قد أصابوا من المسلمين جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم فى الإسلام عظيما لعمرك يا ابن أم عبدالرحمن أنك حيث تكف عن ذلك العدو بجندى وحدى لسخىّ النفس عمن أصيب من المسلمين إنى لم أعدد رأيك الذى زعمت أنك رأيته رأى مكيدة ولكنى رأيت أنه لم يحملك عليه إلا ضعفك والتياث رأيك فامض لما أمرتك به من الوغول فى أرضهم والهدم لحصونهم وقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم وقال فى كتاب آخر إن لم تفعل فإنّ إسحاق بن محمد أخاك أمير الناس فخله وماوليته فلما جاءه هذا الكتاب جمع الناس وأخبرهم بما جاء من عند الحجاج واستشارهم أيمضى أم يخالف فزينوا له المخالفة واستقر أمرهم على عصيان الحجاج وخلعه فخلعوه وبايعوا على ذلك عبدالرحمن فبعث إلى رتبيل فصالحه وعاد من سجستان إلى العراق مصمما على منازلة الحجاج ونفيه من العراق وبين يديه أعشى همدان يقول

شطت نوى من داره بالإيوان ⁂ إيوان كسرى ذى القرى والريحان
من عاشق أمسى بزابلستان ⁂ أن ثقيفاً منهم الكذابان
كذابها الماضى وكذاب ثان ⁂ أمكن ربى من ثقيف همدان
يوما إلى الليل يسلى ما كان ⁂ إنا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الإيمان ⁂ بالسيد الغطريف عبدالرحمن
سار بجمع كالدبى من قحطان ⁂ ومن معه قد أتى ابن عدنان
بجحفل جم شديد الارنان ⁂ فقل لحجاج ولى الشيطان
يثبت لجمع مذحج وهمدان ⁂ فإنهم سقوه كأس الديفان
وملحقوه بقرى ابن مروان

ولما دخل الناس فارس قال بعضهم لبعض إذا خلعنا الحجاج فقد خلعنا عبدالملك فخلعوه وبايعوا عبدالرحمن على كتاب الله وسنته وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين: ولما بلغ الحجاج خبره بعث إلى عبدالملك يخبره ويسأله أن يوجه الجنود إليه فهاله الأمر وبادر بإرسال الجنود الشامية إليه والحجاج مقيم بالبصرة فلما اجتمعت الجنود إليه سار بها حتى نزل تستر وقدم بين يديه مقدمته فقابلتها جنود ابن الأشعث فهزمت مقدمة الحجاج يوم الأضحى سنة ٨١ وأتت الحجاج الهزيمة فانصرف راجعا حتى نزل الزاوية وجاءت جنود ابن الأشعث حتى نزلت البصرة فبايعه أهلها وكان دخوله إليها فى آخر ذى الحجة سنة ٨١ ثم تقابل الجندان بالزاوية فهزمت جنود الحجاج ولما رأى ذلك جثى على ركبتيه وانتضى نحوا من شبر من سيفه وقال لله در مصعب ما كان أكرمه حين نزل به ما نزل وكان ذلك العمل مما قوى قلوب جنده حتى هزموا ميمنة أهل العراق وقتل منهم عدد وافر فمضى ابن الأشعث إلى الكوفة واستولى على قصرها وسار على أثره الحجاج حتى نزل دبر قرى وخرج ابن الأشعث حتى نزل دبر الجماجم قبل أن تقع بينهما الموقعة الفاصلة أشار عبدالملك مشيروه أن يعرض على أهل العراق عزل الحجاج عنهم فإن قبلوا وثابوا إلى الطاعة عزله عنهم فقبل وأرسل أخاه محمد بن مروان وابنه عبدالله ليعرضا ذلك على أهل العراق فان قبلوا نزع الحجاج عنهم وأجرى عليهم أعطياتهم وكان محمد بن مروان أمير العراق وإن أبوا فالحجاج أمير الناس فجاء الرسولان وعرضا ذلك على أهل العراق فلم يقبلوا وصمموا على خلع عبدالملك وحينئذ قال محمد بن مروان وعبد الله بن عبدالملك للحجاج شأنك بعسكرك

وجندك فاعمل برأيك فإنا أمرنا أن نسمع لك ونطيع ثم كانت بين الفريقين ، واقع، بدير الجماجم هائلة استمرت مائة يوم وكانت نهايتها فى الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٨٣ ففيه هزم ابن الأشعث وجنوده وأمر الحجاج بعدم اتباعهم ونادى المنادى من رجع فهو آمن : وبعد الهزيمة جاء الحجاج حتى دخل الكوفة وجاء الناس يبايعونه فلا يرضى مبايعتهم إلا إذا شهدوا على أنفسهم بالكفر بخروجهم هذا فمن شهد نجا ومن أبى قتله وجاءه رجل فقال الحجاج إنى أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر فقال أخادعى أنت عن نفسى أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذى الأوتاد . كان الحجاج قد أمر فنودى بعد هزيمة دير الجماجم من لحق بقتيبة بن مسلم بالرى فهو أمانه فلحق به كثيرون منهم عامر الشعبى فقيه العراق فذكره الحجاج يوما فقيل له إنه لحق بقتيبة فأرسل إليه يأمره أن يبعث إليه بالشعبى فأرسله فلما قدم سلم عليه بالإمرة ثم قال أيها الأمير إن الناس قد أمرونى أن أعتذر بغير ما يعلم الله أنه الحق وأيم الله لا أقول فى هذا المقام إلا حقا والله سودنا عليك وحرضنا وجهدنا عليك كل الجهد فما ألونا فما كنا بالأقوياء الفجرة ، ولا الأتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فإن سطوت فبذنوبنا وما جرك إليه أيدينا وإن عفوت عنا فبحلمك وبعد الحجة لك علينا فقال له الحجاج أنت والله أحب إلى قولا ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول ما فعلت ولا شهدت قد أمنت عندنا يا شعبى فانصرف فلما مشى قليلا ناداه ثم قال له كيف وجدت الناس يا شعبى بعدنا فقال أصلح الله الأمير اكتحلت والله بعدك السهر واستوعرت الجناب واستحلست الخوف وفقدت صالح الإخوان ولم أجد من الأمير خلفا قال انصرف يا شعبى وجىء إليه بأعشى همدان فقال إيه يا عدو الله أنشدنى قولك بين الأشج وبين قيس باذخ قال بل أنشدك ما قلته فيك ثم أنشده قصيدة مدحه بها أولها :

أبى الله إلا أن يتمم نوره ... ويطفىء نور الفاسقين فيخمدا
ويظهر أهل الحق فى كل موطن ... ويعدل وقع السيف من كان أصيدا
وينزل ذلا بالعراق وأهله ... لما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من روعة وعظيمة ... من القول لم تصعد إلى الله مصعدا
وما نكثوا من بيعة بعد بيعة ... إذا ضمنوها اليوم خاسوا بها غدا

وهى قصيدة طويلة فرجا له الناس الخير ولكنها لم تنفعه عند الحجاج فأمر به فقتل وعلى الجملة فإن فتنة ابن الأشعث ذهب فيها أشراف أهل العراق ورؤساؤهم ،

فكانت تلك الواقعة آخر فتنهم

أما ابن الأشعث فقد تقلبت به الأحوال وانتهى أمره إلى أن توجه إلى رتبيل مستغيثاً به فكتب الحجاج إلى رتبيل يأمره أن يرسل اليه ابن الأشعث ويتوعده إن لم يفعل فأراد رتبيل أن يرسله فقتل ابن الأشعث نفسه بأن ألقى نفسه من فوق قصر فمات ثم ضرب رتبيل عنق بضعة عشر رجلا من أقاربه وأرسل بالرؤوس إلى الحجاج

مضى على الأمة اثنتان وعشرون سنة من سنة ٦٤ إلى سنة ٨٦ وهى مصابة بالفتن والاضطرابات فى معظم الجهات الاسلامية يقتل بعضهم بعضا كل عظيم يريد السلطان لنفسه لا يخشون عاقبة ولا يراعون الله فى أمتهم عهداً كأنهم لم يقرءوا كتاب الله ولم يعلموا المأثور عن رسوله فى كراهة الفتن والدخول فى غمارها ولا تخلى ولاة أمرها من تبعة تلك الحوادث فإنهم أرادوا أن يسوسوها بالعنف ويكرهوها على الطاعة إكراها من غير أن يتقربوا إلى قلوبها بشىء مما تحبه

من الضرورى أن نقص عليكم شيئا من أخبار الخوارج فى هذه المدة لتكون صورة الأمة كلها ممثلة أمام أنظاركم فى ذلك العهد

المحاضرة السادسة والثلاثون

الخوارج

لما وردت جنود الشام إلى مكة لقتال ابن الزبير فى عهد يزيد رأى جماعة الخوارج منهم نجدة بن عامر الحنفى ونافع بن الأزرق الحنفى أن يذهبوا إلى ابن الزبير ليمنعوا مكة وليعرفوا ما عند ابن الزبير أيوافقهم على أقاويلهم أم يخالفهم فلما جاءوه وعرفوه بأنفسهم فأظهر لهم أنه على رأيهم ثم تناظروا فيما بينهم فقالوا ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده فدخلوا عليه وهو مبتذل فقالوا إنا جئناك لتخبرنا رأيك ما تقول فى الشيخين قال خيرا قالوا فما تقول فى عثمان الذى أحمى الحمى وآوى الطريد وأظهر لأهل مصر شيئا وكتب بخلافه وأوطأ آل أبى معيط رقاب الناس وآثرهم بفىء

المسلمين . وفى الذى بعده الذى حكم فى دين الله الرجال وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم وفى أبيك وصاحبه وقد بايعا عليا وهو إمام عادل مرضى لم يظهر منه كفر ثم نكثا بعرض من أعراض الدنيا وأخرجا عائشة تقاتل وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن فى بيوتهن وكان فى ذلك مايدعوك إلى التوبة فإن أنت قلت كما نقول فلك الزلفى عند الله والنصر على أيدينا ونسأل الله لك التوفيق وإن أنت أبيت إلا نصر رأيك الأول وتصويب أبيك وصاحبه والتحقيق بعثمان والتولى فى السنين الست التى أحلت دمه ونقضت بيعته وأفسدت إمامته خذلك الله وانتصر منك بأيدينا فقال ابن الزبير إنّ الله أمر وله العزة والقدرة فى مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العتاة بأرأف من هذا فقال لموسى ولأخيه صلى الله عليهما فى فرعون (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لاتؤذوا الأحياء بسب الأموات فنهى عن سب أبى جهل من أجل عكرمة ابنه وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول والمقيم على الشرك والجاد فى المحاربة والمتبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة والمحارب له بعدها وكفى بالشرك ذنبا وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة والزبير أن تقولوا أتبرأ من الظالمين فإن كانا منهم دخلا فى غمار الناس وإن لم يكونا منهم لم تحفظونى بسب أبى وأنتم تعلمون أن الله جل وعز قال للمؤمن فى أبويه (وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا) وقال جل ثناؤه (وقولوا للناس حسنا) وهذا الذى دعوتم اليه أمر له ما بعده وليس يقنعكم إلا التصريح والتوقيف ولعمرى إنّ ذلك لأحرى بقطع الحجج وأوضح لمنهاج الحق وأولى بأن يعرف كل صاحبه من عدوه فروحوا إلى من عشيتكم هذه أكشف لكم ما أنا عليه

فلما كان العشى راحوا اليه فخرج اليهم وقد لبس سلاحه وخطبهم خطبة أثنى فيها على عثمان والزبير وطلحة وأجاب عن كل مايعتد به عليهم فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا وتفرقوا فصارت طائفة إلى البصرة وطائفة إلى اليمامة فكان ممن سار إلى البصرة نافع بن الأزرق فى أصحابه وقد أمروه عليهم ثم مضى بهم إلى الأهواز فأقاموا بها لايهيجون أحدا وينا ظرهم الناس وطردوا أعمال السلطان عنها وجبوا الفىء ولم يزل الخوارج على رأى واحد حتى ظهر من نافع ابن الأزرق القول بأكفار القعد وقتل الأطفال واستحلال الأمانة وقال الدار دار كفر

إلا من أظهر إيمانه ولا يحل أكل ذبائحهم ولا تناكحهم ولا توارثهم ومتى جاء منهم جاء فعلينا أن نمتحنه وهم ككفار العرب لا نقبل منهم إلا الإسلام أو السيف والقعد بمنزلتهم والتقية لا تحل، لما عرفت عنه هذه المقالة خالفه نجدة بن عامر وكانت بينهما فى ذلك مكاتبات وخالفه أيضاً أبو بيهس هيصم بن جابر الضبعى وعبدالله بن أباض المرى . أما أباض ومن نحا نحوه من النجدية فإنهم كانوا يقولون إن عدونا كعدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكننا لا نحرم مناكحتهم ومواريثهم لأن معهم التوحيد والإقرار بالكتاب والرسول فأرى معهم دعوة المسلمين تجمعهم وأراهم كفاراً للنعم وأما الصفرية فقالوا ألين من هذا القول فى أمر القعد حتى صار عامتهم قعداً وسموا صفرية باسم رئيس لهم اسمه عبدالله بن صفار أو بصفرة علتهم من العبادة وأما أبو بيهس فإنه قال أعداؤنا كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم تحل لنا الإقامة فيهم كما فعل المسلمون فى إقامتهم بمكة وأحكام المشركين تجرى عليهم وزعم أن مناكحهم ومواريثهم تجوز لأنهم منافقون يظهرون الإسلام وأن حكمهم عند الله حكم المشركين وبذلك افترقوا على أربع فرق أزرقية أصحاب نافع بن الأزرق وأباضية أصحاب بن أباض وبيهسية أصحاب أبى بيهس وصفرية وكفر بعضهم بعضاً

أقام نافع بن الأزرق بالأهواز يعترض الناس ويقتل الأطفال فإذا أجيب المقالة جبا الخراج وفشا عماله فى السواد فارتاع لذلك أهل البصرة فاجتمعوا إلى الأحنف ابن قيس وقالوا ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان وسيرتهم ماترى فقال الأحنف إن فعلهم فى مصركم إن ظفروا بكم كفعلهم فى سوادكم فجدوا فى جهاد عدوكم فاجتمع اليه عشرة آلاف مقاتل اختير لقيادتهم سليم بن عبيس بن كريز وكان ديناً شجاعاً فقاد الجيش وسار به حتى وصل دولاب وهناك قابله الخوارج فاقتتلوا قتالا شديداً حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل وكثرت الجراح والقتل وتضاربوا بالسيوف والعمد فقتل فى المعركة بن عبيس نافع بن الأزرق فولى أمر أهل البصرة الربيع بن عمر بن الغدانى وولى أمر أهل البصرة الخوارج عبيدالله بن بشير بن الماحوز السليطى فكان الرئيسان من بنى يربوع فاقتتلوا قتالا شديداً نيفا وعشرين ليلة قتل فى آخرها الربيع بن عمرو فأخذ الراية بعده الحجاج بن باب الحميرى فلم يزل يقاتل الخوارج بدولاب والخوارج أعدوا بآلات الدروع والجواشن حتى انهزموا وقد كره بعضهم

بعضاً وملوا القتال فإنهم لمتواقفون متحاجزون حتى جاءت الخوارج سرية فحملت على الناس فانهزم الناس وأخذ راية أهل البصرة حارثة بن بدر فقاتل ساعة وقد ذهب عنه الناس فقاتل من ورائهم فى حماتهم وأهل الصبر منهم ثم أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلا بالأهواز ومما قاله بعض الخوارج وهو قطرى بن الفجاءة فى ذلك اليوم من الشعر

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد ... وفى العيش مالم ألق أم حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها ... شفاء لذى بثّ ولا لسقيم
لعمرك إنى يوم ألطم وجهها ... على نائبات الدهر جدّ لئيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم
غداة طفت علماء بكر بن وائل ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدها ... وأحلافها من يحصب وسليم
وظلت شيوخ الازد فى حومة الوغى ... تعوم وظلنا فى الجلاد نعوم
فلم أر يوما كان أكثر مقعصا ... يمج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريماً على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطناً ... له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

ولما بلغ خبر تلك الهزيمة أهل البصرة فزعوا ولم يروا لأمر الخوارج إلا المهلب ابن أبى صفرة فعرضوا عليه ذلك فرضى بشرط أن يكون له ولاية ماغلب عليه وأن يعطى من بيت المال مايقوى به من معه وأن ينتخب من فرسان الناس ووجوههم وذوى الشرف من أحب أجابوه إلى ماشرط فانتخب الناس وسار اليهم وكانوا قد قربوا من البصرة فصار يزيحهم عنها مرحلة بعد مرحلة حتى انتهوا إلى منزل من الأهواز يقال له صلى وسلبرى فأقاموا به وأقبل المهلب بجنوده فاقتتلوا هم والخوارج حتى كاد أهل البصرة ينهزمون لولا ثبات المهلب وقوة جأشه فإن ذلك قواهم حتى قتل أمير الخوارج عبيد بن الماحوز وانهزموا هزيمة منكرة فارتفعوا إلى كرمان وجانب أصفهان . وكتب المهلب إلى أمير البصرة من قبل ابن الزبير الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة . بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإنا قد لقينا الازارقة المارقة

بجدّ وجد فكانت للناس جولة ثم ثاب أهـل الحفاظ والصبر بنيات صادقة وأبدان شداد وسيوف حداد فأعقب الله خـير عاقبة وجاوز بالنعمة مقدار الأمل فصاروا درئة رماحنا وضرائب سيوفنا وقتل الله أميرهم ابن الماحوز وأرجو أن يكون آخر هـذه النعمة كأولها والسلام فكتب اليـه الحارث : قد قرأت كتابك يا أخا الازد فرأيتك قد وهب الله لك شرف الدنيا وعزها وذخر لك ثواب الآخرة ان شاء الله وأجرها ورأيتـك أوثق حصون المسلمين وهادم أركان المشركين وأخا السياسـة والرياسة فاستدم الله بشكره يتم عليك نعمه والسلام . فلما قرأ المهلب كتابه ضحك ثم قال أما تظنونه يعرفني إلا بأخ الأزد . ماأهل مكة إلا أعرب ولم يزل المهلب يطارد الخوارج مدة الحارث بن عبـد الله . فلما ولى مصعب العراق استقدم المهلب وأمره أن يستخلف ابنه المغيرة وقد ولى مصعب المهلب على الموصل وولى على حرب الخوارج عمر بن عبيد الله بن معمر والخوارج بأرجان وعليهم الزبير بن على السليطى فشخص اليهم فقاتلهـم وألح عليهم حتى أخرجهـم عنها فألحقهم بأصبهان فجمعوا له وأعـدوا واستعدوا : ثم أتوا سابور فسار اليهم ونزل قريبا منهم فقال له مالك بن حسان إن المهلب كان يذكى العيون ويخاف البيات ويرتقب الغفلة وهو على بعـد المسافة منهم فقال له عمر اسكت خلع الله قلبـك أتراك تموت قبـل أجلك فأقام هناك وفي ذات ليلة بيتـه الخوارج فلم يظفروا منه بشيء فقال لمـالك كيف رأيت قال قد سـلم الله ولم يكونوا يطمعون من المهلب بمثلها فقال أما إنكم لو ناصحتموني مناصحتكم المهلب لرجوت أن أنفى هذا العدو ولـكنكم تقولون قرشى حجازى بعيد الدار خيره لغيرنا فتقاتلون معى تعذيراً ثم زحف إلى الخوارج فقاتلهم قتالا شديداً حتى انهزموا وقتل في الموقعة ابنه عبيد الله فكتب إلى مصعب . أما بعد فإني قد لقيت الأزارقة فرزق الله عبيد الله بن عمر الشهادة ووهب له السعادة ورزقنا عليهم الظفر فتفرقوا شذر مذر وبلغتنى عنهـم عودة فيممتهم وبالله أستعين وعليـه أتوكل : ثم سار اليهم وكانوا قد عادوا إلى فارس فأرسل عليهم حتى أخرجهم إلى أصفهان فأقاموا برهة ثم إلى الأهواز وقد ارتحـل عمر إلى اصطخر : ومازالوا يروحون ويغـدون ويعيثون في الأرض فساداً فشاور مصعب الناس فأجمعوا رأيهـم على إعادة المهلب إلى حربهـم وكانوا قد ولوا أمرهم قطرى بن الفجاءة المـازنى فخرج اليهم المهلب ولمـا أحس به قطرى

يمم نحو كرمان فأقام المهلب بالأهواز ولما استعد الخوارج كروا عليه فحاربهم المهلب ونفاهم إلى رامهرمز وفى تلك الآونة قتل مصعب بن الزبير فى حربه مع عبد الملك فبلغ الخبر الخوارج قبل أن يبلغ المهلب وجنده فناداهم الخوارج ماذا تقولون فى مصعب قالوا إمام هدى قالوا فما تقولون فى عبد الملك قالوا ضال مضل . ولما كان بعد يومين أتى المهلب الخبر فبايع الناس لعبد الملك فناداهم الخوارج ماتقولون فى مصعب فسكتوا قالوا فما تقولون فى عبد الملك قالوا إمام هدى فقال الخوارج يا أعداء الله بالأمس ضال مضل واليوم إمام هدى ياعبيد الدنيا عليكم لعنة الله

ولى عبد الملك على البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد فأراد عزل المهلب فأشير عليه أن لا يفعل وقيل له إنما أمن أهل هذا المصر بأن المهلب بالأهواز وعمر بن عبيد الله بفارس فإذا نحيت المهلب لم تأمن على البصرة فأبى إلا عزله وولى حرب الخوارج أخاه عبد العزيز بن عبد الله فسار اليهم حتى قابلهم بداربجرد فهزموه هزيمة منكرة ولما بلغ ذلك خالد كتب إلى عبد الملك به فكتب اليه عبد الملك أما بعد فقد قدم رسولك بكتابك تعلمنى فيه بعثتك أخاك على قتال الخوارج وبهزيمة من هزم وقتل من قتل وسألت رسولك عن مكان المهلب فحدثنى أنه عامل لك على الأهواز فقبح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال وتدع المهلب إلى جنبك يجبى الخراج وهو الميمون النقيبة الحسن السياسة البصير بالحرب المقاسى لها ابنها وابن أبنائها أنظر أن ينهض بالناس حتى تستقبلهم بالأهواز ومن وراء الأهواز وقد بعثت إلى بشر ان يمدك بجيش من أهل الكوفة فإذا أنت لقيت عدوك فلا تعمل فيهم برأى حتى تحضره المهلب وتستشيره فيه أن شاء الله . فشق عليه أن فيل رأيه فى بعثه أخيه وترك المهلب و فى أنه لم يرض رايه خالصا حتى قال أحضره المهلب واستشره فيه وكتب عبد الملك إلى أخيه بشر أمير الكوفة أن يمدهم بالجنود فاختار لهم خمسة آلاف عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وخرج خالد بأهل البصرة حتى جاء الأهواز فاجتمع الجندان على الخوارج فرأوا ماهالهم فانصرفوا منهزمين كأنهم على حامية وأتبعهم خالد داود بن قحذم فى جيش من أهل البصرة ومدهم بشر بأربعة آلاف من أهل الكوفة وأتبعوا القوم حتى نفقت خيول عامتهم وأصابهم الجهد والجوع ورجع عامة ذينك الجيشين مشاة إلى الأهواز

وفى ذلك الوقت خرج بالبحرين أبو فديك الخارجى فغلب على البحرين وقتل نجدة ابن عامر الحنفى فاجتمع على خالد بن عبد الله نزول قطرى الأهواز وأمر أبى فديك فبعث أخاه أمية بن عبد الله على جند كثيف إلى أبى فديك فانهزم

ولما رأى عبدالملك ذلك عزل خالداً وولى أخاه بشراً مكانه وكتب اليه أما بعد فابعث المهلب فى أهل مصره إلى الأزارقة ولينتخب من أهل مصره وجوههم وفرسانهم وأولى الفضل والتجربة منهم فإنه أعرف بهم وخله ورأيه فى الحرب فإنى أوثق شىء بتجربته ونصيحته للمسلمين وابعث من أهل الكوفة بعثاً كثيفا وابعث عليهم رجلا معروفا شريفا حسيبا صليبا يعرف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ثم انهض اليهم أهل المصرين فليتبعوهم أى وجه ماتوجهوا حتى يبيدهم الله ويستأصلهم والسلام عليك فدعا بشر المهلب فأقرأه كتاب عبدالملك وأمره أن ينتخب من يشاء وشق على بشر أن إمرة المهلب جاءت من قبل عبدالملك فلا يستطيع أن يبعث غيره فأوغرت صدره عليه حتى كأنه كان اليه ذنب ثم دعا عبدالرحمن بن مخنف فبعثه على أهل الكوفة وقال له إنك قد عرفت منزلتك منى وأثرتك عندى وقد رأيت أن أوليك هذا الجيش للذى عرفت من جزئك وغنائك وشرفك وبأسك فكن عند حسن ظنى بك أنظر إلى هذا الكذا والكذا يقع فى المهلب فاستبد عليه بالأمر ولا تقبلن له مشورة ولا رأيا وتنقصه وقصر به ـ فترك أن يوصيه بالجند وقتال العدو والنظر إلى أهل الإسلام وأقبل يغريه بابن عمه كأنه من السفهاء أو ممن يستصبى ويستجهل . وهكذا فى كل زمان وفى كل أمة من يدوس المصالح العامة إرضاء لشهواته النفسية وأهوائه الفاسدة ولا تهمه الأمة سعدت أو شقيت . رجل يكره رجلا فما بال مصالح الناس وعامة المسلمين تكون ميدان الانتقام إن هذا لبلاء عظيم نسأل الله الخلاص منه . خرج الجيشان حتى وصلا رامهرمز وبها الخوارج فتراءى العسكران ولم يلبث الناس إلا عشراً حتى بلغهم نعى بشر بن مروان وتوفى بالبصرة فارفض ناس كثير من أهل البصرة والكوفة فجاءهم كتاب من خليفة بشر على البصرة وهو خالد بن عبدالله بن خالد بن أسيد يأمرهم فيه بالعودة ويحذرهم العصيان والمخالفة وسطوة عبدالملك فلم يجد ذلك فيهم نفعا حتى جاءهم الأسد الهصور الحجاج بن يوسف فأخذهم أخذاً عنيفا ووجههم إلى المهلب مقهورين كما علمتم ذلك من تاريخ دخوله البصرة والكوفة فلما

تتابع مسير الجنود إلى المهلب وابن مخنف ناهضا الأزارقة حتى أجلوهم عن رامهرمز فساروا إلى كازرون بسابور وعلى أثرهم الجندان: كان المهلب يخندق دائما على جنده كلما واجه الخوارج وقد أمر بذلك بن مخنف فأبى فبيته الخوارج فهزموا جنده وقتلوه وأقام المهلب بسابور يقاتلهم نحواً من سنة

ثم إنه زاحفهم يوم البستان فقاتلهم قتالا شديداً وكانت كرمان فى أيدى الخوارج وفارس فى يدى المهلب فكان قد ضاق عليهم مكانهم الذى هم به لا يأتيهم من فارس مادة فخرجوا حتى أتوا كرمان وتبعهم المهلب حتى نزل بجيرفت وهى مدينة كرمان فقاتلهم بها أكثر من سنة قتالا شديداً وحازهم عن فارس كلها فبعث اليه الحجاج مع البراء ابن قبيصة كتابا يقول فيه: أما بعد فإنك والله لو شئت فيما أرى لقد اصطلمت هذه الخارجة المارقة ولكنك تحب طول بقائهم لتأكل الأرض حولك: وقد بعثت اليك البراء بن قبيصة لينهضك اليهم فانهض اليهم إذا قدم عليك بجميع المسلمين ثم جاهدهم أشد الجهاد وإياك والعلل والأباطيل والأمور التى ليست لك عندى بسائغة ولا جائزة والسلام فأخرج المهلب بنيه كل ابن فى كتيبة وأخرج الناس وجاء البراء فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال فيقتتلون أشد قتال الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار. ثم انصرفوا فجاء البراء بن قبيصة إلى المهلب فقال لا والله ما رأيت كبنيك فرسانا قط ولا كفرسانك من فرسان العرب فرسانا قط ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك أصبر ولا أبأس أنت والله المعذور فرجع بالناس المهلب حتى إذا كان عند العصر خرج اليهم بالناس وبنيه فى كتائبهم فقاتلوهم كقتالهم أول مرة فانصرف البراء إلى الحجاج فأخبره الخبر على جليته ثم استمر المهلب يقاتلهم ثمانية عشر شهراً لا يقدر منهم على شىء

حدث فى معسكر الخوارج أمر لم يكن لهم فى حسبان ذلك أن رجلا من فرسانهم يقال له المقعطر قتل رجلا كان ذا بأس من الخوارج فطلبوا من قطرى أن يمكنهم من القاتل ليقتلوه قصاصاً فقال لهم ما أرى أن أفعل رجل تأول فأخطأ فى التأويل ما أرى أن تقتلوه وهو من ذوى الفضل منكم والسابقة فيكم فوقع بينهم اختلاف فخلعوا قطريا وولوا عبد ربه الكبير وبقى على بيعة قطرى منهم عصابة فقاتل بعضهم بعضا وكان من رأى الحجاج أن يناهضهم فى وقت اختلافهم ولم يكن ذلك من رأى

المهلب فتركه الحجاج ورأيه : استمرّ الخوارج يقتتلون نحواً من شهر ثم إنّ قطريا خرج بمن اتبعه نحو طبرستان وبايع عامتهم عبد ربه الكبير فناهضهم المهلب حتى قتلهم فلم ينج منهم إلا قليل وأخذ عسكرهم ومافيه وسبوا لأنهم كانوا يسبون المسلمين : ولكعب الأشقرى قصيدة طويلة يذكر يوم رامهرمز وأيام سابور وأيام جيرفت وأولها

ياحفص إنى عدانى عنكم السفر ٭ وقد سهرت فأودى نومى السهر

وهى من غرر الشعر العربى وقد أنشدها بين يدى الحجاج فقال له أشاعر أنت أم خطيب قال كلاهما فقال له أخبرنى عن بنى المهلب قال المغيرة فارسهم وسيدهم وكفى بيزيد فارساً شجاعا وجوادهم وسخيهم قبيصة ولا يستحي الشجاع أن يفرّ من مدرك وعبدالملك سم ناقع وحبيب موت زعاف ومحمد ليث غاب وكفاك بالمفضل نجدة قال فكيف خلفت جماعة الناس قال بخير أدركوا ما أملوا وأمنوا ما خافوا قال فكيف بنو المهلب فيكم قال كانوا حماة السرح نهاراً فإذا أليلوا ففرسان البيات قال فأيهم كان أنجد قال كانوا كالحلقة المفرّغة لايدرى أين طرفها قال فكيف كنتم أنتم وعدوّكم قال كنا إذا أخذنا عفونا وإذا أخذوا يئسنا منهم وإذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم فقال الحجاج إنّ العاقبة للمتقين كيف أفلتكم قطرى قال كدناه ببعض ما كادنا فصرنا منه إلى الذى تحب قال فهلا اتبعتموه قال كان الحد عندنا آثر من الفل قال فكيف كان لكم المهلب وكنتم له قال كان لنا منه شفقة الوالد وله منا بر الولد قال فكيف اغتباط الناس قال فشافيهم الأمن وشملهم النفل قال أكنت أعددت لى هذا الجواب قال لايعلم الغيب إلا الله فقال هكذا تكون والله الرجال المهلب كان أعلم بك حيث وجهك وكان كتاب المهلب إلى الحجاج الحمد لله الكافى بالإسلام فقد ماسواه الذى حكم بأن لاينقطع المزيد منه حتى ينقطع الشكر من عباده أما بعد فقد كان من أمرنا ماقد بلغك وكنا نحن وعدوّنا على حالين مختلفين يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم على اشتداد شوكتهم فقد كان تمكن أمرهم حتى ارتاعت له الفتاة ونوم به الرضيع فانتهزت منهم الفرصة فى وقت إمكانها وأدنيت السواد من السواد حتى تعانقت الوجوه فلم نزل كذلك حتى بلغ الكتاب أجله (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) : فكتب إليه الحجاج أما بعد فقد فعل الله عزوجل بالمسلمين خيراً وأراحهم من حد الجهاد فكنت أعلم بمن قبلك والحمد لله رب العالمين فإذا ورد

عليك كتابى فاقسم فى الناس فيئهم على قدر بلائهم وفضل من رأيت تفضيله وإن كانت بقيت من القوم بقية فخلف خيلا تقوم بإزائهم واستعمل على كرمان من رأيت وول الخيل شهما من ولدك ولا ترخص لأحد فى اللحاق بمنزله دون أن تقدم بهم على وعجل القدوم إن شاء الله . فولى المهلب ابنه يزيد كرمان وقال يابنىّ إنك اليوم لست كما كنت إنما لك من مال كرمان ما فضل عن الحجاج ولن يحتمل لك إلا على ما احتمل عليه أبوك : فأحسن إلى من معك وإن أنكرت من إنسان شيئا فوجهه إلىّ وتفضل على قومك ووفد المهلب على الحجاج فأجلسه إلى جانبه وأظهر إكرامه وبره وقال ياأهل العراق إنكم عبيد المهلب ثم قال أنت والله كما قال لقيط الأيادى

وقلدوا أمركم لله دركم ☆ رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لايطعم النوم إلا ريث يبعثه ☆ هم يكاد حشاه يقصم الضلعا

لامترفا إن رخاء العيش ساعده ☆ ولا إذا عض مكروه به خشعا

ما زال يحلب هذا الدهر أشطره ☆ يكون متبعاً طوراً ومتبعا

حتى استمرت على شزر مريرته ☆ مستحكم الرأى لاقحما ولاضرعا[1]

فقام إليه رجل فقال أصلح الله الأمير والله لكأنى أسمع الساعة قطريا وهو يقول المهلب كما قال لقيط الأيادى ثم أنشد الشعر فسر الحجاج حتى امتلأ سروراً فقال المهلب إنا والله ما كنا أشدّ على عدونا ولكن دمغ الله الباطل وقهرت الجماعة الفتنة والعاقبة للمتقين وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً مما أحببناه من العجلة فقال له الحجاج اذكر لى القوم الذين أبلوا وصف لى بلاءهم فأمر الناس فكتبوا ذلك للحجاج فقال لهم المهلب ماذخر الله لكم خير لكم من عاجل الدنيا إن شاء الله ثم ذكرهم للحجاج على مراتبهم فى البلاء وتفاضلهم فى الغناء وقدّم بنيه وقال إنه والله لو تقدّمهم أحد فى البلاء لقدّمته عليهم ولولا أن أظلمهم لأخرتهم : قال الحجاج صدقت وما أنت بأعلم بهم منى وغبت إنهم لسيوف من سيوف الله ثم ذكر معن بن المغيرة بن أبى صفرة وأشباهه : فقال الحجاج أين الرقاد فدخل رجل طويل أجنا فقال المهلب هذا فارس العرب فقال الرقاد أيها الأمير إنى كنت أقاتل مع غير المهلب فكنت كبعض الناس فلما صرت مع من يلزمنى الصبر ويجعلنى أسوة نفسه وولده ويجازينى على البلاء صرت أنا وأصحابى

(١) القحم آخر سن الشيخ ، والضرع الصغير الضعيف

فرسانا فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قدر بلائهم وزاد ولد المهلب ألفين وفعل بالرقاد وجماعة شبيهاً بذلك : قال المغيرة بن حبناء من أصحاب المهلب :

إنى امرؤا كفنى ربى وأكرمنى — عن الأمور التى فى رعيها وخم
وإنما أنا إنسان أعيش كما — عاشت رجال وعاشت قبلها أمم
ما عقنى عن قفول الجند إذ قفلوا — عنى بما صنعوا عجز ولا بكم
ولو أردت قفولا ماتجهمنى — إذن الأمير ولا الكتاب إذ رقموا
إن المهلب إن أشتق لرؤيته — أو أمتدحه فإن الناس قد علموا
إن الأريب الذى ترجى نوافله — والمستعان الذى تجلى به الظلم
القائل الفاعل الميمون طائره — أبو سعيد إذا ماعدت النعم
أزمان أزمان إذ عض الحديد بهم — وإذ تمنى رجال أنهم هزموا

وقد أرسلت بعد ذلك جنود لتتبع قطرى فلحقوه بشعاب طبرستان فقاتلوه حتى تفرق عنه أصحابه ووقع عن دابته فى أسفل الشعب فتدهدى حتى خر إلى أسفله فقتل ثم ساروا حتى لحقوا بقيتهم فحاصروهم فى قصر قومس حتى جهدوا ثم خرجوا فقاتلوهم حتى قتلوا وكان ذلك سنة ٧٧ . وبذلك انتهى أمر الأزارقة بعد أن ذاق الناس منهم مر الحرب وشغلوا المسلمين عن مصالحهم مدة من الزمن من غير نتيجة

وممن له ذكر من الخوارج وليس من الأزارقة صالح بن مسرح التميمى ورفيقه شبيب بن يزيد كان صالح رجلا ناسكا مخبتا مصفر الوجه صاحب عبادة وكان بدارا من أرض الموصل والجزيرة له أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم ويقص عليهم فقال لهم ذات يوم ما أدرى ماتنتظرون وحتى متى أنتم مقيمون هذا الجور قد فشا وهذا العدل قد عفا ولا تزداد هذه الولاة على الناس إلا علوا وعتوا وتباعدا عن الحق وجرأة على الرب فاستعدوا وابعثوا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكار الباطل والدعاء إلى الحق مثل الذى تريدون فيأتونكم فنلتقى وننظر فيما نحن صانعون وفى أى وقت إن خرجنا نحن خارجون فتراسلوا وأرسل شبيب إلى صالح يستنهضه للخروج وقدم عليه فاتعدوا أن يخرجوا فى هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ٧٦ وقال صالح لمن معه اتقوا الله عباد الله ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس إلا أن يكونوا قوما يريدونكم وينصبون لكم فإنكم إنما خرجتم غضبا لله حيث انتهكت محارمه وعصى فى الأرض

فسفكت الدماء بغير حلها وأخذت الأموال بغير حقها فلا تعيبوا على قوم أعمالا ثم تعملوا بها فإن كل ماأنتم عاملون أنتم عنه مسئولون . ثم أقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة وتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار فبلغ أمير الجزيرة محمد بن مروان مخرجهم فبعث اليهم جندا عدتهم ألف رجل فهزمهم الخوارج من غير كبير قتال ثم بعث جندا آخر عدته ثلاثة آلاف فأشجى الخوارج حتى تركوا مكانهم وساروا فقطعوا ومضوا حتى قطعوا الدسكرة فأرسل اليهم الحجاج جندا عدته ثلاثة آلاف فقاتلهم الخوارج حتى قتل أميرهم صالح بن مسرح فجمعهم شبيب وبايعوه وساروا من موقفهم حتى نزلوا المدائن.

وما زالوا ينتقلون من جهة إلى أخرى والجند يرسل اليهم تلو الجند فيهزمون جنود الحجاج وهم فى عدد لا يتجاوز المئتين عدا وأخيرا جاء شبيب فدخل الكوفة غير هائب سلطان الحجاج وعاثوا فيها فسادا وقتلوا من أهلها جماعة والحجاج بقصر الكوفة فدعا الناس إلى إخراجهم فاجتمع اليه القواد ولما رأى ذلك شبيب ترك الكوفة وخرج فسارت الجنود وراءه لكنها لم تنل منه منالا وهو فى كل مرة يهزمها حتى استغاث الحجاج بعبد الملك وأخبره بعجز أهل الكوفة عن قتال الخوارج وطلب اليه أن يرسل اليه جندا من أهل الشام فوجه اليه أربعة آلاف ووجه الحجاج اليهم نحوا من خمسين ألفا من الكوفة وكان جيش شبيب قد بلغ ألفا ومن الغريب أن الألف هزمت الخمسين : وكان لشبيب بعد ذلك رحلة ثانية إلى الكوفة فبنى بها مسجدا فخرج اليهم الحجاج وقد جاءه جند الشام فتقوى بهم وقال لهم ياأهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين ولا يغلبن باطل هؤلاء الأرجاس حقكم غضوا الابصار واجثوا على الركب واستقبلوا القوم بأطراف الأسنة فجثوا على الركب وأشرعوا الرماح وكأنهم حرة سوداء وأقبل اليهم شبيب فى تعبية فثبتوا له حتى إذا غشى أطراف الأسنة وثبوا فى وجهه ووجوه أصحابه فطعنوهم قدما ومازال القتال بينهم عامة اليوم. وقتل فى هذا اليوم مصاد أخو شبيب وانتهى الأمر بهزيمة شبيب وهذه أول مرة هزم فيها وترك امرأته غزالة فقتلت ثم أرسل الحجاج فى أثره جنود الشام حتى قابلوه بالأنبار وكانت بين الفريقين مواقع هائلة جدا وانتهى أمر الخوارج بغرق شبيب فى النهر وتفصيل الوقائع التى جرت بين شبيب وبين جنود الحجاج يطول أمرها والنتيجة أن المسلمين استراحوا من الأزارقة ومن شبيب فى سنة واحدة

المحاضرة السابعة والثلاثون

بناء الكعبة — الفتوح فى الشرق — الفتوح فى الشمال — الحج السكة — ولاية العهد — وفاة عبد الملك وبيته وصفته الوليد الأول — الإصلاح الداخلى

بناء الكعبة

من الحوادث الكبرى التى حدثت إبان هذه الاضطرابات هدم الكعبة وبناؤها ففى سنة ٦٥ ﻫ هدم عبد الله بن الزبير الكعبة وكانت قد مالت حيطانها مما رميت به من حجارة المجانيق فهدمها حتى سواها بالأرض وحفر أساسها وأدخل الحجر فيها وكان الناس يطوفون من وراء الأساس ويصلون إلى موضعه وجعل الحجر الأسود عنده فى تابوت فى سرقة من حرير وجعل ما كان من حلى البيت وما وجد فيه من ثيوب أو طيب عند الحجبة فى خزانة البيت حتى أعادها لما أعاد بناءها وكان السبب فى إدخاله الحجر ضمن البيت ما روته أمه أسماء عن عائشة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها لولا قومك حديثو عهد بكفر لنقضت الكعبة وجعلتها على قواعد إسماعيل وجعلت لها بابين . فلما قتل ابن الزبير وولى الحجاج نقض ذلك الركن الذى فيه الحجر وأعاد بناءها على ما كانت عليه فى عهد قريش فالبناء الموجود الآن مؤلف من بناء ابن الزبير والحجاج

الأحوال الخارجية

لم يكن زمن الفتنة يسمح للمسلمين بمد فتوحهم وانتقاص أرض عدوهم لأنّ الأمة إذا كان بأسها بينها شديداً فحسبها أن تحافظ على ما بأيديها من البلاد ولكن هذه الأمة القوية مع ما نالها من المصائب والفتن لم تتقصر يديها من الفتح ولم تظهر أمام الأمم الأخرى بمظهر الضعف إلا فى بعض الأحيان

الفتوح فى الشرق

بعد أن انتهى المهلب من أمر الخوارج ولاه الحجاج خراسان فى سنة ٨٠ قطع نهر بلخ ونزل على كس وأتاه وهو نازل عليها ابن عم ملك الختل فدعاه إلى غزو الختل فوجه

معه ابنه يزيد فنزل فى عسكره وكان الملك يومئذ اسمه السبل فى عسكره على ناحية فبيت السبل ابن عمه فكبر فى عسكره فظن ابن العم أن العرب غدروا به وأنهم خافوه على الغدر حين اعتزل عسكرهم فأسره الملك وقتله فى قلعته فأتى يزيد بن المهلب القلعة وأحاط بها فصالحه الملك على فدية حملها إليه ورجع إلى المهلب ووجه المهلب ابنه حبيبا إلى ربنجن فوافى صاحب بخارى فى أربعين ألفاً فكانت بينهم مناوشات لم تنته بنتيجة وانصرف حبيب

ومكث المهلب بكس سنتين فقيل له لو تقدمت إلى السغد وماوراء ذلك قال ليت حظى من هذه الغزوة سلامة هذا الجند حتى يرجعوا إلى مرو سالمين ثم صالح المهلب أهل كس على فدية وأتاه وهو بكس وفاة ابنه المغيرة وكان خليفته على مرو فجزع جزعا شديداً وولى مكانه ابنه يزيد : ولما أخذ الفدية عاد إلى مرو فتوفى بها ولما شعر بدنو أجله دعا من حضر من ولده ودعا بسهام فحزمت وقال أترونكم كاسريها مجتمعة قالوا لا قال أفترونكم كاسريها متفرقة قالوا نعم قال فهكذا الجماعة فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم فإن صلة الرحم تنسئ فى الأجل وتثرى المال وتكثر العدد وأنهاكم عن القطيعة فان القطيعة تعقب النار وتورث الذلة والقلة فتحابوا وتواصلوا وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا وتباروا يجتمع أموركم إن بنى الأم يختلفون فكيف ببنى العلات وعليكم بالطاعة والجماعة وليكن فعالكم أفضل من قولكم فانى أحب للرجل أن يكون لعمله فضل على لسانه واتقوا الجواب وزلة اللسان فان الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته ويزل لسانه فيهلك اعرفوا لمن يغشاكم حقه فكفى بغدو الرجل ورواحه إليكم لذكرة له وآثروا الجود على البخل وأحبوا العرب واصطنعوا العرب فان الرجل من العرب تعده العدة فيموت دونك فكيف الصنيعة عنده عليكم فى الحرب بالأناة والمكيدة فانها أنفع فى الحرب من الشجاعة وإذا كان اللقاء أنزل القضاء فان أخذ رجل بالحزم فظهر على عدوه قيل أتى الأمر من وجهه ثم ظفر فحمد وإن لم يظفر بعد الأناة قيل مافرط ولا ضيع ولكن القضاء غالب وعليكم بقراءة القرآن وتعليم السنة وأدب الصالحين وإياكم والخفة وكثرة الكلام فى مجالسكم وقد استخلفت عليكم يزيد وجعلت حبيبا على الجند حتى يقدم بهم على يزيد فلا تخالفوا يزيد فقال له المفضل لو لم تقدمه لقدمناه ومات المهلب وأوصى إلى حبيب فصلى عليه وكتب يزيد إلى عبد الملك بالخبر وباستخلاف المهلب إياه فأقره وتوفى فى ذى الحجة سنة ٨٣ فقال نهار بن توسعة التميمى

ألا ذهب الغزو المقـــرب للغنى ‏ ‏ ‏ ومات الندى والجود بعد المهلب

أقمنا بمرو الروذ رهن ضريحه ... وقد غيبا عن كل شرق ومغرب
إذا قيل أى الناس أولى بنعمة ... على النـاس قلناه ولم نتهيب
أباح لنا سهل البـــلاد وحزنها ... بخيل كارسال القطا المتسرب
يعرضها للطعن حتى كأنمـا ... يجللها بالأرجوان المخضب
تطيف به قحطان قـد عصبت به ... وأحلافها من حى بكر وتغلب
وحيا معـــد عوذ بلوائه ... يفـدونه بالنفس والأم والأب

وفى ولاية يزيد لخراسان فتح قلعة نيزك بباذغيس واحتلها وكان ملكها قدخرج عنها فلما جاء صالحه على أن يدفع إليـه مافى القلعة. من الخزائن ويرتحل عنها بعياله وكتب يزيد إلى الحجاج بالفتح وكان كاتبه يحي بن يعمر العـدوانى ونص كتابه «إنا لقينا العدو فمنحناالله أكتافهم فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ولحقت طائفة برؤوس الجبال وعراعر الأودية وأهضام الغيطان وأثناء الأنهار» فلما جاء الكتاب الحجاج سأل عمن يكتب ليزيد فقيل له يحي بن يعمر فكتب إلى يزيد فحمله على البريد فقدم عليه أفصح الناس فقال له أين ولدت قال بالأهواز قال فهذه الفصاحة قال حفظت كلام أبى وكان فصيحا قال من هناك قال فأخبرنى هل يلحن عنبسة بن سعيد قال نعم كثيرا قال ففلان قال نعم قال أخبرنى عنى أ ألحن قال نعم تلحن لحنا خفيا تزيدحرفا وتنقص حرفا وتجعـل أن فى موضع إن وإن فى موضع أن قال أجلتك ثلاثا فإن أجدك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك فرجع إلى خراسان وفى سنة ٨٥ عزل الحجاج يزيد عن خراسان وولى مكانه أخاه المفضـل . وفى عهد المفضـل عزيت باذغيس وفتحت ثم نم آخرون وشومان فظفر . ولم يكن للمفضل بيت مال بل كان يعطى الناس كلما جاءه شىء وإن غنم شيئا قسمه بينهم . ولم يلبث الحجاج أن عزل المفضل وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلى وسيكون له ذكر جميل فى خلافة الوليد

الفتوح فى الشمال

لم يكن من الممكن فى عهد الاضطراب الشديد أن تكون للمسلمين قوة أمام الروم الذين لايتركون المسلمين وفى سـنة ٧٠ ثار الروم واستجاشوا على من بالشام من المسلمين وذلك فى الوقت الذى يتجهز فيه عبدالملك لحرب مصعب فاضطر أن يصالح ملك الروم على أن يؤدى عبدالملك إليه كل جمعة ألف دينار خوفا على المسلمين ولما

انقشعت هذه السحابة واستقر الأمر لعبد الملك عادت الغزوات إلى بلاد الروم فنظمت الشواتى والصوائف وافتتح عبد الملك قيسارية وفى سنة ٨١ فتحت قاليقلا وكان أمير جندها عبيدالله بن عبدالله وفى سنة ٨٤ غزا عبدالله بن عبدالملك ففتح المصيصة

الحج

كان الذى يقيم الحج عبدالله بن الزبير فى عهد خلافته وفى سنة ٦٨ وافت عرفات أربعة ألوية بن الحنفية فى أصحابه فى لواء وابن الزبير فى لواء ونجدة الحرورى فى لواء ولواء بنى أمية . قال محمد بن جبير خفت الفتنة فمشيت إليهم جميعا فجئت محمد بن على فى الشعب فقلت يا أبا القاسم اتق الله فانا فى مشعر حرام وبلد حرام والناس وفد الله إلى هذا البيت فلا تفسد عليهم حجهم فقال والله ما أريد ذلك وما أحول بين أحد وبين هذا البيت ولا يؤتى أحد من الحجاج من قبلى ولكنى رجل أدفع عن نفسى من ابن الزبير ومايروم منى وما أطلب هذا الأمر إلا أن لا يختلف على فيه اثنان ولكن ائت ابن الزبير فكلمه وعليك النجدة قال فجئت ابن الزبير فكلمته بنحو ما كلمت به ابن الحنفية فقال أنا رجل قد اجتمع على الناس وبايعونى وهؤلاء أهل خلاف فقلت أرى لك خيراً الكف قال أفعل ثم جئت نجدة الحرورى فأجده فى أصحابه فعظمت عليه وكلمته كما كلمت الرجلين فقال أما إن أبتدئ أحداً بقتال فلا ولكن من بدا بقتال قاتلته قلت فإنى رأيت الرجلين لا يريدان قتالك . ثم جئت شيعة بنى أمية فكلمتهم بنحو ما كلمت به القوم فقالوا نحن على أن لا نقاتل أحدا إلا إن قاتلنا . ثم كان أول لواء انفض لواء ابن الحنفية ثم تبعه نجدة ثم لواء بنى أمية ثم لواء ابن الزبير وتبعه الناس . وهذه حادثة غريبة فى تاريخ الحج . وبعد قتله كان يقيمه عمال بنى أمية

السكة الإسلامية

لم يكن للمسلمين سكة يضربون عليها دراهمهم ودنانيرهم وإنما كانوا يستعملون مايضرب من الدراهم فى بلاد الفرس وما يضرب من الدنانير فى بلاد الروم حتى كانت سنة ٧٤ من الهجرة وهى سنة الجماعة ضرب عبد الملك الدراهم والدنانير الاسلامية وجعل وزن الدرهم أربعة عشر قيراطا والدينار عشرين قيراطا فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وقد نقش عليها نقش إسلامى وأمر عبدالملك الحجاج أن يضربها

بالعراق وقد نقش عليها أولا باسم الله الحجاج ثم كتب عليها بعد سنة الله أحد الله الصمد فكره ذلك الفقهاء فسميت مكروهة وكانت له دار ضرب جمع فيها الطباعين فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ثم ضربت الدراهم والدنانير بعد ذلك فى بقية الأمصار الاسلامية وكانوا يعاقبون من ضرب على غير سكة السلطان عقوبة شديدة . وسنوضح أمر السكة بعد

ولاية العهد

كان مروان قد ولى عهده عبد الملك ثم من بعده عبدالعزيز بن مروان ففى سنة ٨٥ أراد عبدالملك أن يعزل عبد العزيز ويولى مكانه الوليد بن عبدالملك فاستشار قبيصة ابن ذؤيب فنهاه عن ذلك واستشار روح بن زنباع الجذامى فقال لو خلعته ماانتطح فيه عنزان فبينا هو على ذلك إذجاء الخبر بوفاة عبدالعزيز فقال لروح كفانا الله ياأبا زرعة ما كنا فيه وما أجمعنا عليه وعهد إلى ابنيه الوليد ثم من بعده لسليمان وكتب ببيعته لهما إلى البلدان يبايع الناس وامتنع من ذلك سعيد بن المسيب فضربه أمير المدينة هشام بن اسماعيل المخزومى وطاف به وحبسه فكتب عبد الملك إلى هشام يلومه على مافعل ويقول سعيد والله كان أحوج أن تصل رحمه من أن تضربه وإنا لنعلم ماعنده من شقاق ولاخلاف

وفاة عبد الملك

فى يوم الخميس منتصف شوال سنة ٨٦ (٩ اكتوبر سنة ٧٠٥) توفى عبد الملك بدمشق فكانت مدة خلافته منذ بويع بالشام احدى وعشرين سنة وشهراً ونصفاً من مستهل رمضان سنة ٦٥ إلى منتصف شوال سنة ٨٦ وكانت خلافته مذ قتل ابن الزبير واجتمعت عليه الكلمة ثلاث عشرة سنة وخمسة أشهر بناء على أن ابن الزبير قتل فى ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٣ وكان عمر عبدالملك ستين سنة لأنه ولد سنة ٢٦

بيت عبدالملك

تزوج عبد الملك (١) ولادة بنت العباس بن جزء العبسى فولدت له الوليد وسليمان ومروان الأكبر (٢) عاتكة بنت يزيد بن معاوية فولدت له يزيد ومروان ومعاوية وأم كلثوم (٣) أم هشام بنت هشام بن اسماعيل المخزومى

فولدت له هشاما (٤) عائشة بنت موسى بن طلحة التيمى فولدت له أبا بكر واسمه بكار (٥) أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان فولدت له الحكم

(٦) أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد المخزومى فولدت له فاطمة

(٧) شقراء بنت سلمة بن حليس الطائى

(٨) ابنة لعلى بن أبى طالب

(٩) أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر

وله من الأولاد عبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج لأمهات الأولاد

صفة عبد الملك

كان عبد الملك قوى العزيمة ثابت النفس لاتزعزعه الشدائد ولى أمر الأمة وهى فى غاية الاضطراب والاختلاف فما زال حتى جمعها وصيرها أمة واحدة تدين لخليفة واحد وسلمها لابنه الوليد وهى على غاية من الهدو والطمأنينة ولكن الضحايا التى ذهبت فى سبيل ذلك كثيرة جداً لأن الأمة حية نشيطة لاتدين إلا للقوة القاهرة التى هى فوق طاقتها والأهواء متشعبة وذلك مما يجعل المأزق ضيقاً لايمر منه إلا الكيس ذو العزم الثابت وكذلك كان عبد الملك يقول ماأعلم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى وإن ابن الزبير لطويل الصلاة طويل الصيام ولكن لبخله لايصلح أن يكون سائسا : ومما عدّ من مساوى عبد الملك أنه قال مرة وهو على المنبر من قال لى بعد مقامى هذا اتق الله ضربت عنقه وقد اعتذر عن ذلك بأن كثيراً من الناس كانوا يقفون فى هذه المواقف قصد الشهرة حتى إذا أصابهم من جراء ذلك شر اشتهروا بقوة القلب ومصادرة الخلفاء ولكن ذلك لايصلح على أية حال عذراً . ومما عدّ من مساويه وهو قبيح غدره بعمرو بن سعيد وقتله إياه بعد أن أمنه وقالوا إنّ هذا أوّل غدر حصل فى الإسلام ومن سنّ سنة سيئة فعليه إثمها وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة

والتاريخ يدلنا على أنّ كبار الرجال الذين أقدموا على العظائم لم يسلموا من الهنات فى سبيل تأييد مطالبهم فلكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة وكان عبد الملك فصيحا عالما بالأخبار فقيها وقد قدمنا شيئا من ذلك فى أوّل خلافته

٦ ــ الوليد الأوّل

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمّه ولادة بنت العباس بن جزء العبسى ولد سنة ٥٠ من الهجرة ولم تكن له ولاية العهد إلا بعد وفاة عمه عبد العزيز بن مروان ولما توفى أبوه عبد الملك بويع بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه لما رجع من دفنه بدمشق لم يدخل منزله حتى صعد على منبر دمشق فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أيها الناس إنه لامقدم لما أخر الله ولا مؤخر لما قدم الله وقد كان من قضايا الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه الموت وقد صار إلى منازل الأبرار ولى هذه الأمة بالذى يحق عليه لله من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ماأقام الله من منار الإسلام وأعلامه من حج هذاالبيت وغزو هذه الثغور وشنّ هذه الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزاً ولامفرّطاً . أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإنّ الشيطان مع الفرد . أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ومن سكت مات بدائه : ثم قام إليه الناس فبايعوه

الحال فى عهد الوليد

كانت مدة الوليد غرة فى جبين الدولة الأموية ففيها قام بإصلاح داخلى عظيم واشتهر فى الأمة قواد عظام فتحوا الفتوح العظيمة وأضافوا إلى المملكة الإسلامية بلادا واسعة واستردوا هيبتها فى أنفس الأمم المجاورة لها وسبب ذلك أنّ الوليد تولى بعد أن وطأ عبد الملك الأمور ومهدها فاستلمها الوليد والأمة هادئة مطمئنة مجتمعة الكلمة وخبت نار الأهواء فإنّ الخوارج ذهبت حدتهم وشوكتهم وقلت جموعهم وشيعة آل البيت نالهم ماجعلهم يهتمون بأنفسهم فلم يحرّكوا ساكنا ولم يوقظوا فتنة

الإصلاح الداخلى

كان الوليد ميالا إلى العمارة فاهتم فى زمنه بإصلاح الطرق وتسهيل السبل فى الحجاز وغيره ففى سنة ٨٨ كتب إلى عامله بالمدينة عمر بن عبد العزيز فى تسهيل الثنايا وحفر الآبار فى البلدان وكتب إلى سائر البلاد بذلك فعمل عمر بالمدينة الفوارة التى يستقى منها أهل المدينة وأجرى إليها الماء وأمر لها بقوام يقومون عليها : وإصلاح الطرق

من أهم ما يذكر لولاة الأمر فى إصلاح البلاد . ومن أعماله العظيمة بناء ذينك المسجدين العظيمين مسجد المدينة وجامع دمشق : ففى السنة المتقدمة أمر عمر بن عبد العزيز بهدم المسجد النبوى وهدم بيوت أزواج الرسول وإدخالها فى المسجد وأن يشترى دوراً فى مؤخره ونواحيه ليتسع حتى يكون مئتى ذراع فى مثلها ومن أبى فليقوم داره قيمة عدل وتهدم ويدفع إليهم ثمنها «فإن لك فى ذلك سلف صدق عمر وعثمان» وأرسل إليه الوليد بالفعلة والبنائين من الشام فعمل فى ذلك عمر مع فقهاء المدينة وبعث الوليد إلى ملك الروم يعلمه أنه أمر بهدم مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويطلب منه أن يعينه فيه فبعث إليه بمئة ألف مثقال ذهب وبعث إليه بمئة عامل وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين جملا فابتدئ بعمارته وأدخلت فيه جميع الحجر التى لأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبق إلا حجرة عائشة التى فيها القبور الثلاثة وكان من رأى بعض أهل المدينة أن لا تكون فى المسجد حذر أن يستقبلها بعض المسلمين فى صلاتهم يشبهونها بالكعبة ففكر فى ذلك عمر وقد هداه الفكر أن يثلث جهتها الشمالية حتى تنتهى بزاوية لا يمكن استقبالها فصار شكل الحجرة مخمساً . أما جامع دمشق وهو المعروف بالجامع الأموى فإن الوليد احتفل له احتفالا عظيما حتى خرج مناسباً لعظمة المملكة الإسلامية ولا يزال شىء من آثاره شاهداً بتلك العظمة وكان الناس فى حياته قد شغفوا بالعمارة تبعاً له حتى كانت مسألتهم عنها إذا تقابلوا : وبنى الوليد المصانع فى الشام لتسهيل الاستقاء

ومن الإصلاح العظيم حجره على المجذمين أن يسألوا الناس وجعل لهم من العطاء ما يقوم بحياتهم وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً

وعلى الجملة فكان الوليد محسناً إلى رعيته : ومما يدل على حسن معاملته للعلماء أنه حج سنة ٩١ وعمر بن عبد العزيز أمير على المدينة ، فلما وصل المدينة دخل إلى المسجد ينظر إلى بنائه فأخرج الناس منه فما ترك فيه أحد وبقى سعيد بن المسيب ما يجترئ أحد من الحرس أن يخرجه وما عليه إلا ريطتان ما تساويان خمسة دراهم فقيل له لو قمت فأبى أن يقوم قبل الوقت الذى كان يقوم فيه فلو سلمت على أمير المؤمنين فأبى أن يقوم إليه قال عمر بن عبد العزيز فجعلت أعدل بالوليد بناحية المسجد رجاء أن يرى سعيداً حتى يقوم فحانت من الوليد نظرة إلى القبلة فقال من ذلك

الجالس أهو الشيخ سعيد بن المسيب فجعل عمر يقول نعم ياامير المؤمنين ومن حاله ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك وهو ضعيف البصر قال الوليد : قد علمت حاله ونحن نأتيه فنسلم عليه فدار فى المسجد حتى وقف على المنبر ثم أقبل حتى وقف على سعيد فقال كيف أنت أيها الشيخ فلم يتحرك سعيد ولم يقم فقال بخير والحمد لله فكيف أمير المؤمنين وكيف حاله قال الوليد خير والحمد لله فانصرف وهو يقول لعمر هذا بقية الناس فقال أجل ياأمير المؤمنين . وقليل من ذوى السلطان من يعرف لمثل سعيد من العلماء ذوى الأسنان حقهم وسبب ذلك فيما نظن من قبل العلماء كثيراً ومن قبل ذوى السلطان قليلا . أما العلماء فإنهم رضوا لأنفسهم الذلة والمهانة بعبادتهم الدرهم والدينار حتى صار كل مايصيبهم فى الحصول عليهما سهلا وعلم بذلك ذوو السلطان فاشتروا منهم دينهم بما أفاضوا عليهم من الدنيا وحينذاك يضعف احترامهم وتقل مكانتهم وأما ذوو السلطان فإنهم أحياناً يأخذ منهم الجبروت فلا يحبون أن يكون لأحد من رعيتهم كلمة فوق كلمتهم فيتجهمون لمن يبدى لهم نصيحة أو يعرفهم واجباً فيحاربونهم لقصد إذلالهم وحط درجتهم ولكن الذى يريد الله ومصلحة المسلمين بنصيحة فإنه لايضره شىء من ذلك والتاريخ شاهد صدق على ذلك

ومن حسنات الوليد استعانته فى عمله بعمر بن عبدالعزيز الذى أعاد سيرة سلف هذه الأمة الصالح فقدولاه المدينة سنة ٨٧ فقدمها وسنه ٢٥ سنة فنزل دار مروان ولما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة عروة بن الزبير وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة وأبابكر بن عبدالرحمن وأبابكر بن سليمان بن أبى خيثمة وسليمان بن يسار والقاسم ابن محمد بن أبى بكر وسالم بن عبدالله بن عمر وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد وهم إذ ذاك سادة فقهاء الدنيا فلما دخلوا عليه أجلسهم ثم حمدالله وأثنى عليه ثم قال إنى إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق ماأريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأى من حضر منكم فإن رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لى ظلامة فأخرج الله على من بلغه ذلك إلا بلغنى فخرجوا يجزونه خيراً وافترقوا وبهذا العمل جدد فيهم سيرة عمر بن الخطاب وهو جده من قبل أمه وقد عزله الوليد عن المدينة سنة ٩٣ بسبب شكوى من الحجاج أن مراق أهل العراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولجأوا إلى المدينة ومكة وأن ذلك وهن واستشاره فيمن يوليه على المدينة فأشار بعثمان بن حيان المرى فولاه المدينة

المحاضرة الثامنة والثلاثون

الفتوح فى عهد الوليد — ولاية العهد — وفاة الحجاج

وفاة الوليد — سليمان

الفتوح فى عهد الوليد

اشتهر فى زمن الوليد أربعة قواد عظام كان لهم أجمل الأثر فى الفتح الإسلامى وهم :

(١) محمد بن القاسم بن محمد الثقفى

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلى

(٣) موسى بن نصير

(٤) مسلمة بن عبدالملك بن مروان

فأما القاسم بن محمد فإنه كان أميراً على ثغر السند من قبل الحجاج بن يوسف وكان الحجاج قد ضم إليه ستة آلاف من جند أهل الشام وجهزه بكل ما احتاج إليه فسار القاسم إلى بلاد السند حتى أتى الديبل [١] فنزل عليه وكان به بد عظيم والبد منارة عظيمة تتخذ فى بناء لهم فيه صنم أو أصنامهم وكان كل شىء أعظموه من طريق العبادة فهو عندهم بد وكانت كتب الحجاج ترد على محمد وكتب محمد ترد على الحجاج بصفة ماقبله واستطلاع رأيه فيما يعمل به كل ثلاثة : ولم يزل القاسم حاصراً الديبل حتى خرج العدو إليه مرة فهزمهم ثم أمر بالسلالم فوضعت وصعد عليها الرجال ففتحت عنوة وقتل عامل داهر عليها ثم بنى بها مسجداً وأنزلها أربعة آلاف . ثم أتى البيرون فأقام أهله العلوفة للقاسم وأدخلوه مدينتهم وكانوا قد بعثوا سمنيين منهم إلى الحجاج فصالحوه فوفى لهم محمد بن القاسم بالصلح ثم جعل لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر نهر دون مهران [٢] فأتاه سمنين سربيدس فصالحوه على من خلفهم ووظف عليهم الخراج وسار إلى سهبان ففتحها ثم إلى مهران فبلغ ذلك داهر ملك السند فاستعد لمحاربته :

(١) مدينة على ساحل نهر الهند

(١) نهر السند يصب فى خليج فارس وهو نهر بقدر دجلة

ثم إنّ محمداً عبر مهران وهو نهر السند على جسر عقد فالتقى بداهر فى جنوده الكثيرة وهو على فيل وحوله الفيلة فاقتتلوا قتالا شديداً لم يسمع وترجل داهر وقاتل فقتل عند المساء وانهزم المشركون فقال فى ذلك قاتل داهر :

الخيل تشهد يوم داهر والقنا ومحمد بن القاسم بن محمد
أنى فرجت الجمع غير معرد حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلا متعفر الخدين غير موسد

ولما قتل داهر غلب محمد على بلاد السند . ثم فتحوا راور عنوة ثم أتى برهمناباذ العتيقة فقاتله بها فل داهر ولكنهم انهزموا فخلف بها عاملا ثم سار فتلقاه أهل ساوندرى وسألوه الأمان فأعطاهم إياه واشترط عليهم ضيافة المسلمين ودولتهم ثم تقدم إلى يسمد فصالح أهلها على مثل صلح ساوندرى : ثم انتهى إلى الرور [1] وهى من مدائن السند فحصر أهلها ثم فتحها صلحا على أن لا يقتلهم ولا يعرض لبدهم وقال ماالبد إلا ككنائس النصارى واليهود وبيوت نيران المجوس ووضع عليهم الخراج وبنى بالرور مسجداً ، ثم سار حتى قطع نهر بياس إلى الملتان فقاتله أهل الملتان فهزمهم حتى أدخلهم المدينة وحصرهم ثم نزلوا على حكمه فقتل كثيراً منهم وأصاب فيها مغانم كثيرة وافرة وكان بد الملتان تهدى إليه الأموال وتنذر له النذور ويحج إليه السند فيطوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده فحاز محمد ذلك كله : وفى ذلك الوقت بلغته وفاة الحجاج فرجع عن الملتان إلى الرور وبغرور وكان قد فتحها فأعطى الناس ووجه إلى البيلمان جيشاً فلم يقاتلوا وأعطوا الطاعة وسالمه أهل سرست ثم أتى الكرج فخرج إليه دوهر فقاتله فانهزم العدو وهرب دوهر . بعد هذه الفتوح العظيمة التى نشرت ظل الإسلام على جميع بلاد السند مات الوليد بن عبد الملك فوقف أمر محمد وسنتكلم بعد على خاتمة حياته . وأما قتيبة بن مسلم فكان أميراً على خراسان للحجاج ابن يوسف ولاه عليها بعد المفضل بن المهلب سنة ٨٦ فلما قدمها خطب الناس وقال لهم : إنّ الله قد أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرامات ويزيد بكم المال

---

(١) ناحية بالسند تقرب من الملتان فى الكبر وعليها سوران وهى على شاطئ نهر مهران على البحر وهى متجر وفرضة بهذه البلاد وبينها وبين الملتان أربع مراحل وبالقرب من الرور مدينة بغرور

استفاضة والعدوّ وقدا ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح . إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) ثم أخبر عمن قتل فى سبيله أنه حىّ مرزوق فقال (ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون) فتنجزوا موعود ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر وأمضى ألم وإياكم والهوينا

ثم عرض الجند فى السلاح والكراع وسار واستخلف على مرو فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وعظماؤهم فساروا معه ولما قطع النهر تلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفتاح من ذهب فدعاه إلى بلاده فأتاه وأتى ملك كفتان بهدايا وأموال ودعا إلى بلاده فمضى مع ملك الصغانيان فسلم إليه بلاده وكان ملك آخرون وشومان قد أساء جواره وضيق عليه فسار قتيبة إلى آخرون وشومان وهما من طخاستان فجاءه الملك فصالحه على فدية أداها فقبلها قتيبة ورضى ثم عاد إلى مرو واستخلف على الجند ولما علم بذلك الحجاج كتب إليه يلومه ويعجز رأيه فى تخليفه الجند وكتب إليه إذا غزوت فكن فى مقدّم الناس وإذا قفلت فكن فى أخرياتهم وساقتهم

وفى سنة ٨٧ قدم على قتيبة نيزك وصالحه وكان سبب ذلك أنه كان فى يد نيزك أسرى من المسلمين فكتب إليه قتيبة يأمره بإطلاقهم ويتهدده فخافه نيزك فأطلق الأسرى فوجه إليه قتيبة يطلب منه القدوم عليه وحلف بالله لئن لم يفعل ليغزونه وليطلبنه حيث كان لا يقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك فقدم عليه نيزك وصالحه على أهل بادغيس على أن لا يدخلها

بعد ذلك غزا قتيبة بيكند وهى أدنى مدائن بخارى إلى النهر فلما نزل بهم استنصروا الصغد واستمدوا من حولهم فأتوهم فى جمع كثير وأخذوا بالطريق فلم ينفذ لقتيبة رسول ولم يصل إليه رسول ولم يجر له خبر شهرين وأبطأ خبره على الحجاج فأشفق على الجند والقتال دائر بين قتيبة وبين عدوه وفى ذات يوم التقى المسلمون عدوّهم بجد حتى أنزل الله عليهم نصره

فانهزم العدو عنهم يريدون دخول المدينة فحال المسلمون بينهم و بينها فتفرقوا وركب المسلمون أكتافهم واعتصم بالمدينة عدد قليل دخلها ولما رأوا قتيبة ابتدأ بهدمها سألوه الصلح فصالحهم وولى عليهم أميراً وسار عنهم فلما كان على خمسة فراسخ بلغه أن أهل بيكند غدروا بالعامل فقتلوه وأصحابه فرجع إليهم وفتح المدينة عنوة فقتل مقاتلها وأصاب فيها مغانم كثيرة ثم عاد إلى مرو . ولما كان الربيع سار عن مرو فى عدة حسنة من الدواب والسلاح وعبر النهر حتى أتى نومشكث وهى من بخارى فصالحه أهلها ثم سار إلى رامثينة فصالحه أهلها فانصرف عنهم وزحف اليه الترك معهم الصغد وأهل فرغانه فاعترضوا المسلمين فى طريقهم فقاتلهم المسلمون قتالا شديداً أبلى فيه نيزك بلاء حسنا وهو مع قتيبة حتى انهزم الترك وفض جمعهم ثم رجع إلى مرو فقطع النهر من ترمذ يريد بلخ ثم أتى مرو

ثم أراد أن يفتح بخارى فعبر النهر ومضى إلى بخارى فنزل خرقانة السفلى فلقيته جموع كثيرة فقاتلهم وهزمهم ولما وصل بخارى استعدله ملكها فلم يظفر من البلد بشىء فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بذلك فكتب إليه الحجاج أن صورها لى فبعث إليه بصورتها فكتب إليه الحجاج أن ارجع إلى مراغتك فتب إلى الله مما كان منك وإنها من مكان كذا فخرج قتيبة من مرو سنة ٩٠ فانتصر ملك بخارى بالصغد والترك من حولهم ولكن قتيبة سبقهم إلى بخارى فحصرها وفى أثناء الحصار جاء أهل بخارى المدد فخرجوا لقتال المسلمين فصبروا لهم ثم جال المسلمون وركبهم المشركون فحطموهم حتى دخلوا عسكر قتيبة فى القلب وجازوه حتى ضرب النساء وجوه الخيل وبكين فكر الناس راجعين وانطوت مجنبتا المسلمين على الترك فقاتلوهم حتى ردوهم إلى مواقفهم فوقف الترك على نشز فقال قتيبة من يزيلهم لنا من هذا الموضع فلم يجبه أحد فمشى إلى بنى تميم وقال لهم يوم كأيامكم أبى لكم الفداء فأخذ وكيع وهو رأسهم اللواء بيده وقال يابنى تميم أتسلموننى اليوم قالوا لا ياأبا مطرف وكان هزيم بن أبى طحمة المجاشعى على خيل بنى تميم فقال وكيع قدم ياهزيم ودفع إليه الراية وقال قدم خيلك فتقدم هزيم ودب وكيع فى الرجال فانتهى هزيم إلى نهر بينه وبين العدو فوقف فقال له وكيع أقحم ياهزيم فنظر إليه هزيم نظر الجمل الصؤول وقال أنا أقحم خيلى هذا النهر فان انكشفت كان هلاكها والله إنك لأحمق فقال وكيع مغضبا أتخالفنى وحذفه بعمود كان معه فضرب هزيم فرسه فأقحمه وقال مابعد أشد منه وعبر هزيم فى الخيل وانتهى وكيع إلى النهر فدعا بخشب فقنطر النهر

وقال لأصحابه من وطن منكم نفسه على الموت فليعبر ومن لا فليثبت مكانه فعبر معه ٨٠٠ راجل فدب فيهم حتى إذا أعيوا أقعدهم فأراحوا ثم دنا من العدو فجعل الخيل بجنبتيه وقال لهزيم إنى مطاعن القوم فأشغلهم عنا بالخيل وقال للناس شدوا فحملوا فما انثنوا حتى خالطوهم وحمل هزيم خيله عليهم فطاعنوهم بالرماح فما كفوا عنهم حتى حدروهم عن موقفهم وهزموهم وجرح فى هذا اليوم خاقان ملك الترك وابنه . ولما تم الفتح كتب به قتيبة إلى الحجاج ولما تم لقتيبة ما أراد من بخارى هابه أهل الصغد فطلبوا صلحه فصالحهم على فدية يؤدونها

وفى سنة ٩٣ فتح قتيبة مدائن خوارزم صلحا وكانت مدينة الفيل أحصنهم ثم غزا سمرقند وهى مدينة الصغد ففتحها بعد قتال شديد وبنى بها مسجدا وصلى فيه وكان معه فى هذه الغزوة أهل بخارى وخوارزم ولما فتحها دعا نهار بن توسعة فقال يا نهار أين قولك

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب

أقام بمرو الروذ رهن ضريحه وقد غيبا عن كل شرق ومغرب

أفغزو هذا يا نهار قال لا هذا أحسن وأنا الذى أقول :

وما كان مذ كنا ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم

أعم لأهل الترك قتلا بسيفه وأكثر فينا مقسما بعد مقسم

ثم ارتحل قتيبة راجعا إلى مرو واستخلف على سمرقند عبدالله بن مسلم وخلف عنده جندا كثيفا وآلة من آلات الحرب كثيرة . ثم انصرف إلى مرو فأقام بها

وفى سنة ٩٤ غزا قتيبة شاش [١] وفرغانه [٢] حتى بلغ خجندة وكاشان مدينتى فرغانة وقاتله أهل خجندة قتالا شديدا فهزمهم ثم أتى كاشان فافتتحها وفى سنة ٩٦ افتتح مدينة كاشغر [٣] وهى أدنى مدائن الصين سار اليها من مرو فمر بفرغانة وجاءه وهو بها موت الوليد بن عبد الملك فلم يقعده ذلك عن الغزو وسار إلى كاشغر فافتتحها وكان

---

(١) أقليم متاخم لبلاد الترك وإقليمها أكبر إقليم بما وراء النهر وخراسان وقصبتها بنكث وله مدن كثيرة خربت

(٢) مدينة وكورة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان فى زاوية من ناحية هيطل بينها وبين سمرقند ٥٠ فرسخ ومن ولايتها خجندة

(٣) مدينة يسافر اليها من سمرقند وهى فى وسط بلاد الترك

بينه وبين ملك الصين هناك مراسلات وأرسل اليه قتيبة وفدا عليهم هبيرة بن المشمرج الكلابي فلما كلمهم ملك الصين قال لهم قولوا لقتيبة ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة أصحابه وإلا بعثت اليكم من يهلككم ويهلكه فقال له هبيرة كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادرا عليها وغزاك وأما تخويفك إيانا بالقتل فان لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه قال فما الذي يرضي صاحبك قال إنه قد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويعطى الجزية قال فإنا نخرجه من يمينه نبعث اليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم ونبعث إليه بجزية يرضاها ثم دعا بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم ثم أجاز الوفد فساروا حتى قدموا على قتيبة فقبل الجزية وختم الغلمة وردهم ووطىء التراب ثم عاد إلى مرو

هكذا فتح هذا القائد العظيم تلك البلاد الواسعة وضمها إلى المملكة الإسلامية فانتشر فيها الإسلام حتى أخرجت العظماء من كتاب المسلمين وفقهائهم ومحدثيهم وعلمائهم : كانت لقتيبة همة لم تعرف عن الكثير من قواد الجنود وكان له في سياسة جنده الغاية فأحبهم وأحبوه وساقهم إلى الموت فلم يبالوا وسنتكلم بعد على خاتمة حياته

وأما موسى بن نصير فإنه ذلك القائد العظيم الذي فتح بلاد الأندلس وأدخل الإسلام في قارة أوربا ولما كنا عازمين أن نفرد تاريخ الأندلس بفصل خاص نعقده له فيما نستقبل من محاضراتنا إن شاء الله فإنا نؤجل الكلام عن فتحه الآن

وأما مسلمة بن عبد الملك فإن عزيمته ظهرت في حروب الروم فكان في كل سنة يسير إليهم الجنود فيفتتح ما أمامه من الحصون العظيمة التي أقامها الروم لحفظ بلادهم وربما كان يغزو معه العباس بن الوليد بن عبد الملك ومن الحصون التي افتتحوها حصن طوانة وحصن عمورية وإذا ورلية وهرقلة وقمونية وسبسطية والمرزبانين وطرسوس وكثير غيرها حتى هابهم الروم

ولاية العهد

كان عبد الملك قد ولى عهده ابنيه الوليد ثم سليمان ولم يعتبر بما كان منه في حق أخيه عبد العزيز وقد أعاد الوليد عمل أبيه فأراد عزل سليمان وتولية عبد العزيز بن

الوليد ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه إلا الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس فأشار على الوليد بعض خاصته أن يستقدم سليمان ويريده على خلع نفسه وبيعة عبد العزيز فكتب إليه فاعتل فأراد الوليد أن يسير إليه فأمر الناس بالتأهب ولكن منيته حالت دون ذلك . ومن هذا كان الجفاء الشديد بين سليمان والحجاج ومن على رأيه

وفاة الحجاج

فى شوال سنة ٩٥ توفى بالعراق الحجاج بن يوسف الثقفى أمير العراقين وما بينهما من المشرق كله وكانت سنه ٥٤ سنة واستخلف على الصلاة ابنه عبد الله بن الحجاج وعلى حرب الكوفة والبصرة يزيد بن أبى كبشة وعلى خراجهما يزيد بن أبى مسلم وكانت ولايته على العراقين عشرين سنة

كانت للحجاج نفس تحب العلو فى الأرض ولا تقبل أن يقف فى طريقها عظيم من العظماء أوسيد من السادات فإن فعل أحد شيئا من ذلك هاجت تلك النفس ولم تبال بما فعلت فى سبيل تأييد سلطانها ونفاذ كلمتها وإذا كان لتلك النفس قوة فهناك العذاب الأكبر والعسف الشديد وإذا كانت تلك النفس ضعيفة استعملت ما يمكنها من فتنة الناس والسعى بينهم بالأنباء الكاذبة حتى تكبهم على وجوههم وكان الحجاج من القسم الأول فعسف بأهل العراق وأذل عظماءهم حتى لم يكن عندهم امتناع : أسرف فى القتل والجور لتأييد سلطانه وسلطان من ولاه حتى انتهى أمره إلى السلطان القاهر والكلمة التى لا ترد : قال له عبدالملك يوما كل امرئ يعرف عيوب نفسه فعب نفسك ولا تخبأ عنى شيئاً . قال أنا لجوج حقود حسود : ومتى كانت هذه الصفات فى ذى سلطان أهلك الحرث والنسل إلا أن يدين له الناس ويذلوا وهكذا فعل الحجاج

لم يكن الحجاج خالياً من الفضائل بل كان يعجبه الصدق والكلمة الحسنة تبدر من صاحبها وربما كفته شرا عظيما : وكان فصيحاً لا يكاد يعادله أحد فى الفصاحة من أهل زمنه وكانوا يقرنون به الحسن البصرى وكان من قراء القرآن وحفاظه المعدودين : وعلى الجملة فان الرجل مهد بلاد العراق بعد أن ضحى فى سبيل ذلك أرواحا كثيرة وكان الخراج العراقى فى زمن الفتن والعسف قد قل جدا : وأنا كما علمتم

لست ممن يعجبه الإصلاح بطريقة الحجاج ولا أعدها إصلاحا حقيقيا وإنما هى طريقة إذلال وإخضاع لا يدوم أثرها كثيراً لأن النفوس تنطوى على ما فيها من البغض والكراهة حتى إذا حانت لها الفرصة وثبت

وفاة الوليد بن عبد الملك :

فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦ توفى بدير مران الوليد بن عبدالملك (٢٥ فبراير سنة ٧١٥) بعد أن مكث فى الخلافة تسع سنين وثمانية أشهر (من منتصف شوال سنة ٨٦ إلى منتصف جمادى الثانية سنة ٩٦) وكانت سنه إذ توفى ستاوأربعين سنة وكان له من الأولاد تسعة عشر ابناً

٧ — سليمان

هو سليمان بن عبد الملك بن مروان ولد سنة ٥٤ من الهجرة

بويع بالخلافة بعد موت أخيه وكان بالرملة من أرض فلسطين وكانت لأول عهده أحداث خير وشر

كان سليمان يبغض الحجاج وأهله وولاته وكان الحجاج يخشى أن يموت الوليد قبله فيقع فى يد سليمان فعجل الله به وكان على العكس من ذلك يميل إلى يزيد بن المهلب عدو الحجاج الألد : فلما ولى سليمان كان أول عمل بدأ به أن ولى يزيد بن أبى كبشة السكسكى السند فأخذ محمد بن القاسم وقيده وحمله إلى العراق فقال محمد متمثلا

أضاعونى وأى فتى أضاعوا   ليوم كريهة وسداد ثغر

فبكى أهل السند على محمد فلما وصل إلى العراق حبس بواسط فقال :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها   رهن الحديد مكبلا مغلولا
فلرب قينة فارس قد رعتها   ولرب قرن قد تركت قتيلا

ثم عذبه صالح بن عبد الرحمن فى رجال من آل أبى عقيل حتى قتلهم وبذلك انتهت حياة هذا القائد إرضاء لأهواء الخليفة حتى تقر نفسه بالانتقام وتناسى مافعله ذلك القائد من عظيم الأعمال ولا ندرى كيف تنبغ القواد وتخلص قلوبهم إذا رأوا أن نتيجة أعمالهم تكون على مثل ذلك

أما القائد الثانى قتيبة بن مسلم فانه كان ممن وافق الوليد على غرضه فى عزل سليمان وتولية ابنه عبد العزيز فاضطغنها عليه سليمان وهو يعد من صنائع الحجاج

فلما ولى سليمان أشفق منه قتيبة وخاف أن يولى خراسان يزيد بن المهلب فكتب إليه كتابا يهنئه بالخلافة ويعزيه عن الوليد ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد وأنه له على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان وكتب كتابا ثانيا يعلمه فيه فتوحه ونكايته وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته فى صدورهم وعظم صوته فيهم ويذم المهلب وآل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه وكتب كتابا ثالثا فيه خلعه وأرسل الكتب الثلاثة مع رجل باهلى وقال له ادفع إليه الكتاب الأول فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً فقرأ الكتاب ورماه إليه فادفع إليه الثانى فإن قرأه ورماه إليه فادفع إليه الثالث فإن قرأ الكتاب الأول ولم يرمه إليه فاحتبس الكتابين الآخرين فقدم رسول قتيبة على سليمان وعنده يزيد بن المهلب فدفع إليه الكتاب الأول فقرأه ورماه إلى يزيد فدفع إليه الثانى فقرأه ورماه إلى يزيد فأعطاه الثالث فقرأه فتمعر وجهه واحتبس الكتاب فى يده وحول الرسول إلى دار الضيافة ولما أمسى أجاز الرسول وأعطاه عهد قتيبة على خراسان فخرج حتى إذا كان بحلوان بلغه ما كان من أمر قتيبة فان قتيبة غير مطمئن إلى سليمان فأجمع رأيه على خلعه فدعا الناس الذين معه إلى ذلك فأبى عليه الناس وولوا أمرهم وكيعاً سيد بنى تميم فثار على قتيبة حتى قتلوه هو وإخوته وأكثر بنيه . قال رجل من عجم خراسان يامعشر العرب قتلتم قتيبة والله لو كان منا فمات فينا جعلناه فى تابوت فكنا نستفتح به إذا غزونا وما صنع أحد قط بخراسان ما صنع قتيبة إلا أنه قد غدر وذلك أن الحجاج كتب اليه أن احتلهم واقتلهم وكانوا يسمون قتيبة هناك ملك العرب فانظروا كيف كانت قوة قتيبة وسيادته فى الجماعة وكيف ضاع ذلك كله بسبب هذه الفتنة التى تعجلها قتيبة وما كان ضره لو تأنى قال عبد الرحمن ابن جمانة الباهلى يرثيه :

كأن أبا حفص قتيبة لم يسر ... بجيش إلى جيش ولم يعل منبراً
ولم تخفق الرايات والقوم حوله ... وقوف ولم يشهد له الناس عسكراً
دعته المنايا فاستجاب لربه ... وراح إلى الجنات عفا مطهراً
فما رزئ الاسلام بعد محمد ... بمثل أبى حفص فيبكيه عبهراً

وكانت قيس تزعم أن قتيبة لم يخلع وإنما تجنى عليه وكيع وعلى كل حال فإن الذى

حصل كان موافقا لهوى سليمان بن عبد الملك

وأما القائد الثالث وهو موسى ابن نصير فإن خاتمة حياته كانت أتعس من صاحبيه فإنه قبل أن يتوفى الوليد استقدمه إلى دمشق فقدم وقد مات الوليد وكان سليمان منحرفا عنه فعزله عن جميع الأعمال وحبسه وأغرمه مالا عظيماً لم يقدر على وفائه فكان يسأل العرب فى معونته وعلى الجملة فإن فاتحة عهد سليمان لم تكن مما يسر لما أصاب هؤلاء القواد العظام من التعس بعد حسن بلائهم

أما العامة فإنهم استبشروا به لأنه أزاح عنهم عمال الجور والعسف الذين كانوا عليهم فى عهد أخيه وأطلق الأسارى وخلى أهل السجون وأحسن إلى الناس

الفتوح فى عهده :

فى عهد إمارة يزيد بن المهلب خراسان فتح دهستان بعد أن حاصرها مدة طويلة ثم أتى جرجان فصالحه أهلها وخلف فيهم جندا وسار إلى طبرستان فقاتله بها الاصبهبذ قتالا شديداً ثم صالحه أخيراً وبينا هو محاصر طبرستان بلغه أن أهل جرجان غدروا بعامله وقتلوه هو ومن معه فعاد اليهم وفتح جرجان الفتح الأخير وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وكان فتحه لهذه البلاد فتحا عظيما لأنها كانت ارتدت وقطعت الطريق على المسلمين وكتب يزيد إلى سليمان بن عبد الملك (أما بعد فإن الله قد فتح لأمير المؤمنين فتحا عظيما وصنع للمسلمين أحسن الصنع فلربنا الحمد على نعمه وإحسانه فى خلافة أمير المؤمنين على جرجان وطبرستان وقد أعيا ذلك سابور ذا الأكتاف وكسرى ابن قباذ وكسرى بن هرمز وأعيا الفاروق عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان ومن بعدهما من خلفاء الله حتى فتح الله ذلك لأمير المؤمنين كرامة من الله له وزيادة فى نعمه عليه وقد صار عندى من خمس ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذى حق حقه من الفىء والغنيمة ستة آلاف ألف وأنا حامل ذلك لأمير المؤمنين إن شاء الله)

فى بلاد الروم :

فى عهد سليمان سنة ٩٨ جهز أخاه مسلمة بن عبد الملك بجند عظيم لفتح القسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها أو يأتيه بها أمره فجاءها وحصرها وشتى بها وصاف ومات سليمان وهو لها محاصر

ولاية العهد :

كان سليمان بن عبدالملك قدعهد لابنه أيوب فمات وهوولى عهده فلمامرض سليمان استشار رجاءبن حيوة فى تولية عمر بن عبدالعزيز فوافقه على ذلك وكتب (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبدالله سليمان أميرالمؤمنين لعمر بن عبدالعزيز إنى قد وليتك الخلافة من بعدى ومن بعدك يزيد بن عبدالملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولاتختلفوا فيطمع فيكم عدوكم) وختم الكتاب وأمر بجمع أهل بيته فلما اجتمعوا قال لرجاء اذهب بكتابى هذا إليهم فأخبرهم أن هذا كتابى وأمرهم فليبايعوا من وليت فبايعوا كلهم من غير أن يعلموا من سماه

وفاة سليمان :

يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩ توفى سليمان بن عبدالملك بدابق من أرض قنسرين بعد أن حكم سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام وكانت سنه إذ توفى ٤٥ سنة.

المحاضرة التاسعة والثلاثون

عمر — يزيد الثانى

٨ — عمر

هو عمر بن عبدالعزيز بن مروان ولد سنة ٦٢ هجرية وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ولى الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك باستخلافه إياه

لما مات سليمان خرج رجاء بعهده الذى لم يكن فتح وجمع بنى أمية فى مسجد دابق وطلب منهم المبايعة مرة ثانية لمن سماه سليمان فى كتابه فلما تمت بيعتهم أخبرهم بوفاة أميرالمؤمنين وقرأ عليهم الكتاب ولما انتهى أخذ بضبعى عمر فأجلسه على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه وهشام بن عبدالملك يسترجع لما أخطأه

ولما تمت البيعة أتى بمراكب الخلافة البراذين والخيل والبغال ولكل دابة سائس فقال ماهذا قالوا مركب الخلافة قال دابتى أوفق لى وركب دابته فصرفت تلك الدواب ثم أقبل سائراً فقيل له منزل الخلافة فقال فيه عيال أبى أيوب وفى فسطاطى

كفاية حتى يتحولوا فأقام فى منزله حتى فرغوه بعد

كان عمر بن عبد العزيز بعيدا عن كبرياء الملوك وجبروتهم فأعاد إلى الناس سيرة الخلفاء الراشدين الذين كانوا ينظرون إلى أمتهم نظر الأب البار ويعدلون بينهم فى الحقوق ويعفون عن أموال الرعية والدنيا عندهم أهون من أن يهتم بجمعها . كذلك كان عمر بن عبد العزيز

فى أول خلافته أرسل كتابا عاما إلى جميع العمال بالأمصار هذه نسخته (أما بعد فإن سليمان بن عبد الملك كان عبدا من عبيد الله أنعم الله عليه ثم قبضه واستخلفنى ويزيد بن عبد الملك من بعدى إن كان وإن الذى ولانى الله من ذلك وقدرلى ليس علىّ بهين ولو كانت رغبتى فى اتخاذ أزواج واعتقال أموال كان فى الذى أعطانى من ذلك ماقد بلغ بى أفضل ما بلغ بأحد من خلقه وأنا أخاف فيما ابتليت به حسابا شديدا ومسئلة غليظة إلا ماعافى الله ورحم وقد بايع من قبلنا فبايع من قبلك) وهذا الكتاب ينبئ عن حقيقة الرجل وتواضعه وبعده عن الزهو والكبرياء وشعوره بعظيم ما أتى عليه من أمر المسلمين

مما يدل على حبه للعدل والوفاء أن أهل سمرقند قالوا لعاملهم سليمان بن أبى السرح إن قتيبة غدربنا وظلمنا وأخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليفدمنا وفد إلى أمير المؤمنين يشكون ظلامتنا فإن كان لنا حق أعطيناه فإنّ بنا إلى ذلك حاجة فأذن لهم فوجهوا منهم قوما إلى عمر فلما علم عمر ظلامتهم كتب إلى سليمان يقول له إن أهل سمرقند قد شكوا ظلماً أصابهم وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم فإذا أتاك كتابى فأجلس لهم القاضى فلينظر فى أمرهم فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة فأجلس لهم سليمان جميع بن حاضر القاضى فقضى أن يخرج عرب سمرقندى إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً : عنوة فقال أهل الصغد بل نرضى بما كان ولا نجدد حربا لأنّ ذوى رأيهم قالوا قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فإن عدنا إلى الحرب لاندرى لمن يكون الظفر وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة فى المنازعة فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا : وهذا عمل لم نعلم أن أحدا وصل فى العدل اليه

ومما يبين رفقه بالأمة وميله إلى جمع كلمتها أن خارجة خرجت عليه بالعراق فكتب إلى عامله يأمره أن لايحركهم إلا أن يسفكوا دما أو يفسدوا فى الأرض فإن فعلوا فحل بينهم وبين ذلك وانظر رجلا صليبا حازما فوجهه اليهم ووجه معه جنداً وأوصه بما أمرتك فجهزلهم ألفين عليهم محمد بن جرير بن عبدالله البجلى وكتب عمر إلى رئيس الخارجة واسمه بسطام من بنى يشكر يدعوه ويسأله عن سبب خروجه فجاءه كتاب عمر ومحمد بن جرير وكان كتاب عمر « بلغنى أنك خرجت غضبا لله ولنبيه ولست بأولى بذلك منى فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرنا » فكتب بسطام إلى عمر قد أنصفت وقد بعثت اليك رجلين يدارسانك ويناظرانك . ولما وصل هذان الرجلان إلى عمر ناظراه فقال لهما عمر ما أخرجكما هذا المخرج وما الذى نقمتم . فقال المتكلم مانقمنا سيرتك إنك لتتحرى العدل والإحسان فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضا من الناس ومشورة أم ابتززتم أمرهم : فقال عمر ماسألتهم الولاية عليهم ولاغلبتهم عليها وعهد إلىّ رجل كان قبلى فقمت ولم ينكره علىّ أحد ولم يكرهه غيركم وأنتم ترون الرضا بكل من عدل وأنصف من كان من الناس فأتركونى ذلك الرجل وإن خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لى عليكم . فقال بيننا وبينك أمر واحد رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك وسميتها مظالم فإن كنت على هدى وهم على ضلالة فالعنهم وابرأ منهم فقال عمر قد علمت أنكم لم تخرجوا طلبا الدنيا ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها إنّ الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لعانا وقال إبراهيم (فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم) وقال الله عز وجل (أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده) وقد سميت أعمالهم ظلما وكفى بذلك ذما ونقصا وليس لعن أهل الذنوب فريضة لابدّ منها فإن قلتم إنها فريضة فأخبرنى متى لعنت فرعون قال ماأذكر متى لعنته قال أفيسعك أن لاتلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ولايسعنى إلا أن ألعن أهل بيتى وهم مصلون صائمون - قال أماهم كفار بظلمهم قال لا لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقر به وبشرائعه قبل منه فإن أحدث حدثا أقيم عليه الحدّ فقال الخارجى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده قال عمر فليس أحد منهم يقول

لا أعمل بسنة رسول الله ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم على علم منهم أنه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء - قال الخارجي فأبرأ مما خالف عملك ورد أحكامهم قال عمر أخبرني عن أبي بكر وعمر أليسا على حق قال بلى قال أتعلم أنّ أبا بكر حين قاتل أهل الردّة سفك دماءهم وسبي الذراري وأخذ الأموال قال بلى قال أتعلم أن عمر ردّ السبايا بعده إلى عشائرهم بفدية قال نعم قال فهل برئ عمر من أبي بكر قال لا قال أفتبرؤن أنتم من واحد منهما قال لا قال فأخبرني عن أهل النهروان وهم أسلافكم هل تعلم أن أهل الكوفة خرجوا فلم يسفكوا دمًا ولم يأخذوا مالا وأن من خرج إليهم من أهل البصرة قتلوا عبدالله بن خباب وجاريته وهي حامل قال نعم - قال فهل برئ من لم يقتل ممن قتل واستعرض قال لا قال أفتبرؤن أنتم من إحدى الطائفتين قال لا قال أفيسعكم أن تتولوا أبا بكر وعمر وأهل البصرة وأهل الكوفة وقد علمتم اختلاف أعمالهم ولا يسعني إلا البراءة من أهل بيتي والدين واحد فاتقوا الله فإنكم جهال تقبلون من الناس ما ردّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتردّون عليهم ما قبل ويأمن عندكم من خاف عنده ويخاف عندكم من أمن عنده فإنكم يخاف عندكم من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وكان من فعل ذلك عند رسول الله آمنا وحقن دمه وماله وأنتم تقتلونه ويأمن عندكم سائر أهل الأديان فتحرمون دماءهم وأموالهم فقال الخارجي أرأيت رجلا ولى قوما وأموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون أتراه أدّى الحق الذي يلزمه الله عز وجل أو تراه قد سلم قال عمر لا قال أفتسلم هذا الأمر إلى يزيد من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق قال إنما ولاه غيري والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي قال أفترى ذلك من صنع من ولاه حقا . وكان هذا السؤال الأخير محرجا لعمر فطلب النظرة في الإجابة عنه

وكانت هذه المناظرة سببا لأن أحد الرسولين شهد أن عمر على حق وأقام عنده فأمر له بالعطاء أما الثاني فقال ما أحسن ما وصفت ولكني لا أفتات على المسلمين بأمر أعرض عليهم ما قلت وأعلم ما حجتهم . فانظروا كيف فعل عمر مع هؤلاء الناس لما علم أنهم إنما خرجوا طلبا للآخرة ولكنهم أخطأوا طريقها فإنه طلبهم وناظرهم ليعلمهم الحق ويكشف لهم عن أمره وهذا من نهاية الرفق على أمته

ومن أعماله العظيمة تركه لسب علي بن أبي طالب على المنابر وكان بنو أمية يفعلونه

فتركه وكتب إلى الأمصار بتركه وكان الذى وقر ذلك فى قلبه أنه لما ولى المدينة كان من خاصته عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود من فقهاء المدينة فبلغه عن عمر شىء عما يقوله بنو أمية فقال عبيد الله متى علمت أنّ الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان بعد أن رضى عنهم فقال لم أسمع ذلك قال فما الذى بلغنى عنك فى على فقال عمر معذرة إلى الله وإليك وترك ما كان عليه فلما استخلف وضع مكان ذلك (إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) فأى شر رفع وأى خير وضع وقال فى ذلك كثير عزة :

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف بريا ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وإنما تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت معروف الذى قلت بالذى فعلت فأضحى راضيا كل مسلم
ألا إنما يكفى الفتى بعد زيغه من الأود البادى ثقاف المقوم

ومن إصلاحه أمره بعمل الخانات فى البلدان القاصية فقد كتب إلى سليمان بن أبى السرى أن اعمل خانات فمن مر بك من المسلمين فأقروه يوما وليلة وتعهدوا دوابهم ومن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين وإن كان منقطعا فأبلغه بلده.

ومما يذكر به أنه أبطل مغارم كثيرة كانت قد استحدثت فى عهد الحجاج بن يوسف فقد كتب إلى أمير العراق (أما بعد فإنّ أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدّة وجور فى أحكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء وإن قوام الدين العدل والإحسان فلا يكون شىء أهم إليك من نفسك فلا تحملها قليلا من الإثم ولا تحمل خرابا على عامر وخذ منه ما طاق وأصلحه حتى يعمر ولا يؤخذن من العامر إلا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لأهل الأرض ولا تأخذن أجور الضرابين ولا هدية النوروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت ولا درهم النكاح ولا خراج على من أسلم من أهل الذمة فاتبع فى ذلك أمرى فإنى قد وليتك من ذلك ما ولانى الله) : ومما فعله أنه نهى عن تنفيذ حكم بقتل أو قطع إلا بعد أن يراجع فيه بعد أن كانت الدماء قبله تراق من غير حساب بل على حسب هوى الأمير وماذكر الحجاج عنكم ببعيد ومن الحكمة أن لا يتساهل فى مثل هذه الحدود وضم رأى الخليفة إلى رأى القاضى الذى حكم ضمان كبير لأن يكون الحكم قد وقع موقعه

رده المظالم لأهلها — لما ولى الخلافة أحضر قريشا ووجوه الناس فقال لهم إن فدك كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يضعها حيث أراه الله ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك ثم أقطعها مروان ثم إنها قد صارت إلى ولم تكن من مالى أعود منها على وإنى أشهدكم أنى قد رددتها على ما كانت عليه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: وقال لمولاه مزاحم إن أهلى أقطعونى مالم يكن لى أن آخذ ولا لهم أن يعطونيه وإنى قد هممت برده على أربابه قال فكيف تصنع بولدك فجرت دموعه وقال أتكلهم إلى الله فخرج مزاحم حتى دخل على عبدالملك بن عمر فقال له إن أمير المؤمنين قد عزم على كذا وكذا وهذا أمر يضركم وقد نهيته عنه فقال عبدالملك بئس وزير الخليفة أنت ثم قام فدخل على أبيه وقال إن مزاحما أخبرنى بكذا وكذا فما رأيك قال إنى أردت أن أقوم به العشية وقال عجلة فما يؤمنك أن يحدث لك حدث أو يحدث بقلبك حدث فرفع عمر يديه وقال الحمد لله الذى جعل من ذريتى من يعيننى على دينى ثم قام من ساعته فى الناس فردها وأخذ من أهله ما بأيديهم وسمى ذلك مظالم ففزع بنو أمية إلى عمته فاطمة بنت مروان فأتته فقالت تكلم يا أمير المؤمنين فقال إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة ولم يبعثه عذابا إلى الناس كافة ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم سواء ثم ولى أبو بكر فترك النهر على حاله ثم ولى عمر فعمل عملها ثم لم يزل النهر يستقى منه يزيد ومروان وعبدالملك ابنه والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إلىّ وقد يبس النهر الأعظم فلم يرد أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه فقالت حسبك قد أردت كلامك فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً فرجعت إليهم فأخبرتهم كلامه وقالت أنتم فعلتم هذا بأنفسكم تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده فسكتوا.

لما ولى عمر قال للناس فى خطبة «من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بجهده: ويدلنا من الخير على ما نهتدى إليه ولا يغتابن أحداً: ولا يعترض فيما لا يعنيه فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله.

كان عمر غير مترف فكان مصرفه كل يوم درهمين وكان يتقشف فى ملبسه كجده عمر ابن الخطاب ولم يتزوج عمر غير فاطمة بنت عبدالملك بن مروان وكان أولاده يعينونه على الخير وكان أشدهم معونة له ابنه عبدالملك فلما مرض مرضه الذى توفى فيه دخل عليه

عمر فقال يابنى كيف تجدك قال أجدنى فى الحق قال يابنى أن تكون فى ميزانى أحب إلىّ من أن أكون فى ميزانك فقال ياأباه لأن يكون ماتحب أحب إلىّ من أن يكون ماأحب فمات فى مرضه وله سبع عشرة سنة قال مرة لأبيه ياأمير المؤمنين ماتقول لربك إذا أتيته وقد تركت حقاً لم تحييه أو باطلا لم تمته فقال يابنى إن أجدادك قد دعوا الناس عن الحق فانتهت الامور إلىّ وقد أقبل شرها وأدبر خيرها ولكن أليس حسنا وجميلا ألا تطلع الشمس على فى يوم إلا أحييت فيه حقا وأمت باطلا حتى يأتينى الموت وأنا على ذلك

وعلى الجملة فإنّ عمر بن عبد العزيز من أفراد الخلفاء الذين لايسمح بهم القدر كثيراً . ويرى المسلمون أن عمر هو الذى بعث على رأس المئة الثانية ليجدد للأمة أمر دينها كما جاء فى حديث « إنّ الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها »

وربما يسأل عمن اكتسب عمر هذه الأخلاق وهو فى بيئة المترفين والأخلاق إنما تكتسب من البيئة التى يعيش فيها الإنسان فنقول إن عمر بن عبدالعزيز أرسله أبوه إلى المدينة وهو صغير فربى فيها بين فقهائها وصلحائها فاكتسب منهم حسن الخلق ومحبة الأمة والعفة عن أموالها والرأفة بها . قال محمد بن على الباقر إن لكل قوم نجيبة وإن نجيبة بنى أمية عمر بن عبدالعزيز وإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده وقال مجاهد أتينا عمر نعلمه فلم نبرح حتى تعلمنا منه وقال ميمون كانت العلماء عند عمر تلامذة وقال عمر ما كذبت مذ علمت أن الكذب يضر أهله

لم يحدث فى عهد عمر شىء من الحوادث الداخلية المهمة إلا ما كان من القبض على يزيد بن المهلب وإحضاره إلى عمر فسأله عن الأموال التى كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك فقال كنت من سليمان بالمكان الذى قد رأيت وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذنى به فقال لاأجد فى أمرك إلا حبسك فاتق الله وأد ماقبلك فإنها حقوق المسلمين ولا يسعنى تركها وحبس بحصن جلب فجاء عمر مخلد يزيد بن المهلب فقال ياأمير المؤمنين إنّ الله منح هذه الأمة بولايتك وقد لتلينا بك فلا نكن نحن أشقى الناس بولايتك علام تحبس هذا الشيخ أنا أحمل ماعليه فصالحنى على ماتسأل فقال عمر لا إلا أن تحمل الجميع فقال ياأمير المؤمنين إن كانت

لك بينة فخذ بها وإلا فصدق مقالة يزيد واستحلفه فإن لم يفعل فصالحه فقال عمر ما آخذه إلا بجميع المال فخرج مخلد من عنده ولم يلبث أن مات فصلى عليه عمر ابن عبدالعزيز واستمر المهلب فى سجنه حتى إذا أحسّ بقرب موت عمر أعدّ للهرب عدّته خوفا من يزيد بن عبدالملك لأنه كان قد حرب آل أبى عقيل وهم أصهار يزيد لأنه كان متزوجا بنت أخى الحجاج وهرب ابن المهلب قاصداً البصرة وكتب إلى عمر إنى والله لو وثقت بحياتك لم أخرج من محبسك ولكنى خفت أن يلى يزيد فيقتلنى شر قتلة فورد الكتاب وبعمر رمق فقال اللهم إن كان يريد بالمسلمين سوءا فألحقه بى وهضه فقد هاضنى

ومن الحوادث الخارجية فى عهده أنه كتب إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام وقد كانت سيرته بلغتهم فأسلم ملوك السند وتسموا بأسماء العرب

واستقدم مسلمة بن عبدالملك من حصار القسطنطينية وأمر أهل طرندة بالقفول عنها إلى ملطية وطرندة داخلة فى البلاد الرومية من ملطية ثلاث مراحل وكان عبدالله ابن عبدالله قد أسكنها المسلمين بعد أن غزاها سنة ٨٣ وملطية يومئذ خراب وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج ويعودون إلى بلادهم فلم يزالوا كذلك إلى أن ولى عمر فأمرهم بالعود إلى ملطية وأخلى طرندة خوفا على المسلمين من العدو وأخرب طرندة

وفاة عمر بن عبد العزيز

فى ٢٥ رجب سنة ١٠١ توفى عمر بن عبد العزيز بدير سمعان وكانت مدّته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام وجاء خطأ فى تقويم مختار باشا المصرى أربعة عشر يوما بدل أربعة أيام لأنه ذكر وفاة سليمان فى ٢١ صفر سنة ٩٩ وبين هذا التاريخ ووفاة عمر ما ذكره إلا أنه ذكر فى بعض الروايات أن سليمان توفى لعشر مضين من صفر بدل بقين منه وإذا كان ذلك صح أن تكون الأيام الأربعة عشر ولكن مختار باشا لم يتبع هذه الرواية فى موت سليمان بل ذكر وفاته فى ٢١ صفر

٩ — يزيد الثانى

هو يزيد بن عبدالملك بن مروان ولد سنة ٦٥ وعهد إليه سليمان بن عبدالملك بالخلافة

بعد عمر بن عبد العزيز فلما توفى عمر بويع بها فلما تولى عمد إلى كل صالح فعله عمر فأعاده إلى ما كان عليه وهو أول خليفة من بنى أمية عرف بالشراب وقتل الوقت فى معاشرة القيان

وفى أول عهده كانت فتنة يزيد بن المهلب فإنه لما هرب من محبس عمر وبلغه موته وخلافة يزيد بن عبد الملك قصد البصرة وعليها عدى بن أرطاة فاستولى عليها وعلى ما يليها من فارس والأهواز فبعث إليه يزيد بن عبد الملك جيشاً عظيما يقوده أخوه مسلمة بن عبد الملك . خطب ابن المهلب أهل البصرة وأخبرهم أنه يدعوهم إلى كتاب الله وسنته وحثهم على الجهاد وزعم أن جهاد أهل الشام أعظم ثوابا من جهاد الترك والديلم فسمعه الحسن البصرى سيد فقهاء أهل البصرة فقال والله لقد رأيناك والياً ومولياً عليك فما ينبغى لك ذلك فقام إليه أناس فأسكتوه خوفا من أن يسمعه بن المهلب :

وروى الطبرى أن الحسن مر على الناس وقد اصطفوا صفين وقد نصبوا الرايات والرماح وهم ينتظرون خروج ابن المهلب وهم يقولون يدعونا إلى سنة العمرين فقال الحسن إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ثم يسرح بها إلى بنى مروان يريد بهلاك هؤلاء القوم رضاهم فلما غضب غضبة نصب قصباً ثم وضع عليها خرقا ثم قال إنى قد خالفتهم فخالفوهم قال هؤلاء القوم نعم وقال إنى أدعوكم إلى سنة العمرين وإن من سنة العمرين أن يوضع قيد فى رجله ثم يرد إلى محبس عمر الذى فيه حبسه

ثم إن يزيد خرج من البصرة حتى أتى واسطا فأقام بها أياما ثم سار منها حتى التقى بجنود مسلمة فكانت بين الفريقين موقعة هائلة قتل فيها يزيد بن المهلب وأخوه حبيب وانكشف من كان معه من الجنود لما تم ذلك سار آل المهلب عن البصرة وحملوا عيالاتهم وأموالهم فى السفن البحرية حتى إذا كانوا حيال كرمان خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على الدواب حتى إذا انتهوا إلى قندابيل لحقهم الجند الذى أمر باتباعهم فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا أبا عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل ابن المهلب فإنهما نجوا : وبهذا انتهت أسرة عظيمة كان فيها من قواد الجند بالدولة الأموية من تتباهى الأمم بهم ولما تم على يدى مسلمة بن عبد الملك إخماد هذه الفتنة ولاه أخوه العراقين ثم عزله بعد بعمر بن هبيرة الفزارى فقال فى ذلك الفرزدق الشاعر

راحت بمسلمة الركاب مودعا ... فارعى فزارة لاهناك المرتع

عزل ابن بشروابن عمرو قبله　　وأخو هـــراة لمثلها يتوقع
وقد علمت ابن فزارة أمرت　　أن سوف تطمع فى الإمارة أشجع
من خاق ربك ماهم ولمثلهم　　فى مثل مانالت فزارة تطمع

يعنى بابن بشر عبد الملك بن بشر بن مروان وبابن عمر ومحمد بن عمر بن الوليد وبأخى هراة سعيد خذينة بن عبد العزيز وكان عاملا لمسلمة على خراسان

وولى ابن هبيرة سعيدا الحرشى على خراسان وكانت له مع الصغد أهل سمرقند وقائع عظيمة من كثرة مانقضوا كاد يستأصلهم فيها

وفى عهده دخل جيش المسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم ثبيت النهرانى فاجتمعت الخزر فى جمع كثير وأعانهم قفجاق وغيرهم من أنواع الترك فلقوا المسلمين بمكان يعرف بمرج الحجارة فاقتتلوا هناك قتالا شديدا فقتل من المسلمين بشر كثير واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع مافيه وأقبل المنهزمون إلى الشام فقدموا على يزيد ابن عبد الملك وفيهم ثبيت فوبخهم يزيد على الهزيمة فقال ياأمير المؤمنين ماجبنت ولانكبت عن لقاء العدو ولقد لصقت الخيل بالخيل والرجل بالرجل ولقد طاعنت حتى انقصف رمحى وضاربت حتى انقطع سيفى غير أن الله تبارك وتعالى يفعل مايريد ولما غلب الخزر هذه المرة طمعوا فى بلاد المسلمين فجمعوا وحشدوا واستعمل يزيد الجراح بن عبد الله الحكمى حينئذ على أرمينية وأمده بجيش كثيف وأمره بغزو الخزر وغيرهم من الأعداء فسار الجراح حتى وصل برذعة وبعد أن استراح سار نحو الخزر فعبر نهر الكرو ولما وصل إلى مدينة الباب والأبواب لم يجد فيها أحدا من الخزر فدخلها بغير قتال ثم أقبل اليه الخزر وعليهم ابن ملكهم فقاتلهم الجراح وظفر بهم ظفرا عظيما ثم سار حتى نزل على حصن يعرف بالحصين فنزل أهله بالأمان على مال يحملونه فأمنهم وتسلم حصنهم ونقلهم عنه ثم سار إلى بلنجر وهو حصن عظيم من حصونهم فنازله وافتتحه عنوة بعد قتال زاغت فيه الأبصار ثم إن الجراح أخذ أولاد صاحب بلنجر وأهله وأرسل اليه فحضر ورد اليه أمواله وأهله وحصنه وجعله عينا لهم يخبره بما يفعل العدو ثم سار عن بلنجر فنزل على حصن الوبندر وبه نحو أربعين ألفا من الترك فصالحوا الجراح على مال يؤدونه وعلى الجملة فقد كان الجراح أعظم الولاة أثرا وفتحا فى تلك البلاد القاصية

ولاية العهد

كان يزيد يريد تولية ابنه الوليد من بعده فقيل له إنه صغير فولى أخاه هشاما ومن بعده ابنه الوليد

وفاة يزيد

لخمس ليال بقين من شعبان سنة ١٠٥ توفى يزيد بن عبدالملك بالبلقاء من أرض دمشق وسنه يومئذ ثمان وثلاثون سنة وقد أقام خليفة أربع سنين وشهراً من ٢٥ رجب سنة ١٠١ إلى ٢٥ شعبان سنة ١٥٠

المحاضرة الاربعون

هشام — الأحوال الداخلية فى عهده — صفته ووفاته — الوليدالثانى يزيد الثالث — مروان الثانى

١٠ — هشام

هو هشام بن عبدالملك بن مروان عاشر الأمويين وسابع المروانيين ولد سنة ٩٢ من الهجرة وكان أبوه عبد الملك إذذاك يحارب مصعب بن الزبير وأمه عائشة بنت هشام بن اسماعيل المخزومية

وكان حين مات أخوه يزيد مقيما بحمص وهناك جاءه البريد بالعصا والخاتم وسلم عليه بالخلافة فأقبل حتى أتى دمشق وتمت له البيعة فأقام خليفة إلى سادس ربيع الأول سنة ١٢٥ أى تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوما وكان هشام معدوداً من خير خلفاء بنى أمية ولعمرى إن من كان من خلقه الحلم والعفة لجدير من ذلك

الأحوال الداخلية فى عهده

فى العراق والشرق — كان أمير العراق حين ولى هشام عمر بن هبيرة وكان لهشام فكر حسن فى أهل اليمن فعزل ابن هبيرة وولى بدله خالد بن عبد الله القسرى وهو

قحطانى . فاختار لولاية خراسان أخاه أسد بن عبد الله واستعمل الجنيد بن عبد الرحمن على السند

فأما أسد بن عبدالله فقد كان هماما مقداما غزا فى أول ولايته الغور وهو جبال هراة فغنم . وفى سنة ١٠٧ نقل من كان بالبروقان من الجند إلى بلخ وأقطع كل من كان له بالبروقان مسكنا بقدر مسكنه ومن لم يكن له مسكن أقطعه مسكنا وتولى بناء مدينة بلخ برمك أبو خالد بن برمك وبينها وبين البروقان فرسخان : وكان من عيوب أسد أنه تعصب لقومه من قحطان على مضر فأفسد الناس ضرب نصر بن سيار ونفراً معه بالسياط منهم عبد الرحمن بن نعيم وسورة بن الحر والبخترى بن أبى درهم وحلق رءوسهم وسيرهم إلى أخيه خالد وهؤلاء هم قروم مضر فقال فى ذلك الفرزدق الشاعر وهو تميمى من مضر

أخالد لولا الله لم تعط طاعة ... ولولا بنو مروان لم يوثقوا نصرا

إذاً للقيتم عند شد وثاقه ... بنى الحرب لا كشف اللقاء ولا ضجرا

وخطب أسد يوما فقال قبح الله هذه الوجوه وجوه أهل الشقاق والنفاق والشغب والفساد اللهم فرق بينى وبينهم وأخرجنى إلى مهاجرى ووطنى

فبلغ فعله ذلك هشاما فكتب إلى خالد اعزل أخاك فعزله ثم ولى هشام خراسان أشرس بن عبد الله السلمى وأمره أن يكاتب خالداً وكان أشرس فاضلا خيرا وكانوا يسمونه الكامل لفضله فلما قدم خراسان فرحوا به : ولأول عهده أرسل إلى أهل سمرقند وما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام على أن توضع عنهم الجزية فسارع الناس هناك إلى الإسلام فكتب صاحب الخراج إلى أشرس إن الخراج قد انكسر فكتب أشرس إلى أمير سمرقند إن فى الخراج قوة للمسلمين وقد بلغنى أن أهل الصغد وأشباههم لم يسلموا رغبة إنما أسلموا تعوذاً من الجزية فانظر من اختتن وأقام الفرائض وقرأ سورة من القرآن فارفع خراجه : كان رسول أشرس إلى الصغد بدعوة الإسلام أبا الصيداء صالح بن طريف فلما رأى العمال يطالبون من أسلم بالجزية منعهم من ذلك فلجوا ولج وكانت النتيجة أن عصى أهل الصغد وأعانهم أبو الصيداء ومن كان معه فاحتال أمير جند أشرس على أبى الصيداء وبقية الرؤساء الذين ساعدوه حتى جىء بهم فحبسهم واستخف بعد ذلك بعظماء العجم والدهاقين فكفر أهل الصغد

واستجاشوا الترك فأعانوهم . لما علم بذلك أشرس خرج غازيا فى جنوده حتى عبر النهر من عند آمل فأقبل اليه الصغد والترك وكانت بين الفريقين موقعة عظيمة كاد المسلمون ينهزمون فيها لولا أن رجعوا فثبتوا حتى هزموا عدوهم : ثم سار أشرس حتى نزل بيكند فقطع العدو عنهم الماء وكادوا يهلكون عطشا لولا أن انتدب شجعانهم إلى الترك فأزالوهم عن الماء واستقى الناس ثم غلبوهم على مواقعهم فأزالوهم عنها وهزموهم

فذهب خاقان إلى مدينة كمرجة وهى من أعظم بلدان خراسان وبها جمع من المسلمين ومع خاقان أهل فرغانة وأفشينة ونسف وطوائف من أهل بخارى فأغلق المسلمون الباب وقطعوا القنطرة التى على الخندق واستماتوا فى المدافعة عن حصنهم مع قلة عددهم وساعدهم على الدفاع نساؤهم وصبيانهم ولما رأى ذلك خاقان أرسل إلى من بالمدينة يقول لهم إنه ليس من رأينا أن نرتحل عن مدينة نحاصرها حتى نفتتحها فترحلوا أنتم عنها فقالوا له ليس من ديننا أن نعطى ما بأيدينا حتى نقتل فاصنعوا ما بدا لكم .

ثم اتفق معهم خاقان أخيراً على أن يرحل عنهم ثم يرحلوا هم عن كمرجة إلى سمرقند أو الدبوسية فأخذ المسلمون من الترك رهائن أن لايعرضوا لهم وأخذ الترك رهائن من المسلمين فخرج أهل كمرجة إلى الدبوسية ثم أطلقوا رهائن الترك وأطلق الترك رهائن المسلمين

وفى سنة ١١١ عزل هشام أشرس بن عبد الله عن خراسان واستعمل بدله الجنيد ابن عبد الرحمن المردى فلما جاء خراسان فرق عماله ولم يستعمل إلا مضريا

وفى سنة ١١٢ خرج غازيا يريد طخارستان فوجه جندا عدده ثمانية عشر ألفاً إلى طخارستان وجندا عدده عشرة آلاف إلى وجه آخر فكتب إليه أمير سمرقند أن خاقان ملك الترك قدجاش فخرجت إليهم فلم أطق أن أمنع حائط سمرقند فالغوث الغوث فأمر الجنيد الجند بعبور النهر . فقال له ذوو الرأى ممن معه إن أمير خراسان لايعبر النهر فى أقل من خمسين ألفا وأنت قد فرقت جندك : قال فكيف بسورة (أمير سمرقند) ومن معه من المسلمين لو لم أكن إلا فى بنى مرة أو من طلع معى من الشام لعبرت ثم عبر فنزل كس وتأهب للسير فبلغ الترك خبره فغوروا الآبار فسار الجنيد بالناس حتى صار بينه وبين سمرقند أربعة فراسخ ودخل الشعب فصبحه خاقان

فى جمع عظيم وزحف إليه أهل الصغد وفرغانة والشاش وطائفة من الترك وهنا ظهرت العزائم الثابتة من قواد المسلمين فأبلوا بلاء حسنا مع قلة عددهم وكثرة عدوهم ولما اشتد القتال ورأى الجنيد شدة الأمر استشار أصحابه فقال له عبد الله بن حبيب اختر إما أن تهلك أنت أو سورة بن الحر: قال هلاك سورة أهون على قال فاكتب إليه فليأتك فى أهل سمرقند فإنه إذا بلغ الترك إقباله توجهوا إليه فقاتلوه: فكتب الجنيد إلى سورة يأمره بالقدوم: فرحل سورة عن سمرقند فى اثنى عشر ألفا فلما كان بينه وبين الجنود فرسخ واحد لقيه الترك فقاتلهم أشد قتال فانكشفت الترك وثار الغبار فلم يبصروا وكان من وراء الترك لهب فسقطوا فيه وسقط العدو والمسلمون وسقط سورة فانقدت فخذه وتفرق الناس فقتلهم الترك ولم ينج منهم إلا القليل

وكانت هذه الواقعة قد نفست عن الجنيد ومن معه فعزم على المسير إلى سمرقند فأعاد الترك عليه الكرة ولكن الواقعة الأولى قد أضعفت من قوتهم فهزمهم المسلمون ومضى الجنيد فنزل سمرقند وحمل عيال من كان مع سورة إلى مرو وأقام بالصغد أربعة أشهر ثم بلغه أن خاقان قصد بخارى فسار بالجنود من سمرقند محترسا على تعبية فلقيته بالطريق جنود خاقان فهزمها: ولم يزل سائرا حتى ورد بخارى: والمسلمون بخراسان يعدون يوم الشعب هذا من مفاخرهم لما كان من مقاومتهم لهذا العدو الكثير العدد مع ما ظهر من خطأ الجنيد فى تدبيره

وفى سنة ١١٦ عزل الجنيد عن خراسان وولى بدله عاصم بن عبد الله الهلالى وكان هشام قد غضب على الجنيد لأنه تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فقال لعاصم إن أدركته وبه رمق فأزهق نفسه فجاء عاصم وقد مات الجنيد فأراحه الله من هذا الشر الذى صار عادة فى هذه الدولة ولم يكتف عاصم بذلك بل أخذ عمال الجنيد وعذبهم وفى عهده خرج عليه الحارث بن سريج لابسا السواد داعيا إلى كتاب الله وسنة نبيه والبيعة للرضا وتبعه خلق كثير فاستولى على بلخ والجوزجان ثم قصد مرو وبها عاصم فقابله عاصم على أبوابها فهزمه هزيمة منكرة وغرق من جنده بشر كثير فى أنهار مرو وفى النهر الأعظم وهرب الحارث

لما رأى عاصم حال خراسان كتب إلى هشام بن عبد الملك يقول له (أما بعد فإن الرائد لا يكذب أهله وإن خراسان لا تصلح إلا أن تضم إلى العراق وتكون موادها

ومعونتها فى الإحداث والنوائب من قريب لتباعد أمير المؤمنين عنها وتباطؤ غياثه عنها فعزل هشام عاصما عن خراسان وولاها أسد بن عبد الله القسرى وجعلها من ضمن ولاية خالد: ولما بلغ عاصما إقبال أسد صالح الحارث بن سريج على أن ينزل الحارث أى كور خراسان شاء وأن يكتبا جميعا إلى هشام يسألانه العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فإن أبى اجتمعا عليه فختم الكتاب بعض الرؤساء وأبى آخرون وقالوا هذا خلع لأمير المؤمنين فلم يتم أمر الصلح وحصلت موقعة أخرى بين الحارث وعاصم انهزم فيها الحارث هو وأصحابه ولما قدم أسد حبس عاصما وحاسبه وطالب منه مئة ألف درهم وأطلق عمال الجنيد

وعمل أسد فى تأمين البلاد ومحاربة الخارجين جهده وله وقعة مع خاقان ملك الترك بالقرب من مدينة الجوزجان انهزم فيها الترك وغنم المسلمون كل ما كان فى معسكرهم ثم رجع إلى بلخ وكانت قاعدة عمله: ثم إنّ خاقان قتل عقب هذه الواقعة فاشتغلت الترك بأنفسها بعد هلاكه وأقبلوا يغير بعضهم على بعض: وأرسل أسد مبشراً إلى هشام بما فتح الله عليهم وبقتل خاقان فسجد هشام شكراً

وفى سنة ١١٩ غزا أسد الختل وغلب على قلعتهم العظمى وفرّق العسكر فى أودية الختل فملئوا أيديهم من الغنائم والسبى وهرب أهله إلى الصين: وفى سنة ١٢٠ توفى أسد ببلخ وكان من خيرة الولاة بخراسان وأبعدهم همة وأشدهم شكيمة

وفى هذه السنة عزل هشام بن عبد الملك خالداً القسرى عن العراق لوشاية أثرت فى نفسه وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى وكان عاملا على اليمن فسار حتى أتى الكوفة فى جمادى الآخرة سنة ١٢٠ وكان من أوّل عمله أنه قبض على خالد وحبسه وقبض على عماله حسب تلك السنة القبيحة المشؤمة

وكان يوسف بن عمر هذا من ذوى الأخلاق المتناقضة كان طويل الصلاة ملازما للمسجد ضابطاً لحشمه وأهله من الناس لين الكلام متواضعا حسن الملكة كثير التضرع والدعاء فكان يصلى الصبح ولا يكلم أحداً حتى يصلى الضحى ومع هذا كان شديد العقوبة مسرفا فى ضرب الأبشار فكان يأخذ الثوب الجديد فيمرّ ظفره عليه فإن تعلق به طاقة ضرب صاحبه وربما قطع يده وله فى الحمق نوادر كثيرة

ولى خراسان نصر بن سيار ولاه هشام وأمره أن يكاتب يوسف بن عمر

وفى ولاية يوسف خرج بالكوفة زيد بن على بن الحسين وسبب خروجه ظلم يوسف بن عمر وسوء تدبيره وكان زيد قد بايعه كثير من أهل الكوفة سرا قيل ١٥ ألفاً وقيل أربعون وقد نصحه بعض بنى عمه بعدم الخروج لأنّ أهل الكوفة لايعتمد عليهم فلم يصغ : وبلغت الأخبار يوسف بن عمرو وهو بالحيرة فتهيأ له ولما علم بذلك أهل الكوفة جاؤا زيداً وقالوا له . ماقولك فى أبى بكر وعمر قال رحمهما الله وغفر لهما ماسمعت أحداً من أهل بيتى يقول فيهما إلا خيراً وإنّ أشدّ ما أقول فيما ذكرتم إنا كنا أحق بسلطان ماذكرتم من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس أجمعين فدفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً وقد ولوا فعدلوا فى الناس وعملوا بالكتاب والسنة قالوا فلم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك فلم تدعو إلى قتالهم : فقال إنّ هؤلاء ليسوا كأولئك هؤلاء ظالمون لى ولكم ولأنفسهم وإنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى السنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ فإن أجبتمونا سعدتم وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل ففارقوه ونكثوا بيعته وقالوا سبق الإمام يعنون محمداً الباقر وكان قد مات فسماهم زيد الرافضة . وفى الليلة التى كان قد اتفق معهم على الخروج فيها لم يأته أكثر من مئتى نفس ولم يكن القتال الذى قاموا به مما يورثهم دولة لقلة عددهم وانتهى الأمر بقتل زيد ودفنه أصحابه فدل يوسف على موضع قبره فأخرجه وأمر أن يصلب بالكناسة وسير رأسه إلى هشام فصلب على باب دمشق : وإلى زيد هذا تنسب الشيعة الزيدية وهم كثيرون ببلاد اليمن

أما نصر بن سيار عامل خراسان فله غزوات إلى ماوراء النهر كان له فيها النصر دائما : ووضع الجزية عمن أسلم من العجم ، وانتهت مدة هشام ويوسف بن عمر على العراق ونصر على خراسان

فى أرمينية وأذربيجان — كان أمير أرمينية وأذربيجان الجراح بن عبدالله الحكمى وكان له غزوات إلى ماوراء بلنجر وفى سنة ١٠٧ عزله هشام وولى بدله مسلمة بن عبد الملك فأرسل مسلمة نائبا عنه وهو الحارث بن عمر الطائى فافتتح من بلاد الترك رستاقا وقرى كثيرة وأثر فيها أثراً حسنا وفى سنة ١١٠ سار مسلمة إلى الترك من باب اللان فلقى ملكهم فى جموعه فاقتتلوا قريبا من شهر وكانت الهزيمة على الترك

وفى سنة ١١١ عزل هشام مسلمة ورد الجراح فدخل بلاد الخزر من ناحية

تفليس ففتح مدينتهم البيضاء وانصرف سالما فجمعت الخزر جموعها واحتشدت وساعدتهم الترك من ناحية اللان فلقيهم الجراح فيمن معه من أهل الشام فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس فصبر الفريقان وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين فقتل الجراح ومن معه بمرج أردبيل : وبذلك طمع الخزر فى البلاد وأوغلوا فيها حتى قاربوا الموصل وعظم الخطب فلما علم ذلك هشام استعمل على تلك البلاد سعيداً الحرشى وأتبعه بالجنود ولما وصل أرزن لقيته فلول الجراح فأخذهم معه حتى وصل إلى خلاط فافتتحها عنوة ثم سار عنها وفتح القلاع والحصون شيئا بعد شيء إلى أن وصل برذعة فنزلها . كان ابن ملك الترك بأذربيجان يغير على بلادها وهو يحاصر مدينة ورثان ولما بلغه وصول الحرشى رحل عنها فوصلها الحرشى وليس بها أحد فارتحل حتى أتى أردبيل وهناك بلغه أن الخزر على قرب منه ومعهم خمسة آلاف من المسلمين أسارى وسبايا فسار اليهم ليلا فوافاهم آخر الليل وهم نيام ففرق أصحابه فى أربع جهات فكبسهم مع الفجر فما بزغت الشمس حتى جاءوا على آخرهم وأطلق الحرشى من معهم من المسلمين وأخذهم إلى باجروان : ثم تجمعت الخزر مرة أخرى ولقيها الحرشى بجهة برزند واقتتلوا قتالا شديدا انهزم فيه الخزر هزيمة منكرة وعلى الجملة فإن الحرشى أذل الخزر إذلالا شديداً واستنقذ منهم كل ما كانوا قد استولوا عليه

وأرسل الحرشى بأخبار انتصاره إلى هشام فكتب إليه هشام يأمره بالقدوم عليه وولى أرمينية وأذربيجان أخاه مسلمة ثانياً فسار إلى الترك فى شتاء شديد حتى جاز البلاد فى آثارهم وفتح مدائن وحصونا ودان له من وراء بلنجر فاجتمعت تلك الأمم جميعها الخزر وغيرهم عليه فى جمع كثير فلما علم مسلمة ذلك أمر أصحابه فأوقدوا النيران ثم تركوا اخبياءهم وأثقالهم وعادهو وعسكره جريدة وقدم الضعفاء وأخر الشجعان وطووا المراحل كل مرحلتين فى مرحلة حتى وصل إلى الباب والأبواب فى آخر رمق

وفى سنة ١١٤ قدم على هشام مروان بن محمد فشكا إليه مسلمة وأنه لم يفعل شيئاً مع هذا العدو الشديد وطلب إليه أن يوليه أرمينية وأن يمده بمائة وعشرون ألف مقاتل ليوقع بالخزر والترك وقعة يؤدبهم بها فاجابه إلى ذلك هشام وعزل مسلمة وولى مروان الجزيرة وأرمينية وأذربيجان وسير الجنود إليه فدخل مروان بلاد

الخزر وسار فيها حتى انتهى إلى آخرها وملك الخزر ينفض بجموعه أمامه ذليلا فأقام مروان فى تلك البلاد أياما ودخل بلاد ملك السرير فأوقع بأهله وفتح أقلاعا ودان له الملك ولما رأى أهل تلك البلاد ما عليه مروان من القوة صالحوه فعاد عنهم وكان مروان يلح على أهل تلك البلاد بإظهار القوة حتى لم يكونوا يحدثون أنفسهم بحربه وخافه الترك خوفا شديداً ودانت له جميع البلاد التى على شاطىء بحر الخزر فى الشمال

كانت الحرب لا تنقطع بين المسلمين والروم من جهة الحد الشمالى للبلاد الإسلامية ولذلك كانت حماية الثغور مما يهتم به الخلفاء جد الاهتمام ويولون أمرها كبار القواد وكانت الشواتى والصوائف دائمة الحركة وممن اشتهر بقيادة الجيوش فى تلك الأصقاع مروان بن محمد (قبل أن يولى أرمينية) ومسلمة بن عبد الملك ومعاوية بن هشام وسعيد بن هشام وسليمان ابن هشام وقد افتتحوا فى غزواتهم بلدانا كثيرة رومية منها قونية وخرشنة وقيسارية وكثيراً من الحصون والقلاع

وكانت مراكب البحر لا تزال تغير على الروم من البحر وكان أمير البحر فى عهد هشام عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ومن أكبر القواد عبد الله بن عقبة

ومما ينبغى ذكره فى حروب الروم قتل عبد الوهاب بن بخت سنة ١١٣ وكان يغزو مع عبد الله البطال أرض الروم فانهزم الناس عن البطال فحمل عبد الوهاب وصاح أنا عبد الوهاب بن بخت أمن الجنة تفرون ثم تقدم فى نحر العدو فمر برجل يقول واعطشاه فقال تقدم الرى أمامك فخالط القوم فقتل : وفى سنة ١٢٢ قتل عبد الله البطال وكان كثير الغزو إلى بلاد الروم والإغارة على بلادهم وله عندهم ذكر عظيم وكانوا يخافونه خوفا شديداً وسيره عبد الملك بن مروان مع ابنه مسلمة إلى بلاد الروم وأمره على رءوس أهل الجزيرة والشام وأمره أن يجعله على مقدمته وطلائعه وقال إنه ثقة شجاع مقدام فجعله مسلمة على عشرة آلاف فارس فكان بينه وبين الروم

وإنما أشرنا إلى ذكر عبد الوهاب والبطال لأنهما أبطال رواية كبيرة ألفت فى عصر لا نعلمه بالتحقيق وعرفت بسيرة ذات الهمة والعامة يلفظونها (الدلهمة) وهى أم عبد الوهاب وقد كنا فى صغرنا نسمعها من بعض (المحدثين) ونتفكه بقراءتها واليوم لا نرى أحداً يقرأ منها شيئا وخيالها يشبه خيال سيرة الظاهر بيبرس فيظهر أنهما ألفا فى عصر واحد

في الحجاز

كان والى الحجاز محمد بن هشام المخزومى خال عبد الملك بن مروان وفى سنة ١٠٦ حج هشام بن عبد الملك : ومما يروى عنه فى حجه هذا أنه لقيه سعيد بن عبد الله ابن الوليد بن عثمان بن عفان فسار إلى جنبه يقول يا أمير المؤمنين إن الله لم يزل ينعم على أهل بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ولم يزالوا يلعنون فى هذه المواطن أبا تراب فإنها مواطن صالحة وأمير المؤمنين ينبغى له أن يلعنه فيها : فشق على هشام قوله وقال لاقدمنا لشتم أحد ولا للعنه . قدمنا حجاجا ثم قطع كلامه وأقبل على أبى الزناد راوى هذا الحديث يسأله عن الحج ومناسكه

ولما دخل مكة كلمه إبراهيم بن محمد بن طلحة وهو فى الحجر فقال له أسألك بالله وبحرمة هذا البيت الذى خرجت معظما له ألا رددت على ظلامتى قال أى ظلامة قال دارى قال فأين كنت عن أمير المؤمنين عبد الملك قال ظلمنى : قال فالوليد وسليمان قال ظلمانى قال فعمر : قال رحمه الله ردها على قال فيزيد بن عبد الملك . قال ظلمنى وقبضها منى من بعد قبضى لها وهى فى يدك فقال هشام لو كان فيك ضرب لضربتك قال فىّ والله ضرب بالسيف والسوط فانصرف هشام وهو يقول لايزال فى الناس بقايا مارأيت مثل هذا

واستمر أمير الحجاز محمد بن هشام وهو الذى يقيم للناس حجهم إلا فى سنة ١١٦ فإن الذى أقام الحج هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ولى العهد وفى سنة ١٢٣ حج يزيد بن هشام بن عبد الملك

ولم يحصل فى الحجاز حوادث ولا ثورات فى عهد هشام

أما أمر مصر والمغرب فسنتكلم عليه إن شاء الله وحده فى تاريخ مصر هذا مجمل حال الأمة العربية فى عهد هشام الذى طال ومنه يعرف ما كانت عليه من القوة وثبات العزيمة أمام من يجاورها من الأعداء إلا أن الذى يؤخذ عليها هو ظهور عصبية الجاهلية بين العرب المقيمين بخراسان فكانت ثلاث فرق ينفس بعضهم على بعض كل خير وهم القحطانية والقيسية والربعية ومن عيوب الأمم الكبرى أن تكون شعبا جنسية فإن هذا مما يؤذن بانحلالها وغلبة عدوها عليها وقد يكون الدين أو ما يقوم مقامه من الجامعات مزيلا لهذا العيب متى كان سلطانه على النفوس قويا فإذا ضعف

أثره قليلا ونبض عرق التعصب الذميم فمن المؤكد أنه لا بقاء للأمة معه وهكذا كان حال الأمة العربية بعد هذا العهد بقليل

ولاية العهد

كان ولى العهد بحسب وصية يزيد بن عبد الملك هو الوليد بن يزيد فبدا لهشام أن يعزله ويولى بدله ابنه مسلمة واحتال لذلك فلم يفلح وإن كان قد أجابه بعض القواد إلى ما أراد وقد انتهى زمن هشام والوليد مباعد له نازل بالأزرق على ماء له بالأردن

وفاة هشام

لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ توفى هشام بن عبد الملك وكانت خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوما (من ٢٥ شعبان سنة ١٠٥ إلى ٦ ربيع الأول سنة ١٢٥)

صفته

كان هشام مشهوراً بالحلم والعفة : شتم مرة رجلا من الأشراف فقال له الرجل أما تستحى أن تشتمنى وأنت خليفة الله فى الأرض : فاستحيا منه هشام وقال اقتص منى قال إذا أنا سفيه مثلك قال فخذ منى عوضا من المال قال ما كنت لأفعل : قال فهبها لله : قال هى لله ثم لك : فنكث هشام رأسه واستحيا وقال والله لا أعود لمثلها أبداً

قال عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس جمعت دواوين بنى أمية فلم أر ديوانا أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام وصلاح الديوان وصحته من أعظم ما يمتاز به الخلفاء بعضهم على بعض : والمراد بالديوان ديوان الخراج أو هو بعبارة جديدة الميزانية التى بها يعرف ما يرد على الدولة وما يصرف : ولعل هذا هو الذى جعل الناس يصمونه بوصمة البخل لأنّ ذا الديوان الصحيح لا يكون مسرفا حتى يحبه الشعراء والكتاب ويشيدوا بذكره . ومما يؤخذ عليه ما فعله مع الوليد بن يزيد فإنه أساء اليه كثيراً حتى ساء خلقه . ودعا القواد إلى خلع الوليد فأجابه كثير منهم ثم لم ينفذ ما أراده فجعلهم عرضة لانتقام الوليد بعد موته

١١ — الوليد الثانى

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف

الثقفى كان واليا للعهد بعد هشام وكان مغاضبا له فى حياته حتى خرج وأقام فى البرية كما ذكرناه

ولم يزل مقيما فى تلك البرية حتى مات هشام فجاءه الكتاب بموته وبيعة الناس له فكان أول مافعله أن كتب إلى العباس بن عبد الملك بن مروان أن يأتى الرصافة فيحصى مافيها من أموال هشام وولده وعياله وحشمه إلا مسلمة بن هشام فإنه كلم أباه فى الرفق بالوليد فقدم العباس الرصافة ففعل ما كتب به الوليد . وقد أثر عن الوليد شعر كثير فى الشماتة بهشام فمن ذلك قوله

هلك الأحوال المشـــ ـئوم وقد أرسل المطر ومـلكنا من بعد ذا
لك فقـــد أورق الشجر فاشكر الله أنه زائد كل من شكر

وقوله

ليت هشاما كان حيا فيرى محلبه الأوفر قـــد أترعا
ليت هشاما عاش حتى يرى مكياله الأوفر قـــد طبعا
كلناه بالصاع الذى كاله وماظلمناه به أصـــبعا
وما ألفنا ذاك عن بدعـــة أحله الفرقان لى أجمعا

كان مما يهم الوليد أن ينتقم من كل من أعان هشاما عليه وهم كثير من سادة الأمة وأفراد البيت الأموى

كان ممن أجاب هشاما إلى خلع الوليد محمد وإبراهيم ابنا هشام بن اسماعيل المخزوميان فوجه الوليد إلى المدينة يوسف بن محمد الثقفى واليا عليها ودفع إليه محمداً وإبراهيم موثقين فى عباءتين فقدم بهما المدينة فأقامهما للناس ثم حملا إلى الشام فأحضرا عند الوليد فأمر بجلدهما فقال محمد أسألك بالقرابة . قال أى قرابة بيننا قال فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ضرب بسوط إلا فى حدّ : قال ففى حدّ أضربك وقود أنت أوّل من فعل بالعرجى وهو ابن عمى وابن أمير المؤمنين عثمان (وكان محمد قد أخذه وقيده وأقامه للناس وجلده وسجنه إلى أن مات بعد تسع سنين لهجاء العرجى إياه) ثم أمر به الوليد فجلد هو وأخوه إبراهيم ثم أوثقهما حديداً وأمر أن يبعث بهما إلى يوسف بن عمر وهو على العراق فلما قدم بهما عليه عذبهما حتى ماتا

وأخذ سليمان بن هشام بن عبد الملك فضربه مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه

إلى عمان من أرض الشام وحبس يزيد بن هشام وفرق بين روح بن الوليد وبين امرأته وحبس عدّة من ولد الوليد وهؤلاء الثلاثة من أفراد البيت المالك

وكان خالدبن عبد القسرى سيداً من سادات اليمن فطلب إليه الوليد أن يبايع لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده فأبى فغضب عليه الوليد وكان ذلك سبباً فى أن أرسله إلى يوسف بن عمر الثقفى والى العراق فنزع ثيابه وألبسه عباءة وحمله فى محمل بغير وطاء وعذبه عذابا شديداً وهو لايكلمه كلمة ثم حمله إلى الكوفة فعذبه عذابا شديداً حتى مات فأفسد ذلك على الوليد قلوب اليمانية وفسدت عليه قضاعة وهم أكثر جند الشام

وصار بنو أمية يشيعون عن الوليد بين الناس القبائح ورموه بالكفر وكان أكثرهم فيه يزيد بن عبدالملك وكان الناس إلى قوله أميل لأنه كان يظهر النسك

بذلك كله نفرت من الوليد قلوب الخاصة والعامة وماسبب ذلك كله إلا شهوة الانتقام التى لايستقيم بها ملك ولا يكون معها صلاح وإذا كان الانتقام يقبح بالناس فهو من الملوك أقبح وبذهاب ملكهم أسرع : أتت اليمانية يزيد بن الوليد فأرادوه على البيعة فاستشار فى ذلك أخاه العباس بن الوليد فنهاه عن ذلك ولكنه ولم ينته وبايعه الناس سراً وبعث دعاته فدعوا اليه الناس وبلغ الخبر مروان بن محمد بن مروان وهو بأرمينية فكتب إلى سعيد بن عبدالملك يأمره أن ينهى الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ويخوفهم خروج الأمر عنهم فأعظم سعيد ذلك وبعث بكتاب مروان بن محمد إلى العباس بن الوليد فاستدعى العباس يزيد وتهدده فكتمه يزيد الخبر فصدقه ولما اجتمع ليزيد أمره أقبل إلى دمشق وقد بايع له أكثر أهلها سراً وكان واليها عبدالملك ابن محمد بن الحجاج فاستولى يزيد على دمشق وجهز جيشا لمقاتلة الوليد عليه عبدالعزيز ابن الحجاج بن عبدالملك فذهب إليه وهو بالأغدف عن أرض عمان فقاتله ولما أحس الوليد بالغلبة دخل قصره وأغلق عليه بابه وجلس وأخذ مصحفا فنشره يقرأ فيه وقال يوم كيوم عثمان فصعدوا على الحائط ودخلوا عليه فقتلوه وحزوا رأسه وذهبوا به إلى يزيد فنصبه على رمح وطيف به فى دمشق

وكان قتله لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر : وبقتله افتتح باب الشؤم على بنى أمية

١٢ — يزيد الثالث

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان وأمه أم ولد اسمها شاه آفريد بنت فيروز ابن يزدجرد بن شهريار بن كسرى وفى ذلك يقول

أنا ابن كسرى وأبى مروان وقيصر جدّى وجدّى خاقان

بويع بالخلافة بعد مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ١٣٦ وكان يسمى يزيد الناقص قيل لأنه نقص من أعطيات الناس ما زاده الوليد بن يزيد وردّها إلى ما كانت عليه زمن هشام : وكانت ولاية يزيد فاتحة اضطراب فى البيت الأموى ومبدأ انحلاله وذهاب سعادته

وأول ما كان من الاضطراب بالشام قيام أهل حمص ليأخذوا بثأر الوليد ممن قتله وأمروا عليهم معاوية بن يزيد بن حصين وتابعهم على ما أرادوا من ذلك مروان ابن عبد الله بن عبد الملك وكان عاملا للوليد على حمص وهو من سادة بنى مروان نبلا وكرما وعقلا وجمالا : فلما بلغ يزيد خبرهم أرسل إليهم رسلا فيهم يعقوب ابن هانىء وكتب إليهم أنه ليس يدعو إلى نفسه وإنما يدعو إلى الشورى فلم يرض بذلك أهل حمص وطردوا رسل يزيد وحينئذ جهز لهم جيشا عليه سليمان بن هشام فسار ذلك الجيش حتى نزل حوارين. كان أهل حمص يريدون الذهاب إلى دمشق فأشار عليهم مروان بن عبد الله أن يبدؤوا بقتال هذا الجيش فاتهموه فقتلوه هو وابنه وولوا أبا محمد السفيانى وتركوا جيش سليمان ذات اليسار وساروا إلى دمشق فسار سليمان مجدّاً فى أثرهم فلحقهم بالسليمانية وكان يزيد قد أرسل جنداً آخر يقدمه عبد العزيز بن الحجاج فاجتمع الجندان على أهل حمص فهزموهم وقتلوا منهم عدداً عظيماً ولما رأوا ذلك دانوا ليزيد وبايعوه وكما فعل أهل حمص فعل أهل فلسطين فإنهم طردوا عاملهم وولوا أمرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك وكذلك فعل أهل الاردن وولوا أمرهم محمد بن عبد الملك واجتمعوا مع أهل فلسطين على قتال يزيد بن عبد الملك فسير إليهم يزيد سليمان بن هشام فى أهل دمشق وأهل حمص الذين كانوا مع السفيانى وكانت عدّتهم أربعة وثمانين ألفا ولم تتم لأهل فلسطين والاردن لأنهم اختلفوا فتفرّق أمرهم وانتهوا بالبيعة ليزيد

وكما كان هذا الخلاف والشقاق بالشام كان الأمر على أشد من ذلك بالعراق والمشرق فإنّ يزيد ولى العراق منصور بن جمهور وعزل عنه يوسف بن عمر فذهب منصور إلى الكوفة وأخذ البيعة بها ليزيد ثم أرسل العمال إلى خراسان فامتنع نصر ابن سيار من تسليم عمله إلى عمال منصور وضبط البلاد وأعطى الناس بعض أعطياتهم فطالبوه ببقية العطاء فأبى ذلك عليهم : قام فى وجهه رجل من كبار اليمن هو جديع بن على الأزدى المعنى ويلقب بالكرمانى لأنه ولد بكرمان وقام معه اليمانية يريدون إفساد الأمر على نصر فقامت النزارية مع نصر عصبية له وبذلك نبض عرق العصبية الجاهلية بين الحيين العظيمين من العرب وهما اليمانية والنزارية فاستحضر نصر الكرمانى وحبسه فاحتالت الأزد حتى أخرجوه من محبسه وجمع الناس لحرب نصر وكادت الحرب تقع بينهما لولا أن سعى الناس بالصلح بينهما ولكنه صلح على فساد لأنّ كلا منهما كان يخاف الآخر وبهذا صارت بلاد خراسان مرعى هنيئا لدعاة بنى العباس : ولم يكن عند ولاة الأمر من بنى أمية بالشام ما يمكنهم من سدّ هذه الثلمة التى أثاروها على أنفسهم بهذا الانشقاق المؤذن بالانحلال

لم تطل مدّة يزيد فى الخلافة فإنه توفى لعشر بقين من ذى الحجة سنة ١٢٦ بعد خمسة أشهر واثنين وعشرين يوما من استخلافه . وكان قد عهد بالولاية من بعده لأخيه إبراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك : فلما توفى يزيد قام بالأمر من بعده أخوه إبراهيم غير أنه لم يتم له الأمر فكان تارة يسلم عليه بالخلافة وتارة بالإمارة وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما

وسبب ذلك أنّ مروان بن محمد بن مروان والى الجزيرة وأرمينية لم يرض ولاية إبراهيم فسار إلى الشام فى جنود الجزيرة فاستولى على قنسرين وحمص ولما وصل عين الجر قابلته جنود أرسلت لحربه من قبل إبراهيم بن الوليد فانتصر عليهم مروان وهزمهم هزيمة منكرة ثم أخذ عليهم مروان البيعة له ثم سار حتى أتى دمشق فاستولى فاستولى عليها وبايعه أهلها وهرب إبراهيم بن الوليد فأمّنه مروان ولعدم تمام الأمر لإبراهيم لم يعدّه المؤرخون من الخلفاء

١٣ — مروان الثانى

هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وأمه أم ولد كردية كانت لابراهيم بن الأشترفأخذها محمد بن مروان يوم قتل إبراهيم فولدت له مروان سنة ٧٠ من الهجرة وكان واليا على الجزيرة وأرمينيا كما كان أبوه قبل ذلك وكان الناس يلقبونه بالجعدى لأنه تعلم من الجعد بن درهم مذهبه فى القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك . وبويع الخلافة فى دمشق بعد انتصاره على أهلها سنة ١٢٧

كانت مدة مروان كلها مملوءة بالفتن والاضطرابات منذ بويع إلى أن قتل

وأول ما كان من ذلك خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة داعيا إلى نفسه وكان معه من الشيعة عدد عظيم جدا وكان والى العراق عبدالله بن عمر بن عبد العزيز فجد فى حربه وكانت العامة تميل اليه لمحبتهم لأبيه فساعد ذلك على أن غلب عبد الله بن معاوية ونفاه عن العراق

ثم كان بالشام ماهو أفظع من ذلك وهو الخلاف المتوالى على مروان من أهل الأمصار الكبرى فانتقض عليه أهل حمص وكان له معهم واقعة هائلة انتصر فيها عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . ثم خالف عليه أهل الغوطة فحاربهم وانتصر عليهم . ثم خالف عليه أهل فلسطين فكانت له معهم وقائع انتصر فيها عليهم : ثم ثار عليه سليمان بن هشام بن عبدالملك فإنه قد حسن له بعض دعاة الشر والفتنة خلع مروان وقالوا له أنت أرضا عند الناس من مروان وأولى بالخلافة . فأجابهم إلى ذلك وسار بإخوته ومواليه معهم فعسكر بقنسرين وكاتب أهل الشام فأتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان وكان بقرقيسياء فأقبل اليه بالجنود ولاقاه بقرية خساف من أرض قنسرين وكانت النتيجة أن انهزم سليمان وجنده وأسر مروان منهم عددا عظيما فقتلهم ويقال إنه أحصيت القتلى من جند سليمان يومئذ فبلغت ثلاثين ألفا ومضى سليمان فى هزيمته حتى وصل حمص فاجتمعت عليه الفلول فقصده مروان وفى الطريق قابلته جنود سليمان فانهزموا ولما علم سليمان بهزيمتهم ترك حمص وسار إلى تدمر فأقام بها أما مروان فأتى حمص واستولى عليها . فأنتم ترون أن القوة التى كان يرتكز عليها ملك بنى أمية وهى جنود الشام قد انشقت انشقاقا محزنا تبعا لانشقاق البيت

الممالك وهذا أعظم مايساعد العدو الذى يعرف كيف ينتهز الفرص

لم تقف الاضطرابات عند هذا الحد بل وجدت بقايا الخوارج الفرصة لإظهار مافى أنفسهم فخرج الضحاك بن قيس الشيبانى وأتى الكوفة واستولى عليها من يد أميرها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز فهرب عبد الله إلى واسط فتبعوه ولما اشتدت الحرب سلم عبد الله الأمر إلى الضحاك وبايعه وصار من عداد الحرورية وكذلك دخل فى هذه البيعة سليمان بن هشام بن عبد الملك ولما تم ذلك ذلك للضحاك عاد إلى الموصل فافتتحها واستولى على كورها وكان مروان إذ ذاك محاصراً لحمص فلما بلغه الخبر كتب إلى ابنه عبد الله وهو خليفته بالجزيرة يأمره أن يسير إلى نصيبين فيمن معه ليمنع الضحاك عن توسط الجزيرة فسار إليها فى سبعة آلاف فسار إليه الضحاك وحصره فى نصيبين وكان مع الضحاك نحو من مائة ألف ولما انتهى مروان من أمر حمص سار لمقابلة الضحاك فالتقى به فى نواحى كفر توثا فحصلت بين الفريقين موقعة عظيمة قتل فيها الضحاك فولى الخوارج عليهم سعيد بن بهدل الخيبرى أحد قواد الضحاك وأعادوا الكرة على جند مروان فانهزم القلب وفيه مروان ووصل الخيبرى إلى خيمته وثبتت الميمنة والميسرة ولما رأى أهل العسكر قلة من مع الخيبرى ثار إليه العبيد بعمد الخيم فقتلوه هو ومن معه وبلغ الخبر مروان وقد جاز المعسكر بخمسة أميال منهزما فانصرف إلى عسكره ورد خيوله إلى مواقعها وبات ليلته فى عسكره

ولما علم الخوارج بقتل الخيبرى ولوا بدله شيبان بن عبد العزيز اليشكرى فأقام يقاتل مروان ولكنه لما رأى أن الناس يتفرقون عنه انصرف بمن معه إلى الموصل فتبعهم مروان وأقام يقاتلهم ستة أشهر

فى أثناء ذلك سير مروان يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق بالجنود فأجلى الخوارج عن أمصاره وضبطها ولما تم له ذلك سير جنداً لمساعدة مروان فلما علم شيبان بذلك كره أن يكون بين عدوين فرحل عن الموصل فسير مروان فى أثره جنداً وأمر القائد أن يقيم حيث يقيم شيبان وأن لا يبدأه بقتال فإن قاتله شيبان قاتله فلم يزل يتبعه حتى لاقاه بجيرفت وهزمه هزيمة منكرة فمضى شيبان إلى سجستان فهلك بها وذلك سنة ١٣٠

ومن الذين خرجوا على مروان وشغلوه المختار بن عوف الأزدى الشهير بأبى

حمزة وكان يوافى الموسم كل سنة يدعو الناس إلى خلاف مروان بن محمد ولم يزل على ذلك حتى وافى عبدالله بن يحيى فى آخر سنة ١٢٨ فقال له يارجل اسمع كلاما حسنا أراك تدعو إلى حق فانطلق معى فإنى رجل مطاع فى قومى فخرج حتى ورد حضرموت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى خلاف مروان وآل مروان

وبينما الناس بعرفة سنة ١٢٩ إذا طلعت عليهم أعلام وعمائم سود على رؤس الرماح وهم سبعمائة ففزع الناس حين رأوهم وسألوهم عن حالهم فأخبروهم بخلافهم مروان وآل مروان فراسلهم عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ على مكة والمدينة وطلب منهم الهدنة فقالوا نحن بحجنا أضن وعليه أشح فصالحهم على أنهم جميعا آمنون بعضهم من بعض حتى ينفر الناس النفر الأخير

فوقفوا بعرفة على حدة ولما كان النفر الأول نفر عبد الواحد فيه وخلى مكة فدخلها أبو حمزة بغير قتال ثم مضى عبد الواحد حتى دخل المدينة فضرب على أهلها البعث وزادهم فى العطاء عشرة واستعمل عليهم عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان فمضوا حتى إذا كانوا بقديد لقيتهم جنود أبى حمزة فأوقعت بهم وقتلت منهم مقتلة عظيمة وذلك لسبع بقين من صفر سنة ١٣٠ ثم سار أبو حمزة حتى دخل المدينة من غير أن يلقى فيها حربا وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه تعلمون ياأهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرا ولا بطرا ولا عبثا ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ولا لثأر قديم نيل منا ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت وعنف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ضاقت علينا الأرض بما رحبت وسمعنا داعيا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن فأجبنا داعى الله (ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض) أقبلنا من قبائل شتى النفر منا على بعير واحد عليه زادهم وأنفسهم يتعاورون لحافا واحدا قليلون مستضعفون فى الأرض فآوانا وأيدنا بنصره فأصبحنا والله جميعا بنعمته إخوانا ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم آل مروان فشتان لعمر الله ما بين الرشد والغى ثم أقبلوا ليهرعون يزفون قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه وأقبل أنصار الله عز وجل عصائب وكتائب بكل مهند ذى رونق فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون وأنتم ياأهل المدينة إن تنصروا مروان

وآل مروان يسحتكم الله عز وجل بعذاب من عنده أو بأيدينا ويشف صدور قوم مؤمنين ياأهل المدينة أولكم خير أول وآخركم شر آخر ياأهل المدينة الناس منا ونحن منهم إلا مشركا أو عابد وثن أو مشرك أهل الكتاب أو إماما جائرا ياأهل المدينة من زعم أن الله عز وجل كلف نفسا فوق طاقتها أو سألها ما لم يؤتها فهو لله عز وجل عدو ولنا حرب ياأهل المدينة أخبروني ثمانية أسهم فرضها الله عز وجل في كتابه على القوى والضعيف فجاء تاسع ليس له منها ولاية ولا سهم واحد فأخذها لنفسه مكابراً محاربا لربه ياأهل المدينة بلغني أنكم تنتقصون أصحابي قلتم شباب أحداث وأعراب جفاة ويلكم أهل المدينة وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابا أحداثا شباب والله مكتهلون في شبابهم غضية عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أقدامهم قد باعوا الله عز وجل أنفساً تموت بأنفس لا تموت قد خالطوا كلالهم بكلالهم وقيام ليلهم بصيام نهارهم منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مروا بآية شوق شهقوا شوقا إلى الجنة فلما نظروا إلى السيوف قد انتضبت والرماح قد شرعت وإلى السهام قد فوقت وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت واستخفوا وعيد الكتيبة لوعيد الله عز وجل ولم يستخفوا لوعيد الكتيبة فطوبى لهم وحسن مآب فكم من عين في منقار طائر طالما فاضت في جوف الليل من خوف الله عز وجل وكم من يد زالت عن مفصلها طالما اعتمد بها صاحبها أقول قولي هذا وأستغفر الله من تقصيرنا (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

ثم إن أبا حمزة ودّع أهل المدينة وسار نحو الشام وكان مروان قد انتخب من عسكره أربعة آلاف فارس واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي وأمره أن يجد في السير ويقاتل الخوارج فإذا ظفر بهم سار حتى يبلغ اليمن ويقاتل عبد الله بن يحيي فسار ابن عطية حتى لقي أبا حمزة بوادي القرى فقاتله حتى قتله وهزم أصحابه ثم سار إلى المدينة فأقام بها شهراً وبعد ذلك سار إلى اليمن وبلغ عبدالله بن يحيي مسيره إليه وهو بصنعاء فأقبل إليه بمن معه ولما التقيا قتل عبدالله وحمل رأسه إلى الشام.

كل هذه المشاغل والفتن التي كانت بالشام والحجاز شغلت مروان عن خراسان وما كان يجري فيها فكان ذلك أعظم مساعد لشيعة بني العباس ورئيسهم المقدام أبي مسلم

الخراسانى على أخذ خراسان ومبايعة أهلها على الرضا من بنى العباس ثم مدوا سلطانهم إلى العراق فاستولوا عليه من عمال بنى أمية (وسنفصل حديثهم وما كان منهم حينما نشتغل بتاريخ الدولة العباسية)

وفى شهر ربيع الأول سنة ١٣٢ بويع بالكوفة لأبى العباس السفاح أول الدولة العباسية وبعد أن تم له الأمر بالعراق فكر فى إرسال الجند لمروان حتى يقضى عليه القضاء الأخير فاختار عمه عبدالله بن على قائداً لذلك الجند فسار حتى التقى بمروان وجنده على نهر الزاب لليلتين خلتا من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ وهناك كانت الموقعة العظمى بين الجندين وانتهت بهزيمة مروان بن محمد بعد أن قتل ممن معه مقتلة عظيمة وكانت الهزيمة لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة وصار مروان ينتقل من بلد إلى آخر وعبدالله بن علىّ يتبعه ولما جاز مروان أرض الشام قاصداً مصر أرسل عبدالله فى أثره أخاه صالح بن على فلم يزل وراءه حتى عثر به نازلا فى كنيسة بقرية بوصير وبعد قتال خفيف قتل مروان لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت أيام الدولة الأموية وابتدأ عصر الخلافة العباسية (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير)

الخاتمة

فى مدنية الاسلام فى عهد الدولة الاموية وأسباب سقوطها

الخلافة الإسلامية

لبست الخلافة فى عهد الدولة الأموية مظهر الملك وأبهته واستشعرت سطوة الحكم وعظمته فبعد أن كان الخلفاء الراشدون للناس كافة لا يمنعهم دون الخليفة حجاب ولا يصدهم عنه باب وجد فى العهد الأموى الحجاب والمقاصير فى المساجد الجامعة وبعد أن كان يقول عمر بن الخطاب على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه قال عبد الملك بن مروان فى خطبته بعد قتل ابن الزبير ولا يأمرنى أحد بتقوى الله بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه وبعد أن كان الخليفة يختلط بالناس كأحدهم فى الأسواق والجامع يأمر وينهى ويربى ويؤدب رأينا الوليد بن عبد الملك تصرف له الناس من المسجد النبوى حينما أراد مشاهدته وأثر الصناعة فيه وكادوا يصرفون سعيد بن المسيب شيخ الفقهاء بالمدينة لولا اجلال سنه واحترام الأمير عمر ابن عبد العزيز له وبعد أن لم يكن للخليفة شارة يمتاز بها صرنا نروى الروايات عن قضيب الخلافة وخاتمها وننشد الوليد بن يزيد بن عبد الملك حينما جاءه نعى عمه هشام ابن عبد الملك

طاب يومى ولذة شرب السلافة ... وأتانا نعى من بالرصافة
وأتانا البريد ينعى هشاما ... وأتانا بخاتم للخلافة

وبعد أن كان الخلفاء بعيدين عن مظاهر الترف يجتزئ أحدهم بأقل ما يجتزئ به الضعفاء من رعيتهم ويتمنى بعد ذلك أن يخرج من الدنيا كفافا لا عليه ولا له صرنا نرى بنى مروان قد انغمسوا فى الترف فاختيرت لهم الألوان وتبسطوا بما لذ وطاب فسمعوا الأغانى من القيان كما يروى عن يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد بن يزيد : وبعد أن كانت الخلفاء تختار من بيوت متعددة رأينا الخلافة فى هذه الدولة قد انحصرت فى بيت واحد يختار كل خليفة منهم ولى عهده من أهل بيته أما ابنه أو أخاه أو ابن عمه شأن

الملك العقيم وبعد أن كانت الأمة تساس بوازع الدين وأثره فى النفس رأيناها تساس بقوة البطش وحد السيف حتى كان عبد الملك يقول للناس تطلبون منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبى بكر وعمر ولا تسيرون أنتم بسيرة الناس فى عهد أبى بكر وعمر فكأنه يعتذر لهم عن قسوته فى معاملتهم بأنهم هم الذين حملوه على ذلك بما ظهر فيهم من بدع الأخلاق وكما تمثل يزيد بن معاوية حينما جاءه الخبر بخلع أهل المدينة له

هم بدلوا الحلم الذى فى سجيتى فبدلت قومى غلظة بليان

وإذا كنا على رأى من يقول إنّ الأمة هى التى تخلق ملوكها (وهو قول حق) ظهر لنا صدق عبد الملك ويزيد فيما قالاه

وعلى الجملة فإنّ مظاهر الملك قد ظهرت على هذه الدولة من أول وجودها كما أن الترف قد لحقها فى آخر أمرها وهو نتيجة طبيعية لانحصار الخلافة فى بيت واحد

الانتخاب والبيعة

جرى خلفاء بنى أمية على اختيار أولياء العهد فى حياتهم فكلهم كان مختارا من سلفه ماعدا رأس هذه الدولة معاوية بن أبى سفيان ومروان بن الحكم ويزيد بن الوليد ابن عبد الملك ومروان بن محمد فإن أربعتهم قد أخذوها بالقوة فمعاوية اختاره أهل الشام فغالب بهم حتى استقر له الأمر واجتمعت عليه الكلمة : ومروان اختاره بعض أهل الشام عقب موت معاوية الثانى فغالب بهم حتى فاز بعض الفوز وتم الأمر لبنى أمية على يد ابنه عبد الملك . ويزيد الثالث خرج على ابن عمه الوليد بن يزيد الثانى حتى قتله وحل محله . ومروان بن محمد دعا إلى نفسه عقب موت يزيد الثالث فبايعه قوم وكرهه آخرون ولم يزل فى أخذ ورد حتى دالت دولتهم على يده

أما من عدا هؤلاء الأربعة وهم تسعة الخلفاء فقد كانوا مختارين من قبل أسلافهم فيزيد الأول اختاره أبوه معاوية . ومعاوية الثانى اختاره يزيد : وعبد الملك اختاره أبوه مروان : والوليد وسليمان اختارهما أبوهما عبد الملك وعمر ويزيد اختارهما سليمان : الأول ابن عمه ، والثانى أخوه . وهشام والوليد الثانى اختارهما يزيد : الأول أخوه . والثانى ابنه

ولم يحصل فى عهد بنى أمية أن اختار أحدهم واحدا لولاية عهده بل كانوا دائما يختارون من يلى عهدهم ومن بعده وهذه من أغلاطهم التى جربوا سوء نتائجها ولم يرعووا

عنها فكانت سببا مهما من أسباب القضاء على دولتهم كما سيأتى توضيحه

وكانوا يأخذون البيعة فى حياتهم لولاة عهودهم فإذا مات الخليفة جددت البيعة مرة ثانية تأكيدا للعهد والميثاق. وأول من كان يبايع أمراء البيت الأموى ثم يليهم القواد ثم أمراء الأمصار وهؤلاء يأخذون البيعة على من تحت إمرتهم وكانت البيعة على السمع والطاعة والعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وقد شذوا أحيانا عن نص هذه البيعة إذا كانت عقب ثورة فقد أخذ مسلم بن عقبة المرى البيعة على أهل المدينة بعد وقعة الحرة على أنهم خول ليزيد يحكم فى أنفسهم وأموالهم وأبنائهم وكان الحجاج بعد هزيمة بن الأشعث لا يبايع إلا من أقر على نفسه بالكفر بخروجه

إدارة البلاد

كانت البلاد إسلامية تدار بمعرفة أمراء يختارهم الخلفاء وهم نواب عنهم وكانت مقسمة إلى إمارات كبرى وهى

(١) الحجاز : وينتظم المدينة ومكة والطائف ويقيم الأمير بالمدينة وكان يضاف إلى ذلك أحيانا بلاد اليمن وأحيانا تكون مستقلة بأمير

(٢) العراق : وينتظم الكوفة والبصرة وخراسان والأمير يقيم فى الكوفة بعض السنة وفى البصرة بعضها وكانت خراسان تستقل أحيانا بأمير يخاطب الخليفة رأسا : وقد يضاف أحيانا إلى إمارة العراق بلاد اليمامة

(٣) الجزيرة وأرمينية وتنتظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية

(٤) أجناد الشام وكانت خمسة وهى فلسطين — والأردن — ودمشق وحمص وقنسرين وكانت قنسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتى كان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبجا جندا برأسه وإنما سمى كل منها جنداً لأنه يجمع كورا والتجند التجمع وقيل سميت كل ناحية بجند كانوا يقبضون أعطياتهم فيه والأقرب أن هذا هو أصل التسمية

(٥) مصر وإفريقية وتنتظم بلاد مصر وشمال أفريقيا وكانت أفريقية فى بعض الأحيان تستقل بوال عن مصر

(٦) بلاد الأندلس بعد فتحها تارة كانت تضم إلى إفريقية

وكل أمير كان يختار من رجاله أمراء على الكور التى هى فى حدود إمارته

كانت الأعمال التى ترجع إلى الخلفاء وهى :

(١) إقامة الصلاة

(٢) قيادة الجيش

(٣) جباية الخراج . والصدقات ووضع ذلك مواضعه

(٤) القضاء بين الناس فى منازعاتهم : وقد كان الأمير يقوم مقامه الخليفة أحيانا فى جميع ذلك ويقيم للمسلمين صلاتهم بنفسه ويقود الجند أو يختار من رجاله قائداً للجيش ويعين جابيا للخراج فيصرف منه حاجات الإمارة وأعطيات الجنود ويرسل بما يبقى إلى الخليفة ويعين من شاء للقضاء بين الناس وتارة كانوا يقصرون الولاة على الصلاة والحرب والقضاء ويعين الخليفة عاملا للخراج يرجع إليه رأسا .

والأمراء الذين كانت إليهم النيابة العامة كانوا متمتعين بما يسمى فى العرف الحاضر بالاستقلال الإدارى فكانوا يتصرفون فى كل شىء ويعلمون الخليفة بما عندهم من الأمور العظيمة وأظهر ما كان هذا الاستقلال فى بلاد العراق فى عهد زياد بن أبى سفيان وابنه عبيد الله والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد بن عبد الله القسرى إلا أن الحجاج كان أكثرهم استقلالا للثقة التى حازها عند عبد الملك وابنه الوليد

كانت المشاكل تحل والمنازعات تقضى فى حواضر الإمارات إلا أنه لا مانع يمنع ذا ظلامة من أن يرفع أمره إلى الخليفة وقد ترفع عنه ظلامته وقد ضيق على الأمراء عمر بن عبد العزيز بعض التضييق لأن ثقته كانت بهم قليلة وقد حتم عليهم أن لا ينفذوا حدا من الحدود من قتل أوقطع إلا إذا عرض عليه وأمر بتنفيذه : أما فى عهد غيره فكان الأمراء يفعلون ما فوق ذلك من غير أن يعلم الخليفة بما يفعلون فكان أحدهم يأمر بقتل الرجل على أيسر الذنوب ويضربه الضرب المبرح من غير أن يكون هناك اعتراض عليه لا من الخليفة ولا من الناس

والذى دعا إلى تمتع الأمراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة دمشق وبين حواضر الولايات فلو ألزم الأمير أن يستشير فى كل مايقع فى

دائرة ولايته لطال عليهم الزمن وبقيت المشاكل من غير حل زمنا طويلا وهذا مسبب للاضطراب الكثير

ومن أعظم مايؤخذ على بنى أمية فى النصف الثانى من أيام خلافتهم إذلال الأمراء ومصادرتهم فى أموالهم وأحيانا الإتيان على أنفسهم بعد أن يعزلوا وقد ابتدأ هذا فى عهد سليمان بن عبد الملك فإنه أذل عمال الحجاج ومن كانوا يلوذون به بعد أن مهدوا لهم السبل ووطئوا لهم المنابر واستمر الأمر على ذلك من بعد عمر بن عبد العزيز إلى أن انتهى أمرهم وقد كان هذا سببا من أسباب فناء البيت الأموى ومن أغرب ماحصل لهم أنّ يوسف بن عمر الثقفى الذى ولى العراق بعد خالد ابن عبدالله القسرى اشترى من الوليد بن يزيد خالدا وعماله بخمسين ألف ألف فدفعه اليه فنزع ثيابه وألبسه عباءة وحمله فى محمل بغير وطاء وعذبه عذابا شديدا وهو لايكلمه كلمة ثم حمله إلى الكوفة فعذبه ووضع المضرسة على صدره فقتله فى الليل ودفنه من وقته بالحيرة فى عباءته التى كان فيها وذلك بعد أن ولى خالد العراق خمس عشرة سنة وهو بعد هذا سيد من سادات اليمن وعظيم عظمائهم

قيادة الجنود

تمتاز هذه الدولة بأن عصرها كله كان زمن فتح ففيه اتسعت حدود المملكة الإسلامية من الجهة الشرقية فى السند والصغد وبلاد الترك ومن الجهة الشمالية فى أذربيجان وأرمينية وبلاد الروم ومن الجهة الغربية فى أفريقية والأندلس

وكان عصرها مع هذا زمن حروب داخلية عظام . حيناً مع الخوارج وحيناً مع طلاب الخلافة من بنى على ولم يخل عصر خليفة أموى من حروب داخلية إلا عصر الوليد بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز . فهى إذاً دولة حربية . ولا جرم إن امتاز فيها أفراد كثيرون بقيادة الجنود إلى حومة الوغى واشتهروا بالثبات ومضاء العزيمة وحسن التدبير فى الحرب وهانحن نورد على أسماعكم جملة من أولئك الأفراد العظام الذين مرّ ذكرهم

ممن اشتهر بالشرق

(١) المهلب بن أبى صفرة الأزدى وكان عالما تاما بمكيدة الحرب والاحتراس من

غوائلها واشتهر فى حروبه مع الخوارج ببلاد فارس وله حروب قليلة بما وراء النهر وامتاز المهلب بحبته للجماعة وبغضه للفتن والثورات

(٢) قتيبة بن مسلم الباهلى وكان شجاعا مقداما لا يرده شىء عن قصده واشتهر بحروبه بما وراء النهر فإنه دوخ تلك البلاد وأذل أهلها وقد أخذ عليه خلعه لسليمان بن عبد الملك عقب خلافته وكان ذلك سبب هلاك قتيبة وأهل بيته وفقد الدولة صالح خدمتهم

(٣) يزيد بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى وكان شجاعا لا يخطر له الفرار على بال واشتهر بحروبه فى جرجان وطبرستان فإنه ردّ أهلهما إلى الطاعة بعد غدرهم وقطعهم الطريق طريق خراسان وله حروب بعد ذلك بما وراء النهر وأخذ عليه خلعه ليزيد بن عبد الملك عقب خلافته وكان ذلك سببا لهلاكه وهلاك أهل بيته الذين كانوا غرة فى جبين الدولة الأموية

(٤) أسد بن عبد الله القسرى اشتهر بحروبه العظيمة بما وراء النهر وكان الناس هناك يسمونه ملك العرب وهابوه هيبة لم يهابوها قائداً قبله وأخذ عليه عصبيته لقومه من اليمن على غيرهم من نزار حتى كان ذلك سببا فى فساد أهل خراسان واختلافهم

(٥) محمد بن القاسم بن محمد الثقفى اشتهر بحروبه فى بلاد السند على عهد الحجاج ابن يوسف وافتتح من السند أعظم بلدانهم وأحكم الأمر بها حتى دانت له وقد قتل فى أول خلافة سليمان بن عبد الملك واشتهر فى أرمينية وأذربيجان

(٦) محمد بن مروان بن الحكم الأموى كان شجاعا أيدا وعزيمة ثابتة حتى كان أخوه عبد الملك يحسده على ذلك وله غزوات وفتوح فى شمال أرمينية وأذربيجان

(٧) مروان بن محمد بن مروان كان كأبيه بطلا مقداما سدّ ثغور أرمينية وأذربيجان وأبلى فيها البلاء الحسن

(٨) الجراح بن عبد الله الحكمى وقد قتل فى بعض حروبه مع الخزر واشتهر فى بلاد الروم

(٩) مسلمة بن عبد الملك كان أشجع أولاد عبد الملك بن مروان غزا القسطنطينية المرة الثانية وافتتح كثيرا من الحصون الرومية وقد قصر به عن الخلافة أن أمه كانت أمة ولم يكن بنو أمية فى أول أمرهم يولون إلا أولاد الحرائر

(١٠) أبو محمد عبد الله البطال كان رئيسا على عرب الجزيرة الذين يغزون ثغور الروم وكانت الروم تهابه هيبة شديدة

(١١) العباس بن الوليد بن عبد الملك كان يسامى مسلمة فى نباهة الشأن وقوة العزيمة وكان كثيرا ما يقود الشواتى والصوائف إلى البلاد الرومية واشتهر فى الغرب وأفريقية

(١٢) عقبة بن نافع وهو مؤسس القيروان وله مع البربر وقائع كثيرة انتصر فى معظمها وكانت نهاية أمره أنه قتل فى إحدى تلك الوقائع

(١٣ و ١٤) موسى بن نصير وطارق بن زياد وهما اللذان فتحا بلاد الأندلس وأدخلا الإسلام فى قارة أوربا

وهناك غيرهم من القواد . لكن لم يكن لهم من رفعة القدر ما لهؤلاء ولم تكن همة الدولة الإسلامية قاصرة على تقوية الجيوش البرية بل كان لهم أسطول قوى فى البحر الأبيض المتوسط يحمى البلاد الإسلامية من غارات الروم المتواصلة ويغير على بلادهم وكان لهم من غابات لبنان مورد عظيم لصنع مراكبهم فضلا عما كانوا يغنمونه من مراكب الروم ولم تكن أمراء البحر فى الدولة الأموية تقل مهارة وإقداما عن أمراء البحر الروميين وعلى الجملة فإنّ الدولة الأموية ظهرت بمظهر القوة القاهرة أمام الأمم التى تجاورها من الشرق والشمال والغرب فى جميع أدوارها : وكانت السيادة فى الجيوش للعنصر العربى لأن الدولة كانت عربية محضة لم ينازعها دخيل ولذلك لم نر من بين قوادها أعجميا

القضاء والأحكام

لم يزل القضاء فى عهد هذه الدولة على بساطته التى كان عليها فى عهد الخلفاء الراشدين إلا أن تناكر الخصوم أرشدهم إلى تسجيل الأحكام قال محمد بن يوسف الكندى فى كتاب الذين ولوا مصر ص ١٠ اختصم إلى سليم بن عتر (قاضى مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان) فى ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا إليه فقضى بينهم وكتب كتابا بقضائه وأشهد فيه شيوخ الجند قال فكان أول القضاة بمصر سجل سجلا بقضائه

ولم يكن القضاة يتقيدون برأى فى أحكامهم إذ لم تدون إذ ذاك أحكام فقهية يقر عليها الخلفاء ويحتمون العمل على مقتضاها فكان الأمر راجعا إلى القضاة أنفسهم أو إلى مايشير به المفتون من كبار المجتهدين فى أمصارهم

كان توبة بن نمر لا يملك شيئا إلا وهبه ووصل به إخوانه وأفضل به عليهم فلما ولى القضاء بمصر فى عهد هشام بن عبد الملك كان يرى أن يحجر على السفيه والمبذر فرفع غلام من حمير لاتحوى يده شيئا إلا وهبه وبذره فقال توبة أرى أن أحجر عليك يابنى قال فمن يحجر عليك أيها القاضى والله ما نبلغ فى أموالنا عشر معشار من تبذيرك فسكت توبة ولم يحجر على سفيه بعد . فهذا الخبر يدل على مقدار ما كان للقضاء من الحرية فى اختيار الآراء التى يقضون بها . وأحيانا يطلبون من الخلفاء بيان آرائهم فى الحوادث المختلفة إذا اشتبه عليهم الأمر فيها كما كتب عياض بن عبيد الله الأزدى قاضى مصر من قبل عمر بن عبد العزيز اليه يسأله فى أمر الشفعة وأن سلفه كانوا يقضون فيها للأول فالأول من الجيران فكتب اليه أن يجعلها للشريك وحده وقال فإذا وقعت الحدود بين أهل الشرك فى الميراث أوغيره وضربت مداخل الناس التى يدخلون منها دورهم وأرضهم فقد انقضت الشفعة

وبذلك كانت الأحكام يخالف بعضها بعضا فى الأمصار المختلفة لأن المجتهدين لم يكونوا على رأى واحد ولم تلتفت الدولة إلى التفكير فيما يجمع كلمة المجتهدين على شىء يقضى به قضاتهم أويحمل مجتهدى كل مصر على عمل مايصلح لذلك المصر مستمدين من أصول الدين : لم يفعلوا هذا ولا ذاك بل تركوا لكل قاض تمام حريته فى الحكم بما يراه

وكان يضاف إلى القضاة مراقبة أموال اليتامى وأول قاض نظر فيها عبد الرحمن ابن معاوية بن خديج قاضى مصر من قبل عبد العزيز بن مروان فإنه ضمن عريف كل قوم أموال يتامى تلك القبيلة وكتب بذلك كتابا وكان عنده . قال الكندى فجرى الأمر على ذلك

وكانوا يتولون الأحباس وأول قاض بمصر وضع يده على الأحباس توبة بن نمر فى زمن هشام بن عبد الملك وإنما كانت الأحباس فى أيدى أهلها وفى أيدى أوصيائهم فلما كان توبة قال ماأرى مرجع هذه الصدقات إلا إلى الفقراء

والمساكين فأرى أن أضع يدى عليها حفظا لها من التواء والتوارث فلم يمت توبة حتى صار الاحباس ديوانا عظيما وكان ذلك سنة ١١٨ فذلك أول إنشاء ديوان الاوقاف بمصر

كان اختيار القضاة يرجع غالباً إلى أمراء الامصار فهم الذين يعينون من يقوم بالقضاء بين الناس وأحيانا كانوا يولون من قبل الخلفاء أنفسهم وقاضى حاضرة الخلافة يختاره الخليفة وليس له أدنى امتياز عن سائر القضاة ولا رأى فى اختيارهم ويظهر أن مرتبات القضاة لم تكن بما يحوجهم إلى مد الايدى إلى السحت رأيت أن عبد الرحمن بن بحيرة كان يتولى القضاء بمصر ومعه القصص وبيت المال فكان رزقه فى السنة من القضاء مئى دينار ومن القصص مئى دينار ورزقه فى بيت المال مئى دينار وكان عطاؤه مئى دينار وكانت جائزته مئى دينار فكان يأخذ ألف دينار فى السنة . ورأيت فى الكندى أمرا بصرف مرتب قاض فى عهد مروان الثانى هذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من عيسى بن أبى عطاء إلى خزان بيت المال أعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضى رزقه أشهر ربيع الاول وربيع الآخر سنة ١٣١ عشرين دينارا واكتبوا بذلك البراءة وكتب يوم الاربعاء لليلة خلت من ربيع الاول سنة ١٣١) وبذلك يظهر أن الارزاق كانت تصرف مقدما

الدواوين

كانت الدواوين لعهد بنى أمية ثلاثة

(١) ديوان الجند

(٢) ديوان الخراج

(٣) ديوان الرسائل : فأما ديوان الجند فإنه مذ وضع كان بالعربية لأن عمر إنما كلف بوضعه نابغين من العرب وهم عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا كتاب قريش : وكان هذا الديوان يحصر جند كل إمارة وأعطياتهم وكل ما يختص بهم فهو ديوان (الحربية)

وأما ديوان الخراج فانه كان بالعراق باللغة الفارسية وببلاد الشام باللغة الرومية وبمصر باللغة القبطية لأن العمال الذين يشتغلون فيه هم من أمم تلك اللغات الثلاث لم يكن المسلمون قد مهروا بعد فيه فلما ولى الحجاج العراق كان رئيس الديوان فى عهده

زاذان فروخ واتفق أن انضم إلى الديوان صالح بن عبد الرحمن وكان أبوه من سبي سجستان فرآه الحجاج يكتب بالفارسية والعربية فخف على قلبه شعر صالح بذلك فخاف من زاذان وقال له أنت الذى رقيتنى حتى وصلت إلى الأمير وأراه قد استخفنى ولا آمن أن يقدمنى عليك فتسقط منزلتك فقال زاذان لا تظن ذلك هو أحوج إلى منى إليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيرى فقال صالح والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته قال فحول منه أسطراً حتى أرى ففعل فقال له زاذان تمارض فتمارض فبعث إليه الحجاج بطبيبه فشق ذلك على زاذان وأمره أن لا يظهر للحجاج فاتفق عقيب ذلك أن قتل زاذان فى فتنة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فاستكتب الحجاج بعده صالحاً فأعلم الحجاج بما جرى له مع زاذان فى نقل الديوان فأعجبه ذلك وعزم عليه فى إمضائه فنقله من الفارسية إلى العربية وشق ذلك على الفرس وبذلوا له مئة ألف درهم على أن لا يظهر النقل فأبى عليهم وكان عبد الحميد بن يحيى الكاتب يقول لله در صالح ما أعظم منته على الكتاب : وأما ديوان الشام فان الذى نقله من الرومية إلى العربية أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل فى خلافة الوليد بن عبد الملك وكان الذى يليه فى عهد معاوية سرجون بن منصور الرومى ثم كتب بعده ابنه منصور بن سرجون

وأما ديوان مصر فقد نقل فى عهد عبدالله بن عبد الملك أمير مصر من قبل الوليد ابن عبد الملك سنة ٨٧ ووليه ابن يربوع الفزارى من حمص هكذا نقلت هذه الدواوين الثلاثة إلى اللغة العربية وتخلصت الدولة من هذه الحاجة إلى الكتاب من الأمم الأخرى

وكان ديوان الخراج ينتظم جميع حساب الدولة من دخل ومصرف أو هو ديوان (المالية)

وأما ديوان الرسائل فهو الديوان الذى كانت تصدر منه الرسائل إلى الأمراء والعمال فى الإمارات المختلفة وكان هذا بالعربية طبعاً

وكان عندهم ما يسمى بديوان الخاتم وهو الديوان الذى تختم فيه الكتب بعد أن تكتب وكاد الخلفاء يختارون من ثقاتهم والأمناء من مواليهم من يكون بيده الخاتم خاتم الخلافة وقد ذكر الطبرى فى حوادث سنة ٧٢ أسماء من ولوا كتابة الدواوين للخلفاء وممن اشتهر منهم عبد الحميد بن يحيى قال الطبرى وكان من البلاغة فى مكان مكين ومما اختير له من الشعر

ترحل ما ليس بالقافل   واعقب ما ليس بالزائل

فلهفى على الخلف النازل ولهفى على السلف الراحل
أبكى على ذا وأبكى لذا بكاء مولهة ثاكل
تبكى من ابن لها قاطع وتبكى على ابن لها واصل
فليست تفتر عن عبرة لها فى الضمير ومن هامل
تقضت غوايات سكر الصبى وردّ التقى عن الباطل

السكة الإسلامية

قد بينا أنّ عمر بن الخطاب ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد فى بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله وفى بعضها لا إله إلا الله إلى آخر مدّة عمر ووزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل وأنّ عثمان ضرب فى خلافته دراهم نقشها الله أكبر

قال المقريزى فلما اجتمع الأمر لمعاوية بن أبى سفيان وجمع لزياد بن أبيه الكوفة والبصرة قال يا أمير المؤمنين إنّ العبد الصالح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صغر الدرهم وكبر القفيز وصارت تؤخذ عليه ضريبة أرزاق الجند وترزق عليه الذرّية طلباً للإحسان إلى الرعية فلو جعلت أنت عياراً دون ذلك العيار ازدادت به الرعية مرفقاً ومضت لك به السنة الصالحة فضرب معاوية تلك الدراهم السود الناقصة من ستة دوانيق فتكون خمسة عشر قيراطا تنقص حبة أو حبتين وضرب منها زياد وجعل وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل وكتب عليها فكانت تجرى مجرى الدراهم وضرب معاوية أيضا دنانير عليها تمثال متقلد سيفاً

فلما قام عبدالله بن الزبير بمكة ضرب دراهم مدورة وكان أوّل من ضرب الدراهم المستديرة وكان ماضرب منها قبل ذلك ممسوحا غليظا قصيراً فدورها عبدالله ونقش على أحد وجهى الدرهم محمد رسول الله وعلى الآخر أمر الله بالوفاء والعدل وضرب أخوه مصعب بن الزبير دراهم بالعراق وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل وأعطاها الناس فى العطاء

فلما استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله ومصعب ابنى الزبير فحص عن النقود والأوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدراهم فى سنة ٧٦ فجعل

وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطا إلا حبة بالشامى وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطا سوى والقيراط أربع حبات وكل دانق قيراطان ونصف وكتب إلى الحجاج وهو بالعراق أن أضربها قبلك فضربها وقدمت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها بقية الصحابة رضى الله عنهم أجمعين فلم ينكروا منها سوى نقشها فإنّ فيه صورة وكان سعيد بن المسيب يبيع بها ويشترى ولا يعيب من أمرها شيئا : وجعل عبدالملك الذهب الذى ضربه دنانير على المثقال الشامى وهى الميالة الوازنة كل مائة دينار بن أى أنّ النسبة بين المثقالين كالنسبة بين ١٠٠ و ١٠٢

ثم قال وكان الذى ضرب الدراهم رجلا يهوديا من تيماء يقال له سمير نسبت الدراهم إذ ذاك السميرية . وبعث عبد الملك بالسكة إلى الحجاج فسيرها الحجاج إلى الآفاق لتضرب وقيل لها الدراهم الدراهم بها وتقدم إلى الأمصار كلها أن يكتب إليه منها فى كل شهر بما يجتمع قبلهم من المال كى يحصيه عندهم وأن تضرب الدراهم فى الآفاق على السكة الإسلامية وتحمل إليه أوّلا فأوّلا وقدر فى كل مائة درهم عن ثمن الحطب وأجر الضراب ونقش على أحد وجهى الدرهم قل هو الله أحد وعلى الآخر لا إله إلا الله وطوق الدرهم على وجهيه بطوق وكتب فى الطوق الواحد ضرب هذا الدرهم بمدينة كذا وفى الطوق الآخر محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله

ثم قال وكان الذى دعا عبدالملك إلى ذلك أنه نظر للأمة وقال هذه الدراهم السوداء والوافية والطبرية والعتق تبقى مع الدهر وقد جاء فى الزكاة أنّ فى كل مئتين أو فى كل خمسة أواق خمسة دراهم وأشفق أن جعلتها كلها على مكان السود العظام مئتين عددا أن يكون قد نقص من الزكاة وأن عملتها كلها على مثال الطبرية ويحمل المعنى على أنها إذا بلغت مئتين عدداً وجبت الزكاة فيها فإن فيه حيفا وشططا على أرباب الأموال فاتخذ منزلة بين منزلتين يجمع فيها كمال الزكاة من غير بخس ولا إضرار بالناس مع موافقة ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده من ذلك وكان الناس قبل عبدالملك يؤدون زكاة أموالهم شطرين من الكبار والصغار فلما اجتمعوا مع عبد الملك على ما عزم عليه عهد إلى درهم واف فوزنه فإذا هو ثمانية دوانيق وإلى درهم من الصغار فإذا هو أربعة دوانيق فجمعها وكمل زيادة الأكبر على نقص الأصغر وجعلها درهمين متساويين زنة كل منهما ستة دوانيق سوى واعتبر المثقال أيضا فإذا هو لم

يبرح فى آباد الدهر موفى محدوداً كل عشرة دراهم منها ستة دوانيق فإنها سبعة مثاقيل سوى فأقر ذلك وأمضاه من غير أن يعرض لتغييره

ثم قال ومات عبد الملك والأمر على ما تقدّم فلم يزل من بعده فى خلافة الوليد ثم سليمان ثم عمر إلى أن استخلف يزيد بن عبد الملك فضرب الهبيرية بالعراق عمر بن هبيرة على عيار ستة دوانيق فلما قام هشام بن عبد الملك وكان جموعا للمال أمر خالد ابن عبد الله القسرى فى سنة ١٠٦ أن يعيد العيار إلى وزن سبعة وأن يبطل السكك من كل بلد إلا واسطا فضرب الدراهم بواسط فقط وكبر السكة فضربت الدراهم على السكة الخالدية حتى عزل خالد سنة ١٢٠ وتولى من بعده يوسف بن عمر الثقفى فصغر السكة وأجراها على وزن ستة وضربها بواسط وحدها فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة على السكة بحران إلى أن قتل

وقد نقل المرحوم على مبارك باشا فى الجزء الأخير من الخطط وضيحات نافعة فى أمر الدرهم والدينار فى الدول الإسلامية وأتبعها بجدول يعرف منه وزن الدراهم والدنانير فى الأزمنة المختلفة : وحقق أن المثقال والدينار ليسا مترادفين وأن المثقال سدس الأوقية والأوقية المصرية الرومانية التى يغلب على الظن أن العرب اعتبرتها قدرها ٢٨ر٣٢ جراما فسدسها الذى هو المثقال ٤ر٧٢ جرام وهناك مثقال آخر يقل عن هذا شيئا يسيرا إذ أن وزنه ٤ر٦٩ وأن الدينار كان وزنه ٤ر٢٥٠

ومن الجدول الذى ذكره يتبين أن وزن الدرهم يساوى وزن القطعة ذات القرشين تقريبا لأن وزنها ٣ر٥٠ جرامات وكان الدرهم فى عهد عبد الملك يتراوح وزنه بين ٢ر٩٤ ج وبين ٢ر٧٠ ج وأن وزن الدينار كان يساوى فى الوزن نصف الجنيه الإنكليزى لأن وزنه ٤ر٢٥ وقد كان وزن الدينار فى عهد عبد الملك يتراوح بين ٤ر٦٤ ج وبين ٤ر٢٥٢

ومما بين يظهر فضل عبد الملك بن مروان فى ضربه نقودا إسلامية لأن هذا أول علامة من علامات استقلال الدولة المالى وما كان يصح لمثل الدولة الأموية مع اتساع سلطانها أن تبقى عالة على الروم والفرس فى الدرهم والدينار

أسباب السقوط

استولى البيت الأموى على خلافة المسلمين بالقهر والغلبة لا عن رضا ومشورة فإن

معاوية بن أبي سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا شيعته على من خالفه من أهل العراق والحجاز حتى تم الأمر ورضى الناس عنه والقلوب منطوية على ما فيها من كراهة ولايته . كان فى الأمة العربية طريقان عظيمان لايرضون عنه وهم الخوارج وشيعة بنى هاشم والأولون ذوو أقدام وبسالة ألداء لايقف فى أوجههم عما أرادوا شيء إلا أن يكون الفناء والآخرون عددهم عظيم ومن السهل تحريك القلوب نحو نصرتهم لما لهم من شرف النسبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيت هذا شأنه لايصفو له الملك إلا إذا اتكأ على حسن السياسة والتأمت حوله القلوب التى تشايعه والتى سلت سيوفها لنصرته فإذا حل الخرق محل الرفق والقسوة محل اللين فسرعان ماتهب تلك القلوب من مكانها فإن صادفت قوة عادت بالفشل وانتظرت فرصة أخرى وإن صادفت شمل خصمها متفرقا قهرته وقضت عليه

عرف ذلك معاوية فاستعمل من ضروب السياسة مع رؤساء العشائر وكبار الشيعة ما ألان شكيمتهم وأسكن ثورتهم فكان يغضى عن الزلات ويعفو عن السيئات يسمع كلمة السوء توجه إليه فيحملها على أحسن محاملها ويجعل من الجد مزحا ومن العداء تقربا ويخلط ذلك بالكرم الفياض الذى يذلل النفوس الجامحة ويقرب القلوب النافرة إلا أنه نرى فيما زل زلة كبرى نالت من قيمة عمله وهى اهتمامه بالغض من على بن أبى طالب على منابر الأمصار فكان هو وأمراؤه يفعلون ذلك حتى جعل النيران تتأجج فى صدور شيعته وكان كثير منهم يظهر من ذلك امتعاضا وربما رد الجرىء منهم على الأمير وجها لوجه فيكون من وراء ذلك إسراف فى العقوبة يزيد الأمر شرا كما حصل من زيادة فى أمر حجر الكندى

ظهر من ذلك أن خلفاء البيت الأموى كانوا فى حاجة لتأييد سلطانهم إلى ما لا يحتاج إليه غيرهم ولكنهم لم يهتموا بذلك كثيراً فظهرت لهم جملة عيوب كانت سببا فى القضاء عليهم وهى :

أولا — ولاية العهد

كانت ولاية العهد سببا كبيراً فى انشقاق البيت الأموى وذلك أن بنى مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلى أحدهما الآخر : وأول من فعل ذلك مروان فإنه ولى عهده عبد الملك ثم عبد العزيز فكاد عبد الملك يبدأ بشق هذا البيت حيث أراد تحويل ولاية عهده

إلى ابنه الوليد وعزل أخيه لولا أن ساعد القضاء المحتوم بوفاة عبد العزيز فلم تبدأ الأزمة ولكنه هو الذى رأى ذلك وعلمه لم يستفد من تلك التجربة بل ولى الوليد وسليمان خطر ببال الوليد أن يعزل سليمان ويولى ابنه فعاجله القضاء وأخر الأمر إلى حين لم يستفد سليمان مما حصل له فولى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك ولم يكن عمر يميل إلى يزيد لخيف منه فعوجل حتى قيل إنه سم : أعاد يزيد هذه الغلطة فولى عهده هشاما أخاه ثم الوليد ابنه فأراد هشام أن يخلع الوليد ولج فى ذلك حتى تباعد ما بين هشام والوليد : وكان كثير من كبار القواد وذوى الكلمة المسموعة فى الدولة الأموية صرحوا بممالأة هشام على رأيه ولكنه مات قبل أن ينفذ ما رأى فجاء الوليد مشمرا عن ساعد الجد فى الانتقام من أولئك الخصوم الذين عليهم المعول فى إشادة بيتهم ومنهم بنو عمه وكبار أهل بيته فكان ذلك نذير الخراب فإن البيت انشق وتجزأت القوى التى كان يستند عليها فكان من وراء ذلك مجال واسع لخصومهم الذين هبت أعاصيرهم من المشرق فأخمدت منهم الأنفاس وجعلتهم أثرا بعد عين

ثانيا - إحياء العصبية الجاهلية التى جاء الإسلام معفيا لأثرها ومشددا فى النعى عليها لأنه رأى أن حياة الأمة العربية لا تستقيم مع هذه العصبيات التى أضعفت قواهم فى جاهليتهم

وقد نبض عرقها فى أول الدولة المروانية فإن وقعة مرج راهط التى تلاها قيام مروان بالأمر كانت بين شعبين متناظرين وهما قيس التى كانت تشايع الضحاك وكلب التى كانت تشايع مروان يقدمها حسان بن بحدل الكلبى وقال فى ذلك مروان

لما رأيت الأمر أمراً نهبا   يسرت غسان لهم وكلبا
والسكسكين رجالا غلبا   وطيئا تأباه إلا ضربا
والقين تمشى فى الحديد نكبا   ومن تنوخ مشمخرا صعبا
لا يأخذون الملك إلا غصبا   وإن دنت قيس فقل لا قربا

وكان من نتيجة ذلك أن الجند الذى أرسل بقيادة عبيد الله بن زياد لحرب المختار ابن عبيد الثقفى كاد يستأصل فإن عمر بن الحباب السلمى كان على ميسرة ذلك الجيش وهو من قيس عيلان فلما قامت رحا الحرب على نهر الخازر كان أول من نكس لواءه ونادى يالثارات قتلى المرج وبذلك تمت الهزيمة على جند الشام وقتل عبيد الله

وكثير من جند الشام : فى الوقت الذى نبض فيه عرق العصبية الجاهلية بين قيس واليمن فى الشام كان ماهو أشد منه فى خراسان فإن مسلم بن زياد أميرها لما علم بموت يزيد سار عنها واستخلف المهلب بن أبى صفرة وهو أزدى والأزد من اليمن فلما كان بسرخس لقيه سليمان بن مرثد وهو من ربيعة فقال له ضاقت عليك نزار حتى خلفت على خراسان رجلا من أهل اليمن فولاه مرو الروذ والفارياب والطالقان والجوزجان وولى أوس بن ثعلبة هراة فلما وصل نيسابور لقيه عبيدالله بن خازم فقال من وليت خراسان فأخبره فقال أما وجدت فى المصر من تستعمله حتى فرقت خراسان بين ربيعة واليمن اكتب لى عهداً على خراسان فكتب له فسار ابن خازم إلى مرو وملكها وأخرج من بها من ربيعة فتوجهوا إلى أوس بن ثعلة بهراة وقالوا له نبايعك على أن تسير إلى ابن خازم وتخرج مضر من خراسان فبايعهم على ذلك وسار إليهم ابن خازم واقتتل الفريقان بهراة وكانت الهزيمة على ربيعة بعد أن قتلوا قتلا ذريعاً ثم عاد ابن خازم إلى مرو

وكان بنو تميم قد أعانوا ابن خازم لأنهم من مضر فلما صفت له خراسان جفاهم فتنكروا له وكانت بينهم مواقع

بذلك كانت العرب بخراسان منقسمة أقساما أربعة : اليمن وربيعة وقيس عيلان وتميم وهؤلاء الثلاثة يجمعهم نزار ويجمع الأخيران مضر

كانت الأمراء تساعد على إنماء هذه الروح الخبيثة فإذا ولى يمان رفع رؤس أهل اليمن واستعملهم عمالا على الأمصار فإذا تلاه مضرى عكس الأمر وانتقم من سلفه ومن عماله

ولم يكن ذلك العرق يسكن إلا إذا كانت حروب خارجية مع الصغد أو الترك فهناك تجتمع كلمتهم ويلتئم صدعهم للدفاع عن أنفسهم فإذا عادوا عاد الفساد وكان من هذا الاختلاف مجال واسع لخصوم البيت الأموى الذين يطالبونه بما فى يده مما ليس له فإن أبا مسلم الخراسانى اتكأ على ذلك فضرب كل شعب بالآخر حتى تمّ له الظفر بجميعهم ولا ننسى أنّ لشعراء العرب الذين نبغوا فى هذه الدولة يداً كبرى فى إنماء هذه العصبية فمن قرأ أشعار الأخطل والفرزدق وجرير وغيرهم من شعراء القبائل المختلفة ويتجلى له ذلك : لاشىء أضر على الأمم من أن تنقسم طوائف

فتنتمى إلى عناصر مختلفة وكل طائفة تتعصب لعنصرها فإذا كان مع ذلك الانقسام جهالة فإنّ الكلمة تحق على الأمة ويقرب منها الفناء فإنّ الجهل يجعل روح العصبية موجهة إلى معاكسة المخالفين فتكون الأمة قوى متنافرة لاقبل لها بمن ينازعها بقاءهما لم ينتج من إنماء العصبية الجاهلية فى قلب الأمة العربية ذهاب البيت الأموى وحده بل كان من ذلك ضعف الأمة العربية نفسها وتغلب الأعاجم على أمرها حتى كان منهم ما كان فى عهد الدولة العباسية مما سيأتى تفصيله إن شاء الله

(ثالثا) تحكيم بعض الخلفاء من بنى أمية أهواءهم فى أمر قوادهم وذوى الأثر الصالح من شجعان دولتهم وهذا السبب متفرع عن السبب الأول والثانى فإن سليمان ابن عبدالملك لما ولى بعد أن كان الوليد يريد إخراجه من ولاية العهد عمد إلى كل من كان هواه مع الوليد فأذلهم وحرم نفسه وأمته من الانتفاع بتجاربهم فقد أهلك محمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم وهما قائدان عظيمان من قيس بن عيلان ولاذنب لهما إلا أنهما من صنائع الحجاج الذى كان هواه مع الوليد ولا يميل إلى سليمان . ولما جاء يزيد بن عبدالملك كان هواه مع آل الحجاج لأنه صهرهم وكان يزيد بن المهلب قد عذب آل الحجاج فخاف وهلع وكانت نتيجة ذلك أن فقدت الدولة بيت المهلب بن أبى صفرة وهو بيت طاعة من قديم وطالما كان له أعظم الآثار فى خدمة بنى أمية والأمة الإسلامية وكان بعدهذا شىء كثير ففسدت قلوب الناس حتى كانوا ينتظرون من يجمع كلمتهم على الانتقام من بنى أمية ومن يؤازرهم

الأمة التى ينتقم خلفها من عمال السلف لأنهم كانوا على وفاق معه تفقد صالح الأعوان وتحرم الاستفادة من تجارب العقلاء فلا يختمر لها رأى ولا ينضج فيها عمل تمرّ عليها الأمم سائرة إلى امام وهى فى موقفها ولها حركة لاتتبين فيها مواقع أقدامها فلا تكاد تخرج من مزلة إلا صادفتها أخرى حتى يهديها التاريخ بعبره فتعتبر إذ تساق إلى الفناء فتكون عبرة من العبر

تنبيه - لما كان أكثر الذين دوّنوا فى عهد بنى أمية قد عاشوا فى الدولة العباسية استحسنا أن نجعل الكلام عن العلم والتدوين بعد انتهاء الدولة العباسية

﴿تم الجزء الثانى من المحاضرات﴾

فهرست

الجزء الثانى من محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية

﴿ تمت ﴾